الأبيض يلعب أولًا

الأبيض يلعب أولًا

(رواية)

محمد عبد الفتاح السروري

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٨٧٧٤

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 546 – 9

الأبيض يلعب أولًا

رواية

محمد عبد الفتاح السروري

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السروري، محمد عبد الفتاح

الأبيض يلعب أولًا: رواية/ محمد عبد الفتاح السروري.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٩ ٥٤٦ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٨٧٧٤ / ٢٠١٩

﴿وتفقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْـهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21)﴾

(سورة النمل: الآيتــان 20 – 21)

جاء في الأثر... عندما سُئِل نبي الله سليمان عن العقاب الذي سوف يُنزله بالهدهد إن لم يقتنع بـحُجته في الغياب، أن أجاب الحكيم بقوله: إنه سوف يضعه في فصيلة غير فصيلته... وهذا هو عقابه..

مصر قبل يناير 2011

هو.. نامق سليمان أحمد كاظم النامق، سليل واحدة من أعرق العائلات التي استوطنت مصر منذ ما يربو على المئتي عام، فهو حفيد للعِرق الألباني من جهة والده بعد أن قَدِم أحد أجداده الأقدمين إلى مصر في إرسالية من إرساليات الجيش العثماني مع أورطة من جنود فرقة الروملي (الركبان) التي أرسلها الخليفة العثماني لإخراج الحملة الفرنسية من مصر حينما كانت ألبانيا جزءًا من الدولة العثمانية، ومنذ صغرهِ كان يشعرُ بأنه مختلف بسبب اسمه الذي كان البعض يتعجب منه، وكثيرًا ما سُئل:

ـ نامق... يعنى إيه نامق؟ فيه حد يبقى اسمه نامق!

وكان يرد ردًّا رزينًا لا يخلو من ضيق:

ـ نامق يعني مُنمق... هذَّب ونمّق.

ومن رواية أبيه وبعد أن تغيّر الزمان ظل حريصًا على ذكر اسمه بالكامل[1] في كثير من المواقف حتى لا يظن البعض أنه مسيحي، خاصة وأن ملامحه توحي بذلك، فكثيرًا ما سمعها "شكلك مسيحي" إلى أن قرر ذات مرة التوقف عن ذلك بعدما وجد أن الأمر لا يخلو من طرافة في كثير من المواقف ولكي يتيح لنفسه شيئًا من استكناه نفوس البشر[2].

له أخت واحدة أكبر منه بسنوات قليلة، اسمها إنزا... متزوجة... يعيش وحيدًا في شقة أسرته الواسعة بحي مصر الجديدة... شقة بالإيجار.. إيجار قديم.. جنيهات معدودات.

كان والده مهندسًا معماريًّا، التحق بالعمل في إحدى شركات المقاولات التي تم تأميمها بعد ثورة 1952.. عرف منذ الوهلة الأولى أنَّ الزمن تغيَّر، ومن الأفضل أن يقبل الوضع الجديد، استطاع أن يتقبل ولكنه لم يستطع أن يتأقلم، ظل سليمان كاظم طوال عمره يُكن كرهًا عميقًا لثورة يوليو، ولأنه لم يكن هناك أى بدائل أو اختيارات أمامه قرر الرضوخ للأمر الواقع

(1) اتبع نظام يوليو إجراء الاكتفاء بذكر الاسم الثلاثي فقط في الوثائق الرسمية والتعريف العام بالشخصية.. ويقال في هذا المقام إن هذا النظام كان يهدف إلى بتر ذِكر ألقاب العائلات الكبرى في مصر حيث رأى أن تلك الألقاب تعد حفاظًا على ذاكرة يراها غير مرغوب بالحفاظ عليها لأن في ذلك استمساكًا وفخرًا بأصول النسب والعِرق، ما يتعارض مع عهده الجديد من وجهة نظره الثورية.

(2) حقيقة: ذهب أحدهم ذات مساء للشراء من أحد محلات الفطائر. فنظر إليه البائع متسائلًا: هُوَّه إنت مش صايم؟ فرد عليه بعدما فهم المقصود الذي فضحه فضول البائع: أنا مسلم..

مع الاحتفاظ بمشاعرهِ داخل مكنون نفسه، التي لن يؤاخذه عليها أحد طالما أنها ظلت قابعة داخل صدره لا يطّلع عليها غيره.

وكما ظل حريصًا على الاحتفاظ بمشاعره السلبية تجاه ما كان يسمى وقتها بالعهد الجديد، حرص أيضًا على الاحتفاظ بآرائه بنفس الطريقة درءًا للأذى عن نفسه وعن أسرته.

أما والدة نامق فهي السيدة كوهار إيشهازين نوبريان[1]، التي تنحدر من نسل بوغوص نوبار باشا، أول مَن شغل منصب رئيس وزراء في مصر[2]، تلك الأرمينية الأرثوذوكسية، التي ظلت على ديانتها المسيحية حتى بعد زواجها.

ترعرع نامق وانزا في جو عجيب... الأب مصري الجنسية، ألباني العرق، مسلم الديانة، سُنِّي المذهب. والأم أرمينية العرق، مسيحية الديانة، أرثوذوكسية المذهب. أحبها سليمان كاظم حُبًّا حقيقيًّا، وتزوجا ولكنهما قاما بتأخير الإنجاب عدة سنوات حتى يتيقنا من وفاقهما خوفًا من فشل

(1) كوهار إيشهازين: اسم أرمني: كوهار تعني الجوهر، وإيشهازين تعني نزول المسيح.
(2) اسمه الأول بوغوص (بولس) ولكنه عُرف في التاريخ المصري باسم نوبار، استقدمه خاله الذي كان اسمه أيضًا بوغوص (بوغوص يوسفيان) الذي كان وزيرًا ذا نفوذ في حكومة محمد علي، (التجارة – وأول وزير للخارجية)، بوغوص (الخال) تعَّهد نوبار بالرعاية، وأرسله ضمن بعثات محمد علي إلى تولوز في فرنسا لكي يتتلمذ لدى اليسوعيين (الجيزويت)، ما أكسبه إتقانًا حاذقًا للغة الفرنسية. وتجدر الإشارة إلى أن المصريين أحبوا نوبار وأطلقَ الفلاحون عليه لقب "أبو الفلاح".

الزيجة بسبب شعورهما بعدم الاستقرار الناجم عمَّا عانوه من توتر نفسي وأسري وبعد أن تأكدا أنه لن يحدث لهما مثل ما حدث لغيرهما[1].

فلم ينسَ مَن بقي مِن أفراد الأسرتين أصولهما المتناقضة، أسرة والده المسلمة ذات الأصول الألبانية الرافضة للعروس الأرمينية المسيحية، وأسرتها الأرمينية الرافضة للعريس المسلم الذي وإن كان ألبانيًّا فإنه يظل في نظر أسرتها عثمانيّ الولاء والانتماء.[2]

ورغم هذا التناقض الظاهري بينهما فإنهما كانا من نفس الفصيلة، تفكيرهما المتقارب وأخلاقياتهما المتشابهة، وحسِّهما الراقي وتطابق ذوقيهما في كثير من الاختيارات، ولهذا نجحت زيجتهما وبرهنت الأيام على صدق أحاسيسهما

(1) حينما كانت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية تحتوي على شتى الجنسيات والأعراق والأديان تزوج واحد من أفراد تلك الجالية اليونانية وهو والد جاستون زنانيري وكان كاثوليكيًّا بهاري أنيس بوير ابنة أحد اليهود المجريين وأم إيطالية واستمر شجاره مع عائلته ثلاثين سنة... ولا يزال حتى الآن في مدينة الإسكندرية سوق يُسمى سوق زنانيري يقع في منطقة كليوباترا، فلم يبقَ من ملامح الإسكندرية الكوزموبوليتانية إلا أطلال من مبانٍ تركها أصحابها وبعض أسماء الشوارع حافظت عليها الألسنة ومن ثم انتقلت من جيل إلى جيل، وللعلم فإن كثيرًا من أسماء الشوارع والأحياء والميادين في المدينة لها اسمان، اسم رسمي في الوثائق والمكاتبات الحكومية، واسم آخر _الأصلي_ لا يزال المواطنون يتعاملون به في المدينة وكأنهم يتمسكون في اللاوعي بأهداب مدينتهم التي كانت، فعلى سبيل المثال لا الحصر لا يزال الكثيرون ينطقون أسماء محطات ترام الرمل بأسمائها القديمة.

(2) يؤكد عدد كبير من المؤرخين اليونان والرومان أن مسكن الأرمن في أقدم العصور يرجع إلى شمال الأناضول في المقاطعة التي تحمل اسم أرمينيا، ووفقًا لهذه المصادر كان جد الأرمن يسمى "حائك بن ثورغون". الذي استقر على جبل أرارات. وأرمينيا بالأرمينية تعني هائيستان.. بمعنى بلاد الأسياد. ويشار إليها أيضًا باسم إسكانازيان. (المرجع: كتاب سياسة وأقليات.. تأليف لورانت شابرى، آني شابري).

بعضهما تجاه بعض، لذلك تَظلل بيتهما بظلال من رقيٍّ تُرجم في أسلوب تعاملهما معًا.. ألفاظهما في حوارهما المشترك وصولًا إلى احترام كُلٍّ منهما اهتمامات الآخر، كانت كوهار تعلم مدى حب زوجها للقراءة فاحترمت جلوسه حينما يفعل، حرصًا منها على عدم مقاطعته حتى "لا تكسر أذنيه" كما يقول الفرنسيون، ومن جانبه كان يعي مدى غرامها بعالم الأزياء ومتابعة الجديد في هذا المجال، فلم يبخل عليها أبدًا بشراء ما تختاره من مجلات الأزياء التي كانت تتابعها للتعرف على آخر صرعات الموضة.

عاشت أسرة نامق حياة هادئة في مُجملها، لعبت طبيعة السكن دورًا في ذلك، فحتى عام 1952 كان حي مصر الجديدة الذي شرع البلجيكي البارون إمبان في إنشائه عام 1905 _والذي عُرف أيضًا باسم هليوبوليس_ حيًّا لكثير من الجاليات الأجنبية[1]، تلك الجاليات التي بات أثرها واضحًا في إثراء المنطقة بأكملها بسلوكيات سامية لدرجة أنَّ الجار كان يستأذن جاره قبل أن يقوم بدقِّ مِسمار في حائط داخل حَرم شقته أو القيام بإصلاحات قد تُسبب إزعاجًا لجيرانه.. فالاستئذان ومراعاة الآخرين كان قانونًا غير مكتوب، وعُرفًا غير مدوَّن بين قاطني تلك المنطقة وما يماثلها من مناطق في كل أحياء القاهرة، وحتى بعد أنْ رحلت الجاليات الأجنبية بقي العَبق الأوروبي في تلك الضاحية الجميلة.

(1) في أغنية "ذكريات" لعبد الحليم حافظ مقطع يقول: "واحنا في مصر الجديدة.. ده كان زمان... الجيران من كل جانب... كانوا أكترهم أجانب".

توفيت والدة نامق ورغم ذلك لم يفكر أبوه في أن يتزوج من بعدها فهو يوقن في قرارة نفسه أنه من المستحيل أن يجد زوجة مثل زوجته الراحلة تتوافق معه، حتى لقي ربه هو الآخر بعدها بعدة سنوات.

التحقَ نامق بكلية التجارة وتخرَّج فيها، فكَّر أن يلتحق بكلية الآداب قسم الفلسفة ولكنه وبفكر برجماتي قرر ألَّا يفعل، وأن يكتفي بالتحصيل الفلسفي عن طريق القراءة، وهذا أمر متاح من مكتبة والده الثرية بعشرات الكتب التي تحوي في طياتها تأريخًا لأغلبية المدارس الفلسفية بشرح وافٍ وتحليل كامل، لذا قرر الالتحاق بكلية التجارة حتى يتسنى له التعاطي العملي مع الواقع، كما أن عالم الأرقام هو أيضًا عالم فلسفي في كنهه وتكوينه[1] والأرقام فلسفة مثل الحروف، ألم تكن الرياضيات يومًا فرعًا من فروع الفلسفة، ألم يكن فيثاغورس فيلسوفًا وعالمًا في الرياضيات، إنها الفلسفة مُترجمة في صورة عمليات ذهنية حتى في لغتها (بما أنَّ... إذن)، فلسفة السبب الذي يُحتم نتيجة.. ولهذا عزم أمره على الالتحاق بكلية فلسفة الأرقام... التجارة.

(1) كانت الرياضيات بالنسبة إلى أفلاطون _مثلما هي لبرتراند راسل بعد ذلك_ فاتحة ولازمة ضرورية للفلسفة، وأشار أرسطو إلى أن أفلاطون كان يعني بالمُثل العليا ما قصده فيثاغورس بالأرقام عندما ذكر _أي فيثاغورس_ أن هذا العالم هو عالم أعداد (وكان يعني أن العالم يحكمه قانون ونظام رياضي).. وقد وضع أفلاطون على باب الأكاديمية التي كان يلتقي فيها تلاميذه هذه الكلمات: "لا تدع رجلًا جاهلًا بالرياضيات يدخل إلى هنا". ومن خلال تجربة المؤلف وجد أنّ الحياة كما رآها تخضع بالفعل للمبدأ الرياضي الشهير "بما أن... إذن".

أما أخته فتخرجت في كلية الألسن قسم اللغة الإنجليزية. ورثت إنزا مَلاحة أوروبية المسحة، شعرها الذي يميلُ إلى الاصفرار وعينيها الخضراوين وبشرتها البيضاء المُنمشة المشوبة بالحُمرة، جمالًا طبيعيًّا، شَعرت به منذ صغرها حينما كانت تلمحه في عيون المارة الذين يتطلعون إليها بثابت النظرات أو تَراه حسدًا في عيون زميلاتها وبعض مدرساتها، ولكنها كانت تتميز بطيبة القلب الأرمينية المعروفة التي ورثتها عن والدتها، مثلما ورثت عنها الملامح، لذا لم يستطع حُسنها الأخاذ أن ينال من فطرتها تلك أو أن يصيبها غرور نتيجة ذلك، فوازى جمال ظاهر وجهها جمال باطن قلبها، وعندما بلغت مبلغ النساء بدأ طالبوها يتوافدون على أبيها، الواحد تلو الآخر بلا انقطاع، فيكفي أن تظهر في مناسبة ما حتى تترصدها الأعين ويتم السؤال عنها من جميع الحضور، وكان جُل تأثير هذا التهافت أن وقر في داخلها شعور بأحقيتها في أن تُتَاح لها فرصة زواج رفيعة الشأن كحق مكتسب لها مِن مِنَّة الله عليها لا غرورًا أو تعاليًا، لكن والدها من جانبه أصرَّ على عدم زواجها إلا بعد أن تنتهي من تعليمها... وقد كان.

رأتها يومًا زوجة أحد السفراء وما هي إلا أيام إلا وتمت خطبتها، ومن ثَمَّ زواجها بأيمن صادق، الذي يعمل في السلك الدبلوماسي مثل والده السفير، صادق كامل، الدبلوماسي المتقاعد الذي قضى أكثر سنوات عمره يتجول بين الدول.

قالت كوهار لأيمن بلهجةٍ متنهدة يملؤها الحنين إلى الجذور:

خال جدي الأكبر.. كان أول وزير خارجية لمصر...

وقبل أن يتفوَّه أحد بالتعقيب، أكملت الحفيدة الأرمينية التي عركتها الروح المصرية:

ـ أيوه أنا عارفة.. زي ما بنقول في مصر.. اسمها إيه دي إللي بتتعايق بشعر بنت أختها.

ضحك السفير:

ونِعم الأصل كوهار هانم... الخال والجد... العِرق كله خدم البلد... والنوبارية شاهدة لحد اليوم.

لم يكن صادق كامل سفيرًا عاديًّا بل من ذلك النوع الذي يتعامل مع عمله بروح أبعد ما تكون عن روح الوظيفة.. كان يجوس خلال الثقافات التي يُعايشها بحكم عمله، ولم يكتفِ صادق كامل بمنصبه المرموق بل أضافَ إليه عِلمًا وتحصيلًا، فحصل على الدكتوراه في رسالة موضوعها: تاريخ نشأة المعاهدات الدولية وتطورها وأثرها الممتد في العلاقات بين الدول. يكتب في الصحف أحيانًا وله بعض المؤلفات القليلة، كثيرًا ما تبادل مع نامق أطراف الحديث أثناء فترة خطوبة أخته واستمرت هذه الحوارات عندما كانا يلتقيان مصادفة أثناء زيارة أيمن وانزا إلى القاهرة في الإجازات، كان نامق معجبًا بعقلية السفير صادق ويحترمه، وصادق بدروه يبادله الاحترام.

ترك له والده ميراثًا ماليًّا وأدبيًّا، مبلغًا من المال في شكل شهادات استثمارية ذات ريع ثابت، ظل نامق يسحب منه بحرصٍ شديد حتى لا يضطر إلى فك إحدى هذه الشهادات التي تمثل له كل رأس ماله في الحياة، لم يكن ريع تلك الشهادات كبيرًا ولكنه كان كفيلًا بتأمين مصاريفه حتى يحين موعد السحب التالي.

يحيا بجداول ليس فقط في الأمور المالية ولكن في كل شيء، الجدولة جزء من تفكيره وأسلوب حياة بالنسبة له، ولم يكتفِ بالارتكان إلى العائد من ميراثه المالي ولكنه طفق يبحث عن عمل.

أما ميراثه الأدبي فتمثل في تلك المكتبة الهائلة التي تحتل أرففها حوائط حجرة بكاملها، لم تكن مكتبة عادية بل مكتبة تراثية، توارثتها الأسرة النامقية جيلًا بعد جيل، كانت تلك المكتبة في الأساس ملكًا لأحد المستشرقين اليونانيين، الذي عاش في مصر ردحًا من الزمن قبل أن تؤول إلى أجداد سليمان هبة لا شراءً عندما قرر أحفاد اليوناني الرحيل عن مصر فوهبوها لأسلاف أسرة سليمان حتى انتهى بها الحال أن زينت منزله وصقلت عقله وعقل ابنه نامق، ضمَّت تلك المكتبة عديدًا من الكتب القديمة المكتظة بالصور الفوتوغرافية النادرة وعشرات الكتب في شتى فروع المعرفة وبمختلف اللغات... تاريخ البلدان، دراسات في الأديان، كتب في الفلسفة، روايات ودواوين شعر، كتب في النقد ونقد النقد، أسفار في أحكام الشريعة والتفاسير... قرأ نامق وقرأ.. اطَّلع على مدارس الفقه المتباينة، وفتاوى القدماء والمحدثين في شتى

القضايا، ولم تخلُ المكتبة من كتب القانون التي طالعها بشغف كبير إبَّان فترة تكوينه وكثيرًا ما كان يقارن بصورة لا إرادية مدى اتصال أو انفصال أحكام تلك القوانين عن الواقع ومدى ملاءمتها لمستجدات الحياة التي تُلقي يوميًّا بكثيرٍ من معضلات لم تكن موجودة وقت صياغة تلك القوانين، أو حتى تغير درجة انتشارها _الظواهر والمشكلات_ دون أن تتغير الأحكام الخاصة بها سواء من حيث التكيُّف القانوني توصيفًا أو من حيث رصد العقوبة المناسبة تجريمًا أو تغريمًا...

قرأ بلا كلل ولا ملل كتب التراجم والسير، المذكرات التي يخُطُّها أصحابها، فمنهم من يواري ومنهم من يعترف، حقًّا لم تكن مكتبة عادية... كثيرًا ما قرأ المذكرات التي يكتبها أصحابها بأنفسهم ويقارن بين النوعين، المذكرات المكتوبة في الشرق أو مكتوبة عنه، والأخرى الآتية من أعالي البحر المتوسط.. كانت المقارنة تتم بطريقة لا إرادية في ذهنه... مذكرات الشرق حيث النفاق الذاتي الذي يمارسه كثير من الساسة والمفكرين وتمجيدهم لأنفسهم وللأدوار التي لعبوها في الحياة سواء في حياتهم الخاصة أو الوظيفية[1] وبين تلك المذكرات التي يكتبها الغربيون، والتي تنتمي إلى ثقافة الاعتراف، هذه الثقافة التي لا يعرفها من يعيشون أسفل البحر المتوسط... ربما لأن الاعتراف ينتمي في الشرق إلى فكرة الفضيحة والإدانة، أما في الغرب فينتسب إلى فكر التطهر.

(1) تحُتم علينا الموضوعية أن نذكر أن الأمر لا يخلو من الاستثناءات ومن أبرز تلك الاستثناءات مذكرات المفكر القدير الدكتور لويس عوض "أوراق العمر" ومذكرات العالم الاقتصادي الجليل الدكتور جلال أمين بجزئيها "ماذا علمتني الحياة" و"رحيق العمر".

أما متعته الجمَّة والتي لا يملها فهي السباحة بين الخرائط... الأطلال الجغرافية للإمبراطوريات التي سادت ثم زالت، ولازمه شعور بالأسى على الحضارة التي تسيَّدت يومًا، وانتسبت إليها مصر... حضارة البحر المتوسط، بفلسفتها الثرية وعمارتها السامقة ونسقها الراقي، لعبت هذه المكتبة دورًا أساسيًّا في تكوينه الفكري والثقافي، وطالما قضى الساعات بين جنباتها قارئًا ومقارنًا، شاردًا ومفكرًا.

لم يرث مالًا من والدته ولكنه ورث إرثًا آخر، إرثًّا أثَّر في تكوينه جعل منه مُسلمًا محبًّا للكنائس، سنيًّا مُحبًّا للأرثوذوكس، فبالإضافة إلى تشبُّع عينيه يوميًّا بتأمل الكنائس التي يمتلئ بها الحي الذي يقطن فيه زادت عليها تلك البهجة الطفولية التي طالما أحسَّها عندما كانت والدته تصطحبه صغيرًا إلى حفلات الزفاف التي تقام في رحاب الكنائس مجاملةً لصديقة أو تواصلًا مع جيرة، وكما ارتبطت عنده ببهجة القلب ارتبطت أيضًا بفيوض الفكر التي تسربت إلى عقله مع رائحة الأحبار المنبعثة من بين دفات الكتب، عندما كان والده يأخذه هو وأخته عندما ينعا إلى حي الفجالة كلما ذهب إلى هناك بحثًا عن الكتب التي يسعى إلى شرائها من المكتبات التي كانت منتشرة آنذاك في هذا الحي العتيق، فتقع عيناه مرة أخرى على الكنائس التي تتجاور في سلام ووئام على اختلاف المذاهب والمِلل.

ومن هنا أحبَّ الكنائس وتجذرت في داخله منذ الصغر روح الجمال

الكامن في طُرزها المعمارية، طرز لا تختل فيها المعايير الفنية بل تتناغم فيها باتساق مذهل، ما جعله يميل نحو جماليات المعمار ونما لديه حس التذوق الفني مع كثرة التأمل في الجدران المزدانة بالأيقونات البديعة، دعمت هذه الذائقة الفنية تلك النظرات الطفولية التي كان يرنو بها إلى السقف العالي لمنزلهم، عُلو، بدا في عينيه الصغيرتين شاهقًا فترسَّخت داخله قناعة بالروح التي تُضفيها الأماكن على شاغليها، روح تتملكهم وتحكم سلوكياتهم، هذا غير الإرث البيولوجي في تلك الجينات المختلفة التي تجري في دمائه والتي على ما يبدو جعلته ينظر دومًا إلى الأمور بطريقة مُغايرة لما يراه الكثيرون ممن حوله.

أَحب نامق الشطرنج منذ يفاعته وانتبه إلى عظمة تلك اللعبة مبكرًا، فقرأ عنها ومارسها.

يَحسبُ من يراه لأول وهلة أنه نمطي ربما لأنه ينتمي إلى عالم القميص والبنطلون ثم ما يلبث هذا الحُسبان أن ينتفي، إما بالاستماع إليه قولًا، أو مشاهدته تصرفًا. هنا تنجلي روح الاختلاف عن الصحاف... صِحاف العادي والمعتاد.

لا يخلو من نقيصة البشر من ضعف ووهن أو من نوازع النفس شهوةً ورغبةً. يتقاتل داخله التناقض _أحيانًا_ أما جوهره... إنسان طقسي يعيش عاداته وتعايشه، ولا ينام إلا وهو يرتدي البيجاما.

رنَّ جرس تليفونه المحمول، نظرَ إلى اسم المتصل فوجدهُ شامل علم الدين، أحد أقاربه من جهة الأب، يسبقه في العمر بسنوات عدة وفي خوض غمار الحياة بسنين عديدة، كان نامق قد طلب منه أن يساعده في البحث عن عمل، فكثيرًا ما التحق بأعمال ولا يكاد يمر أسبوع أو أقل حتى يتركها على أهون الأسباب وأتفهها، وكان شامل قد طلب الزواج بإنزا ولكن طلبه لم يلقَ ترحيبًا بسبب الفارق الملحوظ في العمر أو هكذا قيل له، ولكن في حقيقة الأمر كان سبب رفض إنزا هو أنها لم تكن تشعر تجاه شامل بأي مشاعر، اللهم إلا أنه قريب لهم، اعتادت رؤيته على فترات دون أن تتكون لديها أي نواة يمكن أن تكون ركيزة لعلاقة أعمق من علاقة القرابة بما تحمله من مشاعر الود المعتادة... باختصار هو بالنسبة إليها _مجرد قريب_ واحد من أفراد الأسرة الممتدة، ورغم ذلك تقبَّل شامل طلب نامق بموضوعية وحياد وتعامل معه باهتمام، خصوصًا بعد أن أحس فيه بروح الجدية، وأيضًا عرفانًا بجميل والد نامق الذي وقف بجانبه يومًا ما في بداية حياته، كما أن شامل ونامق كانا أصدقاء تجمعهما صلة الفكر أكثر من صلة الدم، وكثيرًا ما تباريا في الشطرنج، وها هو يعرض على نامق عملًا في أحد المصانع بعد أن حاول حثيثًا أن يجد له عملًا في المصنع الذي يعمل هو به، فبالرغم من منصبه المتقدم في الهيكل الإداري فإن قرار الإدارة الملزم للجميع دون استثناء، بالتعهد بعدم تعيين أي أقارب من أي درجة لأيٍّ من العاملين فيه وقف حائلًا دون ذلك، فكَّر شامل أن يرشح نامق مباشرة لصاحب العمل الذي

تربطه به معرفة مسبقة نظرًا إلى أنهما يعملان في مجال مترابط إلا أنه وبعد تردد عزم على أن يأتي الترشيح من السيدة عفاف زوجة صاحب العمل، وأقدَم شامل على ذلك لثلاثة أسباب، أولهما: رفع الحرج عن نفسه إذا لم تكن لصاحب العمل رغبة لديه في تعيين نامق إن رأى فيه أنه لا يصلح، ومن ناحية أخرى، منعًا للشبهات ومظنة استغلال وظيفته التي يتعامل بمقتضاها مع صاحب العمل، والسبب الثالث والأخير كان سببًا عمليًّا وهو أنه إذا أتى ترشيح نامق للعمل من طرف الزوجة فمن المحتمل أن يكون ذلك بمثابة تزكية تعطيه أفضلية عن غيره إن وجد _فالتاريخ مملوء بسير تأثير الزوجات_ ومن جانبها لم تتردد عفاف في تزكيته بالفعل لزوجها الذي أجابها بالقبول.

ومع أول ضوء من صباح اليوم التالي استيقظ واستعد للذهاب إلى منطقة أكتوبر الصناعية والتي يذهب إليها لأول مرة في حياته.

دلف نامق من بوابة المصنع، ولم يكن يدري أن مع دخوله تلك البوابة إنما يدخل إلى عالم جديد... عالم ما بعد الدراسة... وما بعد المنزل... عالم ما بعد الذات... عالم الآخرين.

قالت له السكرتيرة الجملة التسجيلية المعتادة:

اتفضل... دقيقة واحدة المهندس شاهين يخلص التليفون إللي معاه.

عادَ إلى منزله في هذا اليوم وهو يعاني من مشاعر متناقضة وأحاسيس

متضاربة، كانت مقابلته مع صاحب المصنع مقابلة سريعة وعادية... التعارف المعتاد والأسئلة المتوقعة عن مدى خبرته في أعمال سابقة وهل يجيد قيادة السيارات؟ هل يدخن؟ وكانت الإجابة عن جميع التساؤلات بالنفي...

لا خبرة سابقة... لا معرفة بقيادة السيارت.. لا يدخن.

تقبله صاحب المصنع بحياد.. فالعمل المُوكل إليه يحتاج إلى الأمانة أولًا وأخيرًا.. وهو ما استشفَّه فيه صاحب العمل من أول وهلة بحكم خبرته الطويلة في الحياة.. وأي شيء بعد ذلك يمكن تعلمه.. أما العمل فهو أمين مخزن في مصنع للملابس الجاهزة، عرف بذلك أثناء المقابلة حيث لم يخبره شامل بمسمى الوظيفة لأنه هو نفسه لم يكن يعلم، ولم تخبره عفاف لأن زوجها لم يقل لها من الأساس، وكان مُسمى العمل هو سر شعور نامق وإحساسه بالتضارب والضيق... أمين مخزن! لم يخطر له على بال أنه سوف يعمل بهذا العمل يومًا ما... في مخزن... طالما ظن أنه سوف يعمل في شركة تجارية أو في أحد البنوك أو حتى في عمل خاص به... ولكن أمين لمخزن لم يطرأ على باله قط... عالم جديد تمامًا... أقمشة وخيوط... صناديق لها أرقام، وملصقات لها مسميات جديدة على مسامعه حيث ظلت علاقته بعالم تصميم الملابس محصورة في اطلاعه على بعض مجلات الأزياء التي كانت والدته تقتنيها... ولم يَدُر بخلده مطلقًا أنه سوف يشغل يومًا عملًا تنفيذيًّا لما اعتاد أن يشاهد ولو بالتقريب ما يماثله في تلك المجلات، وقديمًا قالوا: تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. ولكنهم قالوا أيضًا: داوني بالتي

كانت هي الداءُ. ولم يكن نامق يعي أنه بعمله هذا يتلقى أول صفعة من صفعات الحياة.. صفعة شقاء.

شاهين عابد... صاحب ومدير المصنع... أب لابنتين، رضوى ورانيا، رضوى الكبرى خريجة هندسة وذراع أبيها اليمنى في العمل، فتاة هادئة ورزينة إلى حدٍّ كبير، أما الصغرى رانيا التي أنجبها شاهين بعد فترة طويلة من إنجاب رضوى فلا تزال طالبة في كلية الإعلام، جاءا إلى الحياة بعد وفاة أخ لهما كان شاهين قد أنجبه في بداية زواجه ثم حاول الإنجاب من بعد رانيا ولكن الله لم يشأ، وضعف أمله في إنجاب ثالث بعدما أخبره الأطباء بتعذر ذلك نتيجة لتطورات مرضية ألمَّت بزوجته كما أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يفكرون في الزواج الثاني على الإطلاق بل إن في دواخله "شيء من حتى" تجاه مبدأ الزواج الثاني من الأساس... فكان صدوقًا مع نفسه في هذا الأمر ولم يفعل، وخصوصًا أن الزواج الثاني ليس له من سبب إلا رغبته في أن يكون له ولد وقد يحدث هذا وقد لا يحدث... فضلًا على أنه لم يكن يتخيل أن تشاركه أخرى حياته غير زوجته التي بدأت معه واستمرت.

لم يكن شاهين رجل أعمال بالمعنى الدارج ولم يحب هذه الصفة أبدًا، يُفضل دومًا أن يُعرف بأنه رجل صناعة، انتبه إلى طبيعته مبكرًا وعرف نفسه بأنه لا يمكن أن يعمل عند أحد، أو أن يكون له رئيس في عمل يشغله في يوم من الأيام ولهذا حدد هدفه مبكرًا بأن يكون له مشروع خاص به...

عيادة خاصة إن كان طبيبًا.. محل إن كان تاجرًا... أو مصنع يكون صاحبه ومديره وهذا هو حلمه الأكبر... فالمصنع لم يكن بالنسبة إليه مجرد عمل بل (ذات) ولهذا أحب عمله حبًّا جمًّا، يأتيه كل يوم في تمام الثامنة صباحًا وأحيانًا قبل ذلك، ما يثير دهشة المستجدين في العمل... فمن المعتاد أن يأتي صاحب المصنع متأخرًا أو حتى في مواعيد غير منتظمة. ديكتاتورًا لا يطيق الخلاف... يظن أنه دائمًا على حق... يثور مثل البركان وفي لحظة ـوربما أقلـ يهدأ وكأن شيئًا لم يكن، فلو رآه غريب لا يعرفه من قبل لَمَا صدَّق أنه يوجد إنسان يستطيع أن ينتقل من نقيض الانفعال إلى نقيضه، كما يفعل شاهين دون افتعال... ولكن ورغم كل ما يتصف به شاهين من عصبية وديكتاتورية واضحة للعيان فإنه لم يكن يطرد أحدًا من العمل تحت أي ظرف من الظروف مهما بدر منه من إهمال أو ظهرت منه حماقة أو انعدام الكفاءة... ولهذا السبب فإن العاملين عنده استمروا لسنوات، يتزوجون وينجبون، نتيجة شعورهم الحقيقي بالأمان الذي يقارب إلى حد كبير أمان الوظيفة الحكومية، هذا غير جديته في التعامل مع العملاء والموردين، ولهذه الأسباب كان مصنعه مصنعًا حقيقيًّا وهو أيضًا رجل صناعة حقيقيًّا ولهذا ـولأسباب أخرىـ استمر ونجح.

بدأ نامق أول أيامه بالتعرف على طبيعة العمل، فلم يكن بين استلامه العمل من المسئول الذي يسبقه إلا أيام معدودات، بعد أن قرر هذا المسئول أن يتفرغ لتجارة بدأ يكون فيها هو الآخر على نفسه سيدًا وحصورًا،

لذا لم يمانع شاهين عندما توسطت زوجته نظرًا إلى احتياج المصنع إلى من يشغل هذا الموقع الحيوي سريعًا شريطة أن يكون محل ثقة وهو ما وفرته وساطة شامل له، لذلك كان على نامق أن يحيط بكل شيء خُبرًا حتى يتسنى له معرفة طريقة إدارة العمل في المخزن وما أجهلها بالنسبة إلى شخص مثله آتٍ من عالم غير العالم.

على عكس رضوى كانت رانيا الابنة الصغرى لشاهين مهتمة بالسياسة وشخصيتها تفيض بالحيوية، ورغم أنها من أسرة ثرية فإن حالتها المالية الميسورة وحياتها المترفة لم يمنعاها من الاشتغال بالسياسة، كما أن دراستها في كلية الإعلام، التي تستدعي طبيعة الدراسة فيها التداخل مع الشأن العام، ساعدها أن تُتابع وتهتم، حيث تقع مهنة المستقبل حيث تتمنى أن تعمل، صحفية أو مراسلة لقناة فضائية فلم يكن العمل في مصنع أبيها يستهويها على الإطلاق وعضدت رغبتها تلك الإثارة التي طرأت على مجمل نواحي الحياة وفضائها العام نتيجة التغيرات التي بدأت تعصف بنظام حكم آسن...

تغيرت مصر بفعل عوامل كثيرة... الميديا التي أصبحت حاكمًا فعليًّا للعقول... خروج الكثير من الصحف والصحفيين من بيت الطاعة الحكومي... زيادة معدل الشباب في عِداد السكان، الشيء الذي لم يتغير هو عقلية الطبقة الحاكمة وبطانتها من رجال الأعمال... ولم تكن رانيا بعيدة عن كل هذه المتغيرات... ودَّعَت عالم نوادي الطبقة الراقية... ودخلت إلى

نوادي الطبقة العامة، وها هي تدلف إلى أحد مقار جماعتهم التي يجتمعون فيها، شباب وشابات بعضهم فوق الثلاثين، والأكثرية في العشرينيات... هذه الفترة العمرية المفعمة بطاقة الحماسة والانطلاق، مختلفون في التعليم وفي الطبقات الاجتماعية، لكنهم متفقون على هدف واحد... التغيير.

وضع أحد أعضاء المجموعة الجريدة بعد أن انتهى منها... الفساد بقى للركب[1].

ردت رانيا ضاحكة: يا بني بلاش الجملة دي.

تدَّخل عضو آخر قائلًا بثقة:

هانت... الطوفان قرَّب... خليهم عايمين في الغيبوبة إللي هُمَّه فيها...

رانيا مؤكدة:

غيبوبة فعلًا... ولا هُمه هنا... ولا حاسين بحاجة... الناس في وادي وهُمه في وادي تاني خالص.

• عقَّب أحدهم بسخرية

وادي الريادة...

وأكمل آخر:

(1) جملة منسوبة إلى أحد كبار المسئولين في عهد الرئيس المصري الأسبق حسنى مبارك.

العجلة دارت... ومحدش حيقدر يوَّقفها.

رانيا مستفسرة:

إيه أخبار عماد... حيرجع من الدورة إمتى؟

رد أحدهم:

ميعاد رجوعه لسّه مش محدد.... يمكن آخر الشهر... واستدرك بلفظ الشك.. يمكن.

ثم أعقب في جدية:

عماد سعدان من أهم العناصر النشطة على المستوى الميداني وكمان على الفيس بوك.

آخر: تعرفوا... أنا أبويا أساسًا لحد دلوقت ميعرفش إيه هُوه الفيس بوك ده[1].

رانيا تقول في لهجة ساخرة مقلدة فيها كبار السن:

أجيال... كل جيل يا ابني وله عقليته... إسألني أنا.. إحنا على أيامنا كنا بنتفرج على فوازير رمضان بانبهار.

(1) حتى نهايات عام 2010 لم يكن موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" منتشرًا بصورة كبيرة ولم يكن معروفًا لدى الكثيرين، بمن فيهم من هم في سن الشباب، كان البعض يسمع به ولكن استخدامه لم ينتشر إلا بعد ذلك خصوصًا مع انتشار أجهزة المحمول الذكية، فلم يعد الأمر يحتاج إلى جهاز كمبيوتر كما كان الوضع في بداية ظهوره.

آخر: أنا شخصيًّا بأحب أتفرج عليها لحد دلوقتي...

آخر: وأنا كمان.

رانيا رافعة إحدى ذراعيها إلى أعلى وكأنه الإشهار:

أنا حأروح الوقفة السلمية إللى عند نقابة الصحفيين...

آخر: كل ما تيجي سيرة وقفة أمام نقابة الصحفيين أفتكر الرئيس السادات الله يرحمه.

رانيا: إشمعنى؟

أجاب قائلًا:

كان بيكره الوقفات دي جدًّا.. على فكرة مبنى نقابة الصحفيين ده جديد، المبنى القديم كانت له جنينة والوقفات دي كانت بتِّم فيها والسادات كان مسميهم حزب الجنينة.

رانيا: معنى كده إن موضوع وقفات نقابة الصحفيين ده مش جديد..

آخر: لأ طبعًا.. ده قديم جدًّا..

آخر: نقابة المحامين ونقابة الصحفيين.. صداع في رأس أجهزة الأمن.

رانيا: المهنتين لسانهم فالت.

ردت زميلة لهم: ونفسهم طويل.

رانيا: لكن الأمن نَفَسُه أطول.

تلفتت رانيا لأحد الأعضاء قائلة في مرح:

مع الاعتذار لكريم.

آخر بسخرية مكملًا معنى جملتها:

بالذمة فيه عضو في جماعة ضغط سياسية يكره النقابات!

كريم بانفعال:

أنا حر... أيوه أنا بأكره النقابات.. دى مؤسسات فاشلة.

رنَّت جملة "دى مؤسسات فاشلة" في أذن إحدى الفتيات الجالسات معهم ومسَّت الجملة شيئًا داخلها ولكنها لم تعلق عليها واستمرت في صمتها.

آخر: إنت حر.. وأنا كمان حر.. أنا شخصيًّا حأروح وقفة النقابة.

آخر: أنا كمان رايح... وناس كتير رايحين وبعدها.. نطلع على قهوة البستان.

رانيا: أنا النهارده، الآخر بتاعي وقفة النقابة، مش حأقدر أروح معاكم على البستان.. ظروف البيت عندي الأيام دي متوترة، ماما والصداع بسبب أسئلتها إللي مش بتخلص.

آخر: أنا فاهم ومستوعب جدًّا إللي إنتِ بتقوليه... لإني عايش نفس المشكلة.

زميلة لهم: يااااه أنا كنت فاكرة إن البنات بس هُمه إللي عندهم مشاكل مع أهلهم في الموضوع ده...

رد زميلهم مؤكدًا: أبدًا.. مشاكلنا واحدة تقريبًا في كل البيوت..

رانيا وهي تستعد للانصراف: أوكيه ياجماعة... أراكم غدًا... سلام.

هناك في واحدة من أكثر مؤسسات الدولة مهابة سار الرائد عصام، في أروقة مبناها مُتجهًا إلى مكتب رئيسه المباشر.

ـ إيه الأخبار.. يا عصام.

عصام: الأخبار تقلق يا فندم... الأخبار كلها تقلق... الغيم شديد.. الغيامة مغطية البلد كلها.. واسمحي لى سعادتك ردود الأفعال الرسمية ليست على المستوى المطلوب.

ـ حنعمل إيه بس.. إحنا بنعمل إللى علينا وبنحُط الصورة كاملة صادقة أمام القيادة السياسية.

عصام: يا فندم في النهاية إحنا إللي بنتحمِّل نتيجة كل السياسات.. إحنا إللي في الشارع، اتفضل سعادتك ده آخر تقرير مفصل عن متابعة الأربعة وعشرين ساعة الأخيرة...

التقط رئيسه التقرير مُتنهدًا:

ـ كل المجهود الأمني ممكن يضيع بقرار واحد أو بتصريح غير مدروس من وزير أو من أي مسئول قاعد في مكتبه مش حاسس بالهم إللي إحنا فيه أو الخطر إللى شايفينه بيقرَّب يوم بعد يوم.

عصام: والقنوات الفضائية فرحانة بالحالة العامة...

ـ طبعًا.. مادة يومية.. الحالة العامة بالنسبة لهم أرض خصبة بتغذيهم بمادة إعلامية وإعلانية.

عصام مُمهدًا:

فيه موضوع تاني كنت عايز أوامر سيادتك فيه...

ـ موضوع إيه؟

عصام بلكنة معلوماتية:

عماد سعدان، المفروض إنه راجع آخر الشهر.

ـ يعدي ويخرج عادي جدًّا من المطار... هُوَّه عارف إننا متابعينه.. مفيش داعي نتحفظ عليه في المطار... حيبقى خبر بعد دقائق.. وإللي هُوَّه حيكسبه من ورا التحفظ والتحقيق معاه في المطار أكثر من الفايدة إللي ممكن تيجي من استجوابه..

عصام وقد ظهرت عليه علامات الرضا:

ـ تمام سيادتك.. ده برضه رأيي وفي الحقيقة أنا كنت خايف إن يكون لسيادتك رأي مختلف.

ـ كده ولا كده حنعرف كل شيء... خلاص يا عصام.. كل شيء بقى على عينك يا تاجر... الدنيا كلها بقت On line.

ثم استدرك الضابط الكبير سائلًا عصام بلهجة لها سمت أبوي:

ـ إيه أخبار أختك؟ مُعقِبًا سؤاله بابتسامة ودية... ده مش سؤال رسمي.

ـ والله يا فندم موضوع نشاط أختي السياسى ده مسبب لي إحراج وضغط نفسي وعصبي..

جاءت الإجابة من رئيسه تخفيفًا لدواخله:

ـ جهاز مباحث أمن الدولة جهاز مهول، مليان بالضباط على اختلاف الرتب، ده غير التغييرات الدائمة إللي بتحصل فيه وكل ضباطه من قلب المجتمع على تعدد طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية والتعليمية والثقافية واختلاف خلفياتهم الأسرية ومن العسير إن لم يكن من المستحيل أن يكون كل أفراد أسر ضباطه ومعارفهم وأصدقائهم متوافقين مع سياسة الدولة، بالضرورة حنلاقي أخ لضابط فجأة ينضم لحركة معارضة أو أخت ناشطة

سياسية... المهم أن يكون كل شيء مرصود وتحت السيطرة وبالنسبة لك الموضوع بسيط، أختك صحفية نشطة ومتحمسة وكله في النور يا سيادة الرائد.

رد عصام بابتسامة خفيفة:

ـ تمام سيادتك.

ـ أنا مش عايز الموضوع ده يؤثر على تركيزك في شغلك ولا على علاقتك بأسرتك.. زي ما قلت لك الدنيا اتغيرت وإحنا كمان اتغيرنا.

عاد نامق إلى بيته مهمومًا بعد تصادم حتمي، فأزمته في العمل أزمة مزدوجة، أزمة مع صاحب المصنع الذي كثيرًا ما يتعامل معه بحكم رئاسته المباشرة له، وأزمة أخرى مع زملائه في الإدارة العامة بحكم أنه المسئول الأول عن الحركة في المخزن، عاد تغلبه مشاعر الضيق والنفور والإحساس باليأس من أي تغير في نظام العمل.

كان الصدام حتميًّا بين النموذجين، نموذج نامق ذلك الحالم أن يجتمع المحافظ مع الوزير لكي يضعوا خطة متزامنة لحركة خروج التلاميذ من مدارسهم وبين حركة مركبات النقل العام بنظام يجعلها تبدأ خط سيرها من أمام بوابات بعض المدارس تيسيرًا على التلاميذ بحيث يكون ذلك الإجراء بمثابة ربط بين متغير ومتغير تابع له _هكذا كان يفكر دومًا_ وكان هذا مجرد غيض من فيض وليس أكثر من نموذج لمثال التفكير مما

كان يحدثه به عقله، وبين نموذج شاهين الذي يتخذ القرارات المفاجئة أيًّا كانت الصعوبات المترتبة على تلك القرارت والتي يراها ضرورية بصرف النظر عن ضراوة التنفيذ. تعارض بديهي بين صاحب النزعه الفلسفية التي تميل إلى الطوباوية والسعي نحو المثالية، وبين الرجل العملي الذي وضع نظامًا لعمله لا يحيد عنه ولايقبل أن يغيره لأي سبب كان.

نموذجا تضاد...

نامق عقل مُفكر وشاهين عقل مُدبر...

شاهين هو الآني ونامق هو المأمول...

ومما زاد من صعوبة الأمر هو أن نامق جاء بعد فترة طويلة من بدء تشغيل المصنع، بعد أن صار المصنع كيانًا منتجًا وناجحًا.. كانت حالة نامق في عمله تجسيدًا للمثل القائل بأن "الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الطيبة"... ولم تكن تلك الحقيقة تغيب عن وعي شاهين الذي يعلم في قراره بصدق نوايا نامق وبمدى إخلاصه، هذا غير أمانته التي لا تشوبها شائبة.

بدا المخزن في عين نامق ليس قطعة من المصنع ولكن قطعة من مصر، طبيعة المكان، الإداريين والعمال، أما العاملات فتلك نقرة أخرى، بنات المصنع... كانوا صنفًا آخر غير تلك النوعية التي طالما زاملها في الكلية إبّان دراسته... جرأة في الحوار والألفاظ.. وقبل كل ذلك ميوعة ولكن ميوعتهن ميوعة طبيعية لا تصنع فيها.. رباني... دلع رباني... لا يخلوا

من مسحة جمال فطرية أو خفة دم شعبية، ونامق بحكم عمله يتعامل مع الكثيرات منهن سواء في الإدراة أو في عنابر المصنع التي يتردد عليها لمتابعة أوامر توريد الخامات المطلوبة من المخزن... وبطبيعة الحال فإن هذه النوعية من الفتيات أبعد ما تكون عن تكوينه الذي نما وترعرع عليه.. يرى في بعضهن براءة ورقة وفي أخريات سوقية ووقاحة.. عالم آخر غير العالم الذي طالما عاش فيه سنوات طوالًا، ورويدًا رويدًا من اعتياد إلى روتين يومي عرف نامق كيف يتعامل مع هؤلاء الفتيات اللائي ينتمين إلى عالم النسوة أكثر من انتمائهن إلى عالم البنات رغم صغر سنهن دون أن ينزلق إلى هاوية مع إحداهن تودي به إلى منحدر لا يقوى على احتماله، ورغم عنفوان الشهوة ظل يُذكر نفسه دومًا بأن "الخطأ لحظة والندم سنين" و"المتعة عابرة والعُقبى قائمة"، وأنهن رغم أنوثتهن فإنهن يقعن في الجانب الآخر الذي وإن تحتم التعامل معهن فلا بد من الحرص على ذلك الجدار الزجاجي الذي إن سمح بالمرور لا يأذن بالعبور، فدنياه غير دنياهن مهما تقاربت الأراضي، لذا لم يغفل أبدًا _كلما حاصرتهُ سطوة الخواطر_ أن ينبه الأمَّارة بالسوء أن عمله في هذا المصنع ما هو إلا مجرد وسيلة تقيه شر الانزلاق في مستنقع العطالة والخواء...

عانى كثيرًا بسبب طرح أرائه خصوصًا إن كانت مخالفة لما هو معمول به فما إن يتحدث حتى يُجابَه بمقولة واحدة لا تتغير:

إحنا طول عمرنا شغالين كده... والمخزن طول عمره كده.. المشكلة عندك إنت.

وكانت المشكلة بالفعل عند نامق، صحيح ليس كل المشكلة ولكنه جزء كبير منها، لم يكن يُحسن الاستهلال أو الأسلوب الذي يطرح به رأيه.. تعامل مع زملائه بصورة فيها كثير من التصادمية والتي من المنطقي سوف تلقى نفورًا وصدًّا من جديد متمرد لقديم مستقر، هذا بخلاف أنه لم يعطِ لنفسه الفترة الزمنية المطلوبة لاستيعاب نظام العمل مما جعله يبدو كالهارب من مسئولية نظام لم يستسغه إلى آخر يضعه هو طبقًا لرؤيته رغم أن هذا لم يكن صحيحًا... هذا غير أنه بحكم نشأته لم يعرف الصراع يومًا... الصراع الحقيقي وليس صراع الأفكار أو خصومات الفلاسفة.. والعمل صراع ولا شيء غير الصراع.. لا طاعة لضعيف مهما صدقت نواياه، ولا استماع له مهما كان أدبه، الطاعة والاستماع لا تكون إلا للقوي القادر على إدارة شئون مسئوليته لا الهرب منها، أو كما يقول الأبيض: You are what you do أنت ما تفعله.

هذا هو المعيار، الفعل وليس القول... وكانت مشكلة نامق أن كفاءته في الفعل أدنى كثيرًا من مهارته في القول.

غلبه اليأس من نفسه التي استعصت على التأقلم مع ظروف العمل من ناحية واليأس من أن يتغير العمل نفسه من ناحية أخرى، فلم يكن يخفى عليه تلك العدائية الشديدة التي أصبح الجميع يتعامل بها معه بسبب نقمته على نظام عمل مستقر منذ سنوات دون مشاكل تذكر أو اعتراضات جوهرية من أيٍّ من العاملين أيًّا كان موقعهم... فانعزل وصار منطويًا إلا فيما يخص عمله وشيئًا فشيئًا بدأ يندمج... تغير قليلًا ولكنه ظل محتفظًا

بجوهر كينونته، طبيعته التي حاول هو نفسه كثيرًا أن يُغيرها فلم يستطع، تلك الطبيعة الفلسفية التي كثيرًا ما نال بسببها التقريظ والسخرية والاحترام أحيانًا، كثيرًا ما غلبه تكوينه وخصوصًا عندما تأخذه جلالة الحوار حول العمل وشئونه فكان ينسى أنه في مصنع وليس في ندوة وأن التركيبة البشرية للعاملين في المصنع تختلف بالكلية عن هؤلاء الذين يقابلهم في تلك الندوات والمؤتمرات التي طالما ارتادتها، فهزمت لغة القراءة لسانه، وحدث ذات مرة أن تلفظ في حوار ساخن له مع أحدهم بلفظ "قلَّما" وما إن نطق به حتى تناسى الجميع الموضوع الرئيسي محل الخلاف وأصبح الموضوع هو ذاك اللفظ الذي انتشر بين أروقة المكان كانتشار النار في الهشيم اليابس، عاتب نفسه كثيرًا وحاول مرارًا أن يهذب ألفاظه حتى تتفق مع طبيعة المكان، فكان ينجح مرة ويخفق مرات فالطبع غلَّاب، ومن ناحية أخرى لعبت طبيعته تلك دورًا في ممارسته لعمله الذي يحتاج أشد ما يحتاج إلى التركيز لا إلى التنظير، وإلى روح القيادة لا روح التوصيف، ولكنه كان معذورًا وحالته مبررة فقد انتقل فجأة من حياة إلى حياة، من أمٍّ كانت تقوم بنفسها لكي تأخذ نظارتها الطبية دون أن تكلفه عناء مناولتها إياها _رغم أنه الأقرب_ إلى موقع آخر أسه وأساسه أن يؤمَر ويأمُر... يُطلب منه ويطالِب غيره، من الفراغ التام إلى الانشغال الكامل، من اللاشيء إلى مسئولية كل شيء.. من حمل الهموم الفلسفية إلى حمل المفاتيح.

كثيرًا ما أوشك على اتخاذ قرار بترك العمل، أكثر من مرة كاد أن يدخل

إلى شاهين لكي يخبره أنه لن يستطيع الاستمرار لأنه يشعر بأنه يتحصل على أجر لا يستحقه بسبب فشله في إدارة شئون المخزن بنفس مقدرة من سبقه والذي قضى فيه ما قضى دون أن يُصدعه باعتراضات وآراء كما فعل هو منذ اليوم التالي لاستلامه العمل، فكان مَن سلف نعم المُتأقلم _إنها قوة السلف_ وفكّر أيضًا أن يحاول السفر بمساعدة زوج أخته وشرع في ذلك بالفعل ولكنه لم يُكمل إجراءات السفر، تراجع في اللحظات الأخيرة عن الإقدام على تلك الخطوة، شيء ما داخله كان يمنعه...وما مَنعهُ هو طبيعته ذاتها.. هذه المرة طبيعته الفلسفية هي التي قاومت الحل السهل واللجوء للهرب، التفت عقله الباطن إلى النظرية المعروفة.. العضو الذي لا يُستخدم يَضمُر ويموت، أما العضو المستخدم فيقوى... ونفسُ الإنسان كذلك.. هو وبحكم سكنه وتكوينه ونشأته لم يُمتحن، لم تختبره الحياة بتجارب حقيقية لذا كانت حالته النفسية غير مُستخدمة، يستسهل الهروب، ولهذا أضحى ليِّن العريكة، ذا نفسية رخوة لا تقوى على غوائل الأيام ولا تعرف في معارك الحياة استبسالًا. فصدئت من قلة الصد، ومع مرور العمر وتخزين الآلام الناتجة عن جروح النفس، عندما حانت لحظة الضرورة تلك اللحظة الحتمية التي تزور الإنسان _فمنهم من يلتفت ويسمو ومنهم من يغفو ويَسفُل_ تحرك الفيلسوف داخله، انتبه إلى أن امتلاء مخازن العمل بالزخم لأهون من امتلاء مخازن الذات بالمثقلات، فالأولى تفرغ مع الوقت والثانية تبقى مع الأيام، في الأولى صعاب وفي

الثانية عناء وإن تحمل الصعاب لأرطبُ على النفس من تحمل غُصة الفرار من وغى الواقع ووطيس النزال، وها هو قد خَبر الاثنين بعد طول تأجيل.. وفي لحظة استبصار عقلي واستنارة ذاتية.. قاوم... واستفاق.

أليست الفلسفة في أبسط تعريفاتها هي حب الحكمة وابتغاء الحقيقة.. فإحدى حقائق الحياة أن لا أحد يريد من أحد أن يفكر له ولكن هناك دائمًا من يريد من الآخرين أن يقوموا بتنفيذ ما يفكر هو فيه.. وكل هذا متوقف على ما نشغله من موقعٍ في الحياة.. ليس المهم ماذا تقول ولكن المهم أين موقعك بناءً على ما تقول.

شاهين يرى أنه على صوابٍ وأن نظامه نظام فاعلٌ ومُجدٍ في نتائجه، ونامق يرى أنه على حق وأن اقتراحاته سوف تساعد على سريان العمل بصورة أيسر بل ربما يصل الأمر للوصول إلى ضعف النتيجة في نصف الوقت، وأنَّ تطبيق رؤيته سوف يجنب ظهور كثير من الاحتكاكات التي تنشأ بين العاملين بسبب خطوات العمل المعتادة التي يسير بها العمل دون أن ينتبه أحد إلى أن تلك الخطوات بقدر ما تنجز من نتائج تولِّد مشاكل يمكن تفاديها ولن يتأتى ذلك إلا بتطبيق رؤية جديدة غير المُرحب بها من صاحب الأمر والنهي.

رؤيتان متناقضتان بين من يملك الرؤية وبين من يملك القرار..

نامق يرى شاهين مفصولًا عن الواقع في كثير من قرارته الإدارية ونجاحه

يرجع إلى أن هناك من يتقبل ويتأقلم وينفذ تلك القرارت[1] أيًّا كانت عسرتها وأيًّا كانت ما تنتجه من مشاحنات طوال اليوم دون الالتفات إلى سبب نشوئها، لدرجة أنه شعر في لحظة أن شاهين يكاد يستمتع نفسيًّا بوجود تلك المشكلات طوال اليوم وأنها تمنحه إحساسًا بحيوية نبض العمل وأن وجود هذه الاحتكاكات ليست ناتجة عن نظام معيب ولكن إما بسبب ضغط العمل وإما تقصير من المنوط به التنفيذ، بل إن نامق كاد أن يصل إلى مرحلة اليقين أن شاهين مقتنع بأن اختفاء تلك المشكلات اليومية لا يعني عدم وجود عقبات ولكن يعني عدم وجود إنجاز، وكأنه يعتبر وجودها أمرًا مطمئنًا وأن نجاحه يرجع إلى قدرته الدائمة على السيطرة على هذه المشكلات.

وشاهين يرى أن نامق هو المفصول عن الواقع وأنه يهيم في عالم من الخيال وأن ما يطلبه لا يمكن تنفيذه أو يمكن ولكن بتكلفة أعلى وإجراءات هو في غنى عنها طالما أن لديه البديل، والبديل هو وجود من يوافق ويقبل ويتأقلم.

---

(1) هناك مقولة في عالم الإدارة تقول:
The manager "is not" always right, but he is always going to be manager
ومعناها: (المدير ليس دائمًا على حق.. ولكن هو المدير)
وليس هذا فقط بل هناك مقولة أخرى تنص على:
rule 1: The manager is always right / ..rule 2: when the manager is wrong refer to rule1
وترجمتها: قاعدة 1: المدير دائمًا على صواب.. قاعدة 2: إذا كان المدير على خطأ حينئذٍ تجدر الإشارة إلى قاعدة رقم 1. المؤلف: إنها حقًّا مشكلة عالمية.

هذا هو السر، إنهم المتأقلمون.. أولئك الذين لا يشعرون بأن هناك مشكلة، فتصبح المشكلة هي كيفية إقناعهم بأن المشكلة مشكلة، ولأن هناك من يتأقلم.. لذا فهناك أيضًا من ينجح ويربح من وراء هذا القبول وذاك التأقلم.

هذا التأقلم الذي له باع في النفوس من عصور خلت:

إن الغني إذا تكلم كاذبًا قالوا صدقت وما نطقت مُحالا
وإذا الفقير أصاب قالوا لم يصبْ وكذبت يا هذا وقلت ضلالا[1]

ثاب نامق إلى رشدِهِ.. الفيلسوف داخله أعاده إلى الواقع وقد تغير فيه الكثير، فبرغم كل المنغصات التي يلاقيها بحكم موقعه كأمين لمخزن يحمل المصنع كله على رأسه جغرافيًّا وعمليًّا، فإن هذا المصنع تنجلي بين جنباته الهدف الأول لكل فلسفات الحياة... إنها الحقيقة.

هو عمل حقيقي في مصنع حقيقي.. ليس وهمًا.. المرتب لا يتأخر يومًا واحدًا.. تأتي مديرة الحسابات في أول كل شهر أيًّا كانت ظروفها كي تعطي كل ذي حق حقه.. ولهذا أحس أنه يتعامل مع حقيقة يمكنه أن يبني عليها حقائق.. كما أن الفترة القليلة التي قضاها في العمل أعطت له شعورًا بأنه

(1) تنويه: الأبيات تنسب إلى الشاعر العباسي أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد (الملقب بأبي العيناء). وهناك من ينسبها إلى الإمام الشافعي مع اختلاف بعض الكلمات في الأبيات.

(حي).. يحيا في خضم الحياة لا بَرِّها، في قلب الواقع لا هامشه، يحيا الحقيقة، ولأن العمل حقيقي فلا بد أن يكون مُرًّا علقمًا، شديدًا لا يلقى فيه إلا كل ما يجهده مصداقًا للمثل القائل: "كل عين قدام منها صباع".

وبالرغم من تبجيل نامق للبيجاما فإنه يكره ارتداءها صباحًا... فبقدر ما يحبها عشية يمقتها بكورًا، فهي في الصباح تعني له إما البطالة وإما الفشل وكلا المذاقين مرير، فأنعم نعمة ينعم بها الله على أي رجل أن ينزل من بيته كل صباح متجهًا إلى عمل أيًّا كان هذا العمل طالما أنه يملك الصحة لذلك حتى وإن لم يشعر بالرضا، فالاستطاعة الصحية هي المعيار لا القبول النفسي الذي بالضرورة سوف يتضاد مع معايير البداية، إنها المعايير يا نامق _هكذا حدَّث نفسه_ لذا فضَّل أن يقبل بأقل المذاقين مرارة... أمطره عرق جبين الأكرمين حينما قالوا سلوانًا لأنفسهم المكدودة:

وإيه إللي رماك على المر؟ إللي أمرّ منه.

وهناك سبب آخر جعل نامق يتراجع عن فكرة الاستقالة... ألا وهو خوفه الشديد أن يصبح مثلهم.. هؤلاء المتثاقفون.. أولئك العاطلون الذين لا يفعلون شيئًا سوى الشكوى والنقمة على البلاد.. كثيرًا ما رآهم وتعامل معهم بحكم اهتماماته وارتياده أماكن تواجدهم، رأى فيهم مجموعة من متخمي الذات بلا مبرر.. فهذا شاعر يشعر بالغبن لأن لا أحد يُقَدر أشعاره وهذا فنان تشكيلي يملؤه الكبر رغم بلاهة لوحاته وسذاجتها، وغالبيتهم يملؤهم الغرور والعنجهية والتحدث بعجرفة لا تتسق أبدًا

مع أحوالهم المزرية، لا أحد منهم يستطيع أن يواجه شيئًا.. انهزاميون.. مملون.. فوضويون... فقراء ليس لأنهم شرفاء ولكن لأنهم يرفضون كثيرًا من الأعمال التي من الممكن أن تقيهم شر العوز.. يهاجمون الدولة آناء الليل وأطراف النهار وفجأة يتذكرونها عندما تهاجمهم الأمراض.. فينعقون مثل الغربان طالبين من نفس الدولة تحمل تكاليف علاجهم فهم لا يقوون على تحمل تلك التكاليف بعدما أفنوا أعمارهم في قرض الشعر وكتابة الروايات ولم يكن لديهم متسع من الوقت لكي يناضلوا من أجل عفة اليد عن التسول عندما يبلغون من الكبر عتيًّا أو ينالهم من الحياة ما قد ينالهم... مُنظرين لا منفذين.. عقولهم مليئة بالفكر والثقافة والوعي العام، صحيح، ولكن أفئدتهم هواء.

فاشلون لا بسبب مخالفة رؤاهم للنسق العام ولكن بسبب ضعفهم وعدم مقدرتهم على مواجهة الواقع.... متناقضون.... يهاجمون الجوائز الأدبية ناعتين الجهات التي تمنحها واللجان التي تقرر مَن يحصل عليها بأبشع النعوت ومن داخلهم يتمنونها ويحلمون بها، ويحسدون مَن ينالها رغم تظاهرهم بعكس ذلك، وحتى إن رفض الجائزة أحدهم فإنه يتخذ من ذاك الرفض مطية للوجاهة الإعلامية والمزايدة الوضيعة[1].. لا يقدرون

(1) فعلها أحد الأدباء حينما رفض إحدى الجوائز التي تمنحها الدولة.. ولكنه لم يعلن رفضه إلا بعد أن تقدم بالفعل لاستلامها ووقف على منصة الاستلام يعلن الرفض في حركة مسرحية وكان الأجدر به أن يعلن رفضه لتلك الجائزة مُسبقًا، من أي منبر إعلامي من المؤكد أنه كان متاحًا لديه بديلًا من هذا الرفض الذي يمكن تفسيره بأنه اتجار بالموقف.

على مواجهة مشكلات حياتهم ولكنهم لا يفتئون يطالبون الحكومات بمواجهتها.

قاوم نامق حتى لا يصبح مثلهم.. مبتسرًا.

وصارح نفسه متطهرًا بثقافة الاعتراف، إذا كان يشعر أنه يتحصَّل على أجر لا يستحقه نظرًا لعدم مقدرته على تسيير العمل طبقًا لرؤيته، فعليه إذن أن يواجه ما يحاول الهرب منه وأن يلتفت إلى ما يمكنه فعله طبقًا لرؤية الأقوى بحكم موقعه هو الآخر.. حينئذ يستحق أجره، فالحياة مواقع أكثر منها رؤى، لا أن يختار الأسهل ويغلف هروبه بغلاف أخلاقي كاذب وما هو في الحقيقة إلا انحدار لن يجني من ورائه إلا الخزي.

تذكر نصيحة سقراط الخالدة: أيها الإنسان اعرف نفسك.

ونامق يعرف نفسه جيدًا.. يعرف أنه أستاذ في المواقف التي تتطلب إعادة تصحيح.

لذا تراجع قائلًا لنفسه:

الغضبـان ينجح، المتمرد ينجح، الرافـض ينجح... لكن المأموص لا ينجح.. الحياة سوف تؤدبه.

تراجع حتى لا يقع تحت السلطة التي لا مرد لها... سُلطة النتيجة.

اقتنع تمامًا، إما الارتكان إلى الحل الفردي بكل مغارمه أو شراسة حل

المؤسسة بكل مغانمه... والمؤسسة _في عموم المثال_ هي الواقع، ورغم قسوتها هي الكرامة.

دوّت في أذنيه كلمات سيد درويش:

"إن كان شيل الحمول على ضهرك يكيدك أهون عليك يا حُر من مَدِّة إيدك".

قرر أن يعمل بما تعنيه نصيحة الدرويش الثاني[1]...

"اقبل لا تتأقلم".

وكأن التاريخ يُعيد نفسه.. فكما تقبَّل والده أمر التغيرات السياسية والاجتماعية في زمانه لم يكن هناك بُد أمام نامق من أن يفعل مثلما فعل والده.

خرج عماد سعدان، من بوابة المطار تتبعة أعين رجال مباحث أمن الدولة وهو يحمل حقيبة على ظهره تنتظره رانيا ومعها زميل لهما.. وما إن رأته حتى أشارت إليه.

انطلق زميلهما بالسيارة في طريق العودة من المطار موجهًا حديثه إلى عماد:

الشاب: أيوه يا عم... كانت فسحة طبعًا.

(1) الشاعر الكبير: محمود درويش.

عماد: فسحة إيه... ده أنا إتهريت إجتماعات... طول النهار في الـ Work shop.

رانيا: بس أكيد الأمر برضه ماخلاش من فسحة كده.

الزميل معقبًا: مُزة كده.

عماد في لهجة تبرئة لنفسه:

أنا! لا والله!

رانيا: ياعماد...

الزميل: على البيت ولَّا على المقر.

عماد: البيت.. لازم أروَّح الأول أغيَّر هدومي وآخد حمام... وكمان عايز أنام.. أنا تعبان جدًّا... وبكرة إن شاء الله نتقابل كلنا في المقر.

نظر عماد إلى رانيا وابتسم.. لأنه يعلم كم هي معجبة به ومن جانبها لم تخفِ الجهر بهذا الإعجاب أمام أفراد المجموعة والذين بصفة عامة تختلف معاييرهم في التعامل بعضهم مع بعض اختلافًا تامًّا عن المعايير المتعارف عليها في المجتمع أو في البيئات التي أتوا منها على تنوعها، هو لم يكن يحبها ولم يبدر منه ما يمكن أن تستنتج هي أو أحد من مجموعتهم بأن ما يجمعهما علاقة حب.. كان أذكى من أن يسير في هذا الاتجاه، هو فقط يحلم بالسيطرة عليها وبالتحكم فيها... السيطرة على نموذج أضمر له الكراهية منذ صغره.

دخل شاهين إلى المنزل صارخًا:

فين رانيا؟

عفاف مذعورة:

فيه إيه يا شاهين؟ إنت مش متعود تسأل عن رانيا بالطريقة دي!

شاهين بعصبيته المعهودة:

فين رانيا؟

... خرجت رانيا من حجرتها على دوي صوت والدها.

أيوه يا بابا.

ـ ما شاء الله حضرتك تكتبي على الهباب بوك.. وأنا إللي أفسَّر وأبرر وأعتذر طول النهار.

ـ تفسر لمين يا بابا.. وتعتذر عن إيه؟

ـ أعتذر للي سيادتك بتشتميهم ليل ونهار.. إنت ناسية إنك بنتي..

ـ أنا مش بأشتمهم أنا بأقول إللي الناس كلها بتقوله.

ـ الناس تقول إللي هِيَّه عايزاه... إحنا لينا وضع خاص... أنا مش موظف بآخد مرتب.. بالكتير أخاف من النقل أو الرفد... أنا صاحب مصنع... والسوق كله مِنفِّد على بعضه لو مش بالمصالح يبقى بالمجاملات،

الناس لحد دلوقتي ذوق معايا ومكتفين بمجرد تنبيهي، لكن مين عارف ممكن جدًّا حد يأذيني في شغلي مجاملة لأي اسم من الأسماء إللي إنتِ داخلة فيهم شمال، إنت وشوية التُحف إللي إنت ملمومة عليهم.. إنتو فاكرين إنكم حتجيبوا الديب من ديله.

ـ يا بابا الناس دي يومها قرَّب...

ـ يا سلام... بسم الله ما شاء الله يا جناب الكودية.

رددت الكلمة في استفهام.. كودية.. يعنى إيه كودية؟

أجابتها والدتها مُفسرة لـها معنى الكلمة... يعني عرَّافة..

ـ والمطلوب؟

ـ تبطلي طولة اللسان على المسئولين في البلد..

رانيا مبتسمة:

بس كده حاضر.

ـ أعوذ بالله.. هو أنا ناقص الفيس بوك ده كمان.

عفاف وقد هدأ ذعرها:

هدِّي نفسك شوية يا شاهين، فيس بوك إيه بس إللي مخلِّي حالتك بالشكل ده؟

ـ أنا بأكره الفيس زفت ده.

ردت رانيا دون أن تستطيع التغلب على لهجة التحدي في نبرتها:

مش إنت لوحدك يا بابا، أكيد كل أصحابك بيكرهوه وعلى فكرة ده سر قوته.

شاهين بعصبية: رانيا.

عفاف: دماغي.. رانيا ادخلي أوضتك.

مع تباشيرعام 2010 كانت مصر تموج بالحركة.. قنوات فضائية نابضة.. صحافة زاعقة... مؤتمرات حاشدة... حركات مدنية ذات مسميات مختلفة.. وقبل كل هذا وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت لها السيادة والسؤدد على ألباب الشباب، ولم يكن نامق بعيدًا عن كل هذا الفضاء السيبراني العاصف ولكنه قرر بعد تفكير عميق أن ينشئ صفحة على الفيس بوك لكنه لن يكتب عليها شيئًا.. لن يقبل إضافة ولن يرسل في طلب صداقة اللهم إلا لذوي القربى والذين يتحتم التواصل معهم...كان رافضًا لهؤلاء الذين جعلوا شئون حياتهم على المشاع، مباحة مستباحة للجميع يكتبون كل شيء ويصورون أنفسهم في شتى الأوضاع وبأي ملابس.

لم يقتنع أبدًا أنها مجانية كما يراها الدهماء بل لها ثمن، فالله لم يخلق المجانية _هكذا حدَّث نامق نفسه_ لا بد من دفع ثمن.. والثمن هو المعايير.. انهيار تام في المعايير.. زالت معايير وجاءت أخرى.. معايير الجماهير.

فالأمر لا يحتاج إلى كثير من الجهد بل تكفي فقط المتابعة العادية _العابرة_

لكثير من صفحات التواصل الاجتماعي ليستشف أن الكثيرين _والكثيرين جدًّا_ يتعاملون مع هذه الوسيلة ليس باعتبارها تقنية حديثة وراقية للتعبير عن الرأي وتبادل الرؤى ولكنهم يتعاملون مع الفيس بوك وكأنه مصطبة، ربما بسبب التكوين الريفي الغالب على طبيعة المصريين فجاءت ألفاظهم وأراؤهم المكتوبة تعبيرًا عن تلك الثقافة الضحلة.

كان يرى فيها ترجمة حيّة وواقعية لذلك المبدأ الشيطاني الشهير الذي يقع فيه عوام الناس وخاصتهم، رغم التحذير الإلهي الذي جاء في سياق الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[1] ولم يكن ذلك ظنًّا أو رأيًا من فراغ.. أليس هذا ما تقوله وسائل التواصل الاجتماعي نفسها وهي تدعو نشطاءها الأفاضل قائلة لهم بلا مواربة بصيغة تساؤلية محفزة:

What's on your mind?

ماذا في عقلك؟

ليسكب بعدها من ارتضى _أمام الجميع_ ما في عقله!

وحدهم من اعتزلوا هذه المصايد ينجون بحياتهم من كل هذا الغثاء. لم يستوعب نامق كيف لامرئ أن يضع صورته في كل أحواله على صفحته؟ لم يفهم مامعنى أن تمتلئ الصفحات بصور ينشرها أصحابها وهم يرتدون

(1) سورة إبراهيم الآية 22.

البيجامات.. كان يشعر بإهانة زيه المنزلي الأثير.. البيجاما.

لم يتقبل أن ينشر الكثير من رواد التواصل الاجتماعي صورًا لهم وهم يتناولون طعامهم على أريحيتهم.. والطعام يملأ أفواههم التي تحتل نصف الصورة ويضحكون بملء فيهم... وهو الذي يقدس مائدة الطعام وأدواتها ويستعذب الجلوس إلى المائدة ويراها رقيًّا ورفعة.

هذا غير قناعته التامة بأن الكتابة _لغير الضرورة_ على تلك المواقع هي كتابة رخيصة... فالقارئ يجب أن يسعى إلى الكاتب على عكس ما يحدث في مواقع التواصل تلك.. والتي تجعل الكاتب ساعيًا إلى القارئ مُرسلًا إليه ما يقرؤه، وليس القارئ هو الساعي إلى الكاتب لكي يقرأ ما يسطره... إنها إهانه الكتابة في أجلى صورها.

ربما تكون الميزة الوحيدة في متابعة صفحة شخص ما أنه يمكن تقييم درجة وعيه وثقافته وتحضره، فهناك علاقة عكسية بين درجة نضج الشخص وبين الأخبار الشخصية على صفحته، فكلما قلت أو عدمت الأخبار الشخصية دل ذلك على درجة عالية من النضج والنضارة النفسية فذلك معيار لا تخيب رؤاه ولا يظلم حكمه.

وبعد أن كانت مصر مليئة بصفحات الجرائد أضحت مليئة بصفحات الأفراد.. أمسى كل فرد صفحة وصحيفة، لذا قرر أن يستخدم وسائل التواصل الاجتماعي لا أن تستخدمه هي.

ومصر في كل هذا الزخم حُبلى في شهورها الأخيرة بجنين ثورة لُقحت في الصدور قبل أن تنمو في الأرحام، جنين يتشكل في كل محافظات مصر وها هو الجنين يركل بطن الأمة وكأنه يرسل إشارات بقرب خروجه من جوف المجتمع إلى أكتاف الشارع، مُعلنًا أن نموه قد اكتمل وحان موعد ميلاده في قلب العاصمة... القاهرة.

القاهرة... وكأنها الصفة وليست الاسم.. هي بالفعل قاهرة.. قاهرة للغريب الذي يغزوها وللأصيل الذي يحكمها، قاهرة لزائريها ومَن يحيا فيها..

القاهرة.. اشتُق اسمها من نجم القاهر الذي بزغ في السموات العلا إبَّان تشييدها، طالما عرفت القاهرة الأحداث، مدينة حية لا تعرف الموت، شوارع وأزقة، طرقات وعطفات وحواري، معابد يهودية وقورة، كنائس زاخرة ومساجد باسقة، مطاعم وتكايا، بيوت متراصة متلاصقة وبيوت فسيحة لها صحون وأفنية... إنها القاهرة..

من فسطاط عمرو بن العاص إلى قطائع ابن طولون حتى وصلت إلى مُعزٍّ فشيدها.

واكتسبت من يومها لقبها المُستَحق قاهرة المُعز..

مدينة الألف مئذنة... مآذن الفاطمية والمملوكية.. الإخشيدية والطولونية، مآذن العثمانية، إلى مآذن الأسرة العلوية.. ففي عام 1805 تولى محمد علي

حُكم مصر..... تولاه بناءً على رغبة شعبية وتفويض من وجهاء البلاد آنذاك... وآلى على نفسه من اليوم الأول أن يؤسس لدولة حديثة قوامها العلم والمعرفة، وجد المؤسس الجديد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما إما الدولة وإما المماليك... فقد كان المماليك آنذاك قوة لا يستهان بها... مجموعات منظمة ولكل جماعة كبير يدينون له بالولاء، فلم يعرف المماليك يومًا الولاء لوطن ولم يعرفوا أبدًا الانتماء لدولة... لأنهم مماليك... النوع الأرقى قليلًا من العبيد... ولأن المؤسس كان له حلم بتأسيس دولة حديثة فلم يتردد في القضاء على القوة المناوئة له في الحكم قضاء مُبرمًا وحدثت مذبحة القلعة الشهيرة، تفرَّغ بعدها صاحب المقام لتأسيس الدولة... لأن الوطن بلا دولة ليس أكثر من مجرد قطعة أرض، عرف المؤسس أن الدولة هي الحصن الحصين، ولكي تكون يجب أن يكون قوام الانتماء للأرض والعلم، فالمماليك لا يعرفون ولا يعترفون بكل هذا، لأنهم لا يعرفون إلا الولاء لمن يُطعمهم ويسقيهم ويدفع لهم، أما من يدينون بدين الدولة فإنهم هم الذين يدفعون لها ويدافعون عنها ويُضحون من أجلها... وهذا هو الفرق بين الوطني والمملوكي.

صحيح أن محمد علي قد استطاع أن يقضي على المماليك كأفراد _ما عدا واحدًا_ ولكنه للأسف لم يستطع أن يقضي على الفكرة.. فلا يزال الفكر المملوكي يُعشعش في نفوس وعقول كثير من المصريين.

وجاء إليها الخديوي إسماعيل، الذي تولى عرش مصرعام 1863...

فأحبها مثلما أحبها جده... يسافر إلى البلاد الأوروبية ويعود مهمومًا وهو حسير، فالمقارنة ليست في صالح عاصمة مُلكه... فيقرر جناب الخديوي أن يستقدم المعماريين الذين بنوا عواصم بلادهم، وفي زيارة له لباريس عام 1867، طلب الخديوي شخصيًّا من الإمبراطور نابليون الثالث أن يقوم المهندس هوسمان بتخطيط القاهرة كما خطط باريس التي كانت آنذاك غارقة في الظلام، وجاء الفرنسي إلى مصر، كما جاء أجداده يومًا ما، جاء من وراء البحر المتوسط... ليبني القاهرة الخديوية... والتي لا تزال آثارها شاخصة على مجد عهد ولَّى، شاهدة على الجمال الذي كان، والعظمة التي دمرها الرعاع.

وكما جاء هوسمان.. جاء بعده بسنوات كريسويل، ذلك العالم الإنجليزي الذي أحب عاصمة المحروسة وأخلص لها، فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى استقر في القاهرة التي أقام بها ما يزيد على نصف قرن (1920 – 1973) وأصبح شخصية معروفة حتى في الأحياء الشعبية مثل مصر القديمة، ذلك الحي المليء بالآثار.

سار كريسويل بين المصريين وذاب بينهم، ألقوا إليه بالتحية فردَّها لهم بانحناءة من رأسه... هذا البريطاني الأنيق الذي كان عندما يذهب إلى سبيل قديم بمنطقة مصر القديمة ويجد التراب قد علاه وغطته أكوام القمامة لم يكن يتردد في أن يخرج منديله وينظف الشباك النحاسي المشغول ولا يتركه حتى تظهر معالم الشباك ودقة النقش والحفر فيه، حينئذ يبتسم

فرحًا وسرورًا ولم يكن يبرح القاهرة إلا لدواعي السفر إلى بلاده...

هوسمان الذي هندس وصمم وكرسويل الذي درس وأرَّخ، وشيد قصورًا وفيلات ذات أفنان يعيش فيها من يعرف قدرها ويتصرف بحق هذا القدر.

كانت نتاجًا طبيعيًّا للمعايير... البيه الموظف، حضرة الناظر الذي يزامن دخوله صيحة الاحترام الشهيرة من مدرس الفصل... قيام، معالي الوزير، دولة رئيس الوزراء، أسيادها باشوات وسيداتها هوانم، وعوامها أفندية... أما الدهماء فيمشون على استحياء في طرقاتها حتى لا يجرحون قدرها أو يخدشون جلالها.. أليست هي العاصمة؟ عاصمة تعصم من القبح... من الغوغاء... من السفهاء.

تعصم كل من يعيش فيها من أي نسق غير نسق المدينة.. روح المدينة، ملابس المدينة.. ألفاظ المدينة وقبل كل هذا معمار المدينة، إنها المعايير.. معايير المدينة... هكذا كانت.

وفي ليلة سوداء من صيف نحس.. تحرك من تمكن ضد من فرَّط.. تحرك من لا يستحق ضد من يملك.

ولأن الـجُدد لا يبغون إلا التصفيق ويسعون نحو التأييد ويحتاجون العون والتعضيد.. لم يجدوا ما يبتغونه إلا في الجماهير.. فأضحت الجماهير هي الأسياد.. وإرضاؤهم هي الغاية... الفيلات الجميلة تحولت إلى مدارس

وغاب عنها حضرة الناظر وتلاشت صيحة المدرس عندما رحل النموذج... القصور أصبحت هيئات ومديريات.. انخفض السقف العالي للبيوت، وضاع إرث هوسمان، تريَّفت المدينة وأصبحت مسخًا، فلا هي أمست سكنًا ولا باتت وطنًا.

إنـه الهرب إلى الحل الأسـهل... سياسـة الإغارة لا العـمارة... فكان الانحدار، حتى وصل بها الحال إلى مآذن السلفية.

بدأ المد السلفي في مصر في نهاية السبيعنيات وساعد على انتشاره وتسيده هزيمة 67 التي أعطت الحُجة لهذا التيار أن يكون له وجود قوي في النفوس... والخطاب السلفي بطبيعته رنانًا، يخاطب القلوب قبل العقول ويملك ناصية القول وإن من البيان لسحرًا، في مجتمع له ثقافة سماعية في الأساس يبني آراءه على ما يسمعه.. إنها ثقافة الأذن، ساعد هذا المد على انتشار التركيبة السكانية في مصر التي تتكون معظمها من تركيبة ريفية يلعب الدين في تكوينها دورًا كبيرًا، ولم يحتَج الأمر إلى جهد جهيد لكي تتسيد السلفية، فالبيئة مناسبة والظروف مهيأة والنفوس مُعدة...

انتشرت في مصر مظاهر لم يعتدها المجتمع المصري طوال تاريخه... بدأت النساء في ارتداء الحجاب والرجال في إطلاق اللحى.. أسماء المواليد تتغير... أسماء المحلات تتبدل، وبعد أن كان الشارع يموج بلافتات المحلات التي تحمل أسماء من مختلف الجنسيات والأديان.. شرع في الاتجاه نحو الأحادية، أحادية الملبس والفكر... نجح السلفيون في صناعة معنويات

جديدة للمصريين... وبعدما تغيرت الملابس تغيرت اللغة، استطاعوا أن يُغيروا لغة الخطاب... بدءًا من تحية الصباح والمساء إلى الكثير من المفردات العادية التي طالما استخدمها العامة في أحاديثهم اليومية بلا حرج، وفرضوا معايير جديدة وأقنعوا بها الكثيرين... فتعلم اللغة ليس بُغية التعرف على ثقافة مختلفة أو الاطلاع على حضارة أخرى أو توسيع المدارك ولكن من أجل أن يأمن المرء شر أهل هذه اللغة... فمن تعلم لغة قوم أمن شرهم... تلك معاييرهم.

وبعد أن انتصرت مدرسة الموروث على مدرسة الرأي تسلفن العقل الجمعي لأم الدنيا وصارت كل المظاهر تخبر بشيء واحد.. السلفيون قادمون.

ولم يكن الأمر عسيرًا فيكفي فقط ما كان من صمت فصنع هذا الصمت فقهًا...

ولو لم يصمت المجتمع ضد أساطين السلفية ما استطاعت أن تتسيد وتتحكم... تقول ولا أحد يرد، إما خشية عدم المقدرة على صياغة الرد صياغة تُجابه براعة السلفيين في طلاقة اللسان وبلاغة القول _لا الحُجة_ أو وقاية من شر الوقوع في الظنون والاتهامات الجاهزة في مجتمع أكثر ما يحسنه هو إساءة الظن.

ومع تغير البنية الذهنية للعقول والبنية الإيمانية للأفئدة تغيرت بالتبعية البنية المعمارية للمساجد، فبعد أن كانت كثير من المساجد تُعد من معالم

القاهرة أصبحت زخارف الجدارن محرمة حتى لا تشغل المصلين رغم أنها لم تشغلهم أبدًا على مر التاريخ.. صارت بنية المساجد مثل عقول القيمين عليها... جرداء.

وقع غالبية المصريين في إسار الأحادية وأضحت هذه الأحادية أسلوب تفكير ومن ثم طريقة حياة... وذاع ضيق الأفق في العقول وانتشرت البغضاء في النفوس... لم يعد الواقع محتملًا لأن طريقة التفكير والأفكار المعششة في دواخل العقول أفكار لا تطيق الآخر رغم كثرة الحديث عن التسامح وأن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية وما إن تثار قضية حتى يكون الاختلاف غير مصحوب بالود بل بالتناحر والتنابذ والتطاول... مجتمع مفصول عن الواقع... يعيش داخل صرح من الأكاذيب، يكذب في كل شيء...

ده مفيش أحلى من أكل البيت... كذب... أكل المطاعم أحلى، ربما لايكون صحيًّا ولكنه ألذ.

المهم الأدب والأخلاق... كذب... الجميلة تتزوج سريعًا... ربما لا توفق في زيجتها ولكنها تُلتقط قبل ذات الخُلق إن لم تكن على جمال بيِّن.

أنا مبعرفش ألِّف وأدُور وإللي في قلبي على لساني... كذب... لا أحد يقع ما في قلبه على لسانه وإلا انهارت العلاقات الاجتماعية بالكامل، إلا إذا كان في موقع قوة يتيح له أن يضع ما في قلبه على لسانه... فتلك نقرة أخرى.

أنا مش ممكن أعمل حاجة أنا مش مقتنع بيها... كذب... الحياة مليئة بالمُكرهات ولا تخلو حياة إنسان من الإكراه إقدامًا أو امتناعًا.

أنا مش بَرمي عيش خالص... كذب... كلنا بنرمي عيش.

مش مهم كلام الناس... كذب... كلام الناس مهم، ولا أحد يستطيع أن يتجاهل كلام الناس في التأثير على حالته المعنوية وربما حتى على قراراته الشخصية.

وأخيرًا الجملة المأثورة...

أنا كان نفسي أدخل كلية (-) لكن المجموع جبني هنا... كذب... ما جاء بك إلى حيث أنت هو مجموعك وليس المجموع.

إنها الثقافة الغائبة... ثقافة الاعتراف[1]، وفي الوقت الذي يرصد فيه الأبيض واقعه بنفس الطريقة التي يدوِّن بها مذكراته فإن الآخر يُشخص واقعه بتزييفٍ ومداهنة وتدليس.

والبون الشاسع بين ما يقال وبين ما يكون... بين الحديث وبين الفعل... ومن هنا يقع الإنسان كمفرد والمجتمع كجمع في نار التناقض ولا يكون هنالك من مهرب إلا اللجوء إلى الماضي حيث يجد الجميع ضالتهم المنشودة.

(1) على سبيل المثال... اشتهرت الفنانة الراحلة مريم فخر الدين بصراحتها الشديدة... وكان كثيرون ينتقدونها... فقط ينتقدون صراحتها ولم يجرؤ أحد على تكذيبها مطلقًا في أيٍّ مما تقوله، وربما ترجع صراحتها غير المعتادة إلى تلك الجينات المجرية التي تجري في عروقها. (إنها الجينات... أقول ربما).

ومثل كل المصانع هناك فترة استراحة... وكان لنامق زميل يعمل مشرفًا على أحد خطوط الإنتاج تجمعهما فترة الاستراحة تلك، إنه عيد ميرغني، شاب في أواسط الثلاثينيات من العمر ذو ملامح مصرية صميمة... تزوج صغيرًا نسبيًّا قياسًا على سن الزواج في زماننا، حيث اقترن بزوجته بعد تخرجه مباشرة... كانت زيجة سهلة إلى حد كبير أقام مع والدته في نفس شقة الأسرة بعد رحيل أبيه إلى أن وافتها المنية، له ثلاثة أبناء وأخت وحيدة تعيش مع زوجها في أحد الأحياء الشعبية، شعبي التكوين سواء في التفكير أو في طريقة الكلام... وبالطبع في المعايير... عصبي... ضيق الخُلق... عيبه الأساسي أن لسانه يسبق تفكيره مثل غالبية المصريين...

لا يتذكر نامق متى بدأ الحوار مع زميله عيد، لكن ومع مرور الأيام امتدَّ وتعمَّق حتى صارت الحوارات شبه يومية وجهًا لوجه أحيانًا أو تليفونية أحيانًا أخرى.

نامق وبحكم تكوينه الفكري والأسري ليبرالي ويميل إلى مدرسة الرأي، يحب المعتزلة ويناهض الحنابلة، المرجعية الأم للسلفية، أما عيد فهو على العكس... سلفي، منغلق التفكير، ينتمي إلى مدرسة النقل... الموروث الآمن.

وظل الحوار بين نامق وبين زميله يتأرجح بين الاختلاف التام في الآراء أحيانًا أو الاختلاف على بعض النقاط والاتفاق في بعض آخر.

لم يطلق عيد لحيته ولكنه أطلق العنان للأصفاد كي تقيد عقله... يا للمفارقة أن يقيد المرء عقله بإرادته.. أن يسعى بكل ما أوتي من قوة لكي يعطل تفكيره ويُسلِّم نفسه طواعية لمن يقوده! سلفيًّا في الجوهر لا في المظهر، وكما كانت لدى نامق مكتبة عامرة بأمهات الكتب التي تحوي بين طياتها ميراث الفكر الإنساني... بالمقابل كانت لدى عيد مكتبة موازية تحمل فكرًا مضادًا، كتبًا ضد فكرة الوطن والمواطنة... أخرى تحث على الجهاد، وعلى البراء من كل ما يخالف ميراث السلف والولاء لكل من يحذو حذوهم وينحو منحاهم، كتب تقبِّح الفلسفة والفلاسفة وتستهجنهم.. فكان من الطبيعي أن تتصادم المكتبتان بالإضافة إلى تصادم الجينات.

نامق هذا المصري الذي يحمل جينات الاختلاف... جينات مصر الكوزموبوليتانية... الذي تجري في عروقه دماء مصرية ممزوجة بدماء ألبانية أوروبية أرمينية، هذا المزج الذي صانه من داء التعصب وجعل لديه مناعة جينية ضد الدوجما.

وعيد، مثال المصري الوارث كل نتائج الثقافة الأحادية التي تفشت في مصر على مر العقود، ثقافة ما بعد يوليو مدعومة بثقافة ما بعد الهزيمة مُعضدة بسياسة جديدة كي تناهض التيار اليساري، تشرَّب الثقافة الماضوية في مختلف مراحل عمره واشرأب عليها وتمكنت منه، فصار مثل الأخسرين أعمالًا الذين يظنون أنهم يحسنون صُنعًا.

كثيرًا ما تحاورا على مر الأيام...

عيد، في ثقة:

كل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف.

فيرد نامق معارضًا:

مقولة بشرية لا قدسية لها، ده غير إنها حُجة باطلة، فليس كل خير في اتباع من سلف ولا كل شر في ابتداع من خلف.

عيد ببغبغانية:

البدع ضلال.

نامق بتلقائية:

ليست بدع ولكنها إبداع... السكون مواتٌ والزمن صيرورة، ظرفية النص لا حرفيته هي الملاذ وطوق النجاة.

عيد، واثقًا:

المسلمون استطاعوا أن يحققوا انتصارات عظيمة لأنهم كانوا متمسكين بدينهم بعيدًا عن البدع.

نامق مؤرخًا:

أنت تلوي عنق الحقيقة... انتصروا لأنهم فهموا ظروف عصرهم.. انتصر المنهج وقتما كان منهج الحياة متوافقًا مع سلوك المسلمين آنذاك

ومتسقًا مع معايير زمانهم. لا اختيار أمامنا سوى اختيارنا للمستقبل.

صمتَ نامق قليلًا مترددًا أن يتفوه بشيء ثم استجمع شجاعته وقال:

جوزيف ديزيريه.

واستطرد نامق:

مشهد من الطوفان... لوحة رسمها فنان فرنسي.. اسمه جوزيف ديزيريه... بتلخص الموضوع كله.

نظر إليه عيد... ثم وضع راحة يديه على صدغه، تلك الحركة الشهيرة التي تتجسد فيها كل معاني السخرية واللامبالاة... فلم يكن عيد يتوقع أن القدر يخبئ له خبيئة تشخص كل ما عنته تلك اللوحة البليغة.

وما بين شدٍّ وجذب، وحُجة وحجة مضادة لا ينتهي الحوار أبدًا بين السلفي والليبرالي، بين اثنين من أهل المصنع، أهل مصر يحملان نفس الجنسية ولكنهما لا يحملان نفس العقلية.

لم يكن نامق من رواد المقاهي، ولكنه سمع عن مقهى البستان[1] وأنه موئل الشباب والفنانين والشعراء والأدباء على اختلاف مشاربهم وميولهم الثقافية والفكرية والسياسية... تردد كثيرًا في أن يذهب إليه حتى عزم أمره بعد تشجيع من أحد الأصدقاء وكأنه على موعدٍ مع نية نامق في الذهاب

(1) بعد عدة سنوات ظهر هاشتاج نال شهرة كبيرة على وسائل التواصل الاجتماعي بعنوان "وسط البلد" وفيه تندر شديد على طريقة كلام وتعبيرات وألفاظ رواد مقاهي وسط البلد.

بعد طول تردد فلم يكن الأمر يحتاج إلا لمن يعطي له دفعة تشبه تلك الدَّفعة التي يتلقاها من يقف على شاطئ البحر مترددًا في النزول حتى يأتي إليه من يشجعه... فذهب إلى هناك، ومنذ اللحظة التي ولج فيها المقهى لم يشعر بالألفة ولا ارتاح لطبيعة المكان، ربما بسبب مظهر رواده بملابسهم الغريبة وهو الذي لايعرف _رغم تمرده الذهني_ إلا القميص والبنطلون.. ربما.

أما المفاجأة فكانت أنه رأى رانيا، عرفها بسهولة فقد أتت لوالدها في المصنع غير مرة.. ولكنها لم تكن في زياراتها تنتبه إلى شخصه فلم تصادف رؤية وجهه إلا مرورًا لا يلصق بالذهن، ومن ناحيته لم يشأ أن يُعرفها بنفسه وبأنه يعمل في مصنع والدها، تاركًا هذا لمصادفات الحوار حتى يتشكل التعارف بصورة طبيعية، ورأى عماد سعدان، زميله إبَّان الدراسة في الجامعة رغم اختلاف الكليات، صحيح أنه لم يتوقع وجوده حيث كان غائبًا عن ذهنه بطبيعة الحال، فلم يلتقيا مطلقًا بعد تخرجهما كُلًّا في كليته.. ولكنه لم يتفاجأ حين رآه، حفظت معرفته السابقة بعماد من مفأجاة وجوده في مكان له طبيعة مثل طبيعة مقهى البستان، تذكرا... ولكنهما لم يتصافحا فما وقع بينهما يومًا ما، كان أقوى من قدرتهما على الصفح والتصافح.

انطلقت رانيا في الحديث بحماسة كعادتها، تصب جام غضبها على نظام الحكم في مصر وعلى الحزب الحاكم الذي يتربع على عرش البلاد منذ ما يقرب من نصف قرن.

رانيا: نفسي أعرف بييجي لهم وش يقولوا عليه حزب الأغلبية إزاي؟

أحدهم: ثلاثة ملايين عضو... تبعًا لآخر إحصائية.

رانيا: حزب بلا تاريخ.

رد نامق محاولًا تأريخ ما تقوله رانيا:

الحزب الوطني هو وريث الاتحاد الاشتراكي في العهد الناصري.. وأصبح حزب مصر في عهد السادات وأخيرًا الحزب الوطني...

رانيا: ابن الدولة من يومه.

نامق: ده صحيح فعلًا.. الحزب الوطني لم يخرج من رحم الشعب.. أنشأته الدولة.. وبمعنى أدق صنيعة نظام الحكم.

رد عماد سعدان بلهجة يملؤها الغِل:

مجموعة من المنتفعين.

وإذا بأحدهم يقول في خفوت وكأنه يخاف مما يقول:

أي حزب أيام الملكية أفضل منه.

وعند ذكر المَلكية انطلق نامق يتحدث بحماس وكأنه يدافع باللاوعي الكامن فيه عن أصلابه الذين غدر بهم الزمان:

طبعًا.. الأحزاب أيام الملكية كانت أحزابًا حقيقية والعمل السياسي

كان يتمتع بالمصداقية، كلية الحقوق هي الكلية الأم لكل السياسين لدرجة أن بعض الآراء تؤكد أن نظام يوليو أنشأ كلية الاقتصاد والعلوم السياسية نكاية في كلية الحقوق... الحديث في السياسة كان بيدور داخل البيوت والبيوت أحيانًا تُعرف بسياسييها... مهنة تورث من جيل لآخر.

ردت رانيا ضاحكة:

توريث برضه.. هوه الشعب المصري غاوي توريث من زمان.

فجأة وقف أحدهم مشيرًا إلى أحد الأشخاص الذي دخل من فوره إلى المقهى:

أَعرَّفكم بالدكتور مرقص... الدكتور مرقص عياد.

عقَّبت رانيا مازحة:

مُرق.. سين ولا صاد.

جاء رد مرقص ببسمة ودودة صامتة.

اندمج الجميع في الحديث عن السياسة وما آلت إليه أحوال البلد.. طال الكلام بلا انقطاع وبلا ملل.. انطلق كل متحدث يتكلم بما يجيش في صدره من آراء وهموم.

رانيا شاهين... مندفعة متحمسة تتكلم بسرعة ولكن بأفكار منظمة.

عماد سعدان.. ناقمًا، كارهًا لنظام الحكم يتكلم بلسان يفيض بغضًا ومقتًا

للدولة ومؤسساتها وخصوصًا الأجهزة الأمنية على اختلاف مسمياتها.

مرقص عيّاد.. سلفيًّا... حادًّا.. تصادميًّا، يفوح من كلامه طعم المرارة والإحساس بالاضطهاد والضيق والنفور من المجتمع ونظام الحكم.

أما نامق.. فهو مُرتب.. مُهادن.. يميل إلى نقد المجتمع أكثر من ميله إلى نقد الدولة أو نظامها الحاكم، لا يخلو حديثه من شعور جارف بالتعاطف مع الدولة متجاوزًا أحيانًا، معلنًا تعاطفه مع الحكومات التي تحكم، يرى أن مأساة الحكومات بأنها لا تحكم الدولة ولكن في حقيقة الأمر تحكم المجتمع بجبروت موروثاته من عادات وتقاليد.

تفرق الجمع وانتهى النقاش ولكن ليس كما بدأ... تعرَّف نامق على مرقص ولم يحتج نامق إلى وقت كثير في الاستماع إلى مرقص حتى يستنتج مدى سلفيته الشديدة، تلك السلفية التي تشي بها آراؤه وأفكاره التي لم يستطع مواربتها حينما انطلق في الحديث.. ولذلك كانت تلك المعرفة فارقة حيث أضحى مرقص عياد بمثابة المعادل القبطي لعيد ميرغني الزميل الصباحي والذي لا تنقطع حواراتهما بين شد وجذب.. وما كان أكثر الشد والجذب بينهما حتى دخل مرقص إلى تلك المعادلة الحوارية.. فتشكلت المعادلة السلفية بشقيها الإسلامي والمسيحي متمثلة في عقليتي عيد وعياد المتقاربين في اللقب والمتطابقين في المنهج من ناحية وبين الليبرالية في الفكر والبرجماتية في الحلول كما يراها نامق من ناحية أخرى.

شامل علم الدين.. رئيس قسم التوريدات في واحد من أكبر مصانع الخيوط وهو أحد المصانع التي تقوم بتوريد الخيوط إلى مصنع شاهين ورغم منصبه المحترم ودخله المادي المرتفع فإن شامل عانى من شعور دائم احتل صدره وأورثه مرارة لم تستطع جُل سنوات عمره أن تمحوها أو تخففها.. ذلك الشعور بأنه ليس أكثر من مجرد أجير...

فهو سليل إحدى أكبر الأسر الإقطاعية في مصر.. أسرته فيما مضى كانت تمتلك أراضي زراعية شاسعة.. أجداده جميعًا من طرفي الأب والأم من باشوات العهد الملكي، من نفس سلسال الجد الأقدم لنامق مع اختلاف الأسر نظرًا لامتداد الزمان.. وتغير الزمن لكن مالم يتغير هو ذلك الإحساس المرير بجَور الزمان ودوران الأيام ولا يزال سكنه شاهدًا على تلك المكانة التي أطاحت بها الأقدار وهوت بها النوازل وقبح السياسة وأفاعيل الثورات.. صحيح أنه وبحكم سنه لم يعش تلك المرحلة ولكن ما رواه له والداه عن أصولهم الثرية ومكانتهم الأرستقراطية وأملاكهم المنهوبة بسبب التأميم جعله مشبعًا بروح الغبن، آسفًا على ما آلت إليه أحوال أحفاد أولاد الأصول على حد التعبير الشهير بكل ما كانوا يحملونه من صفات وملامح تلك الفترة، ولذا كان شامل ينجذب دومًا إلى من تحمل تلك الملامح، وكما انجذب إلى إنزا يومًا انجذب إلى رضوى لنفس السبب، وكأنه يملك القدرة على أن يَشتَمَّ الشذى الكامن في النفوس، ذاك الشذا غير المرئي إلا لذوي الأعين المبصرة لمطمور الكُنه والكيان، ومنه يستشعر الروح التي تحملها في طياتها.. روح الرقي، الرقي الذي روى له

آباؤه عن مكانتهم في أيامه التي ولَّت، جسَّد حاله قول الشاعر:

وريحُ يوسف لا تأتي نسائمها إلا لقلـبٍ كان هـواه يعقوبا[1]

استشعر شامل في رضوى المعادل الحاضر لهوانم الماضي عندما رآها بعد أن صارت عونًا لأبيها في العمل حيث قد مرت سنوات طوال على آخر مرة صادف أن رآها فيها في معية والدتها عفاف والتي سببت علاقة النسب بينهما في جمعهما في إحدى المناسبات الاجتماعية، شعر وكأنها شخصية خرجت من إحدى الصور الفوتوغرافية التي يحتفظ بها كسجل لأسرته الأرستقراطية، أسلوبها... ملابسها.. طريقتها في الحديث، مما زاد من تجذير تلك المشاعر داخله، ورغم أنها على مشارف الثلاثين وكثرة خُطابها وإلحاح أبيها ولهفة أمها فإنها كانت ترفض الزواج بسبب خوفها الشديد من التجربة.. أن يقتحمها أحد مخترقًا قدس حرمها... حتى تعرفت على شامل من خلال العمل، تعلقت به ولقيت تلك العلاقة في بدايتها هوًى لديها، وجدت فيه بعضًا من صفاتٍ تبحث عنها، كان أهمها الجدية والحضور والأصل الرفيع، وشخصيته التي كانت أبعد ما تكون عن التفاهه والسطحية والتي تذكرها بشخصية أبيها المتزنة.

أحبته رضوى حبًّا حقيقيًّا صادقًا.. كانا متوافقين تمامًا... لازم رضوى شعور عجيب بأنها أكبر من سنها الحقيقي على عكس المعتاد في نفسية البنات، طريقة تفكيرها، وملابسها المتحفظة، أسلوب حديثها وتعاطيها

(1) البيت للشاعر إبراهيم حمدان.

مع الأزمات في العمل حيث لم يكن لها حياة موازية أو اهتمامات أخرى تذكر، حتى في مرحلة المراهقة التي تمر بها كل فتاة لم تؤثر في سلوكياتها آنذاك، ذائبة في ذاتها.. لدرجة أنها تحب أشياءها، تحب ملابسها وتختارها بعناية، تحب حجرتها، تحب كل ما يخصها وإن كان جمادًا، فالتقيا على نفس الموجة وجرت كيمياء التفاعل بينهما تلقائيًّا... هو الباحث عن الذات وعن النموذج الذي يبعث الروح في ماضٍ يعيش في حشاياه، وهي الناضجة والتي من العسير أن تجد شخصية تماثلها إلا ولا بد أن يكون إما أكبر سنًّا وإما أن يكون له نفس التكوين العقلي ومن نفس عمرها، وهي مسألة تكاد تكون في حكم المُحال بسبب استفحال الضحالة والتفاهة في كل من تراهم حولها، أو ربما لم تكن كل هذه الأسباب هي الدافع الحقيقي لنشوء تلك العلاقة ولكن هو الحب الذي لا يعرف المعايير... فلا عقل ولامنطق... إنه اللاسبب، اللهم إلا أرواح الفصائل التي لاقت أترابها في سديم المشاعر.

وكالعادة أطلَّت العقبات برأسها، فارق السن من ناحية والفارق الاقتصادي من ناحية أخرى، أما العقبة الكبرى والحقيقية فهو أن شامل متزوج ولديه أولاد... المانع المعتاد الذي ملَّت من تكراره الأسماع.. قامت والدته بتزويجه بعدما تقدَّم به العمر وهو مُضربٌ عن الزواج، كشكل من أشكال الاعتراض أو ربما التمرد على الوضع، وأولاده لا يزالون صغارًا قياسًا إلى عمره، نظرًا لزواجه المتأخر.

ظل يعاني من إحساسه بأنه لم يأخذ نصيبه من الحياة ولا يتبوأ المكانة

التي يستحقها بحكم أصوله وتعليمه وأيضًا شخصيته الكارزمية.. ولكن رأينا في أنفسنا شيء ورأي الحياة فينا شيء.. فمهما كانت للإنسان من شخصية قيادية فلا ترجمة حقيقية لهذه القيادة إلا بوقوعه موقع القائد، أن يمارس حرية القرار وهو لم يكن كذلك، لم يكن يشعر بأنه حر.. بل عبد، عبد بالأجرة وليس بالسخرة.

فكانت علاقة محكوم عليها منذ البداية بالفشل الذريع... ليس فقط من جانب شاهين الذي رفض الأمر برمته رفضًا له سبب يعشعش في ذاكرته، بل ومن طرف رضوى أيضًا والتي استطاعت بعد جهد جهيد أن تتغلب على رغبتها ومشاعرها تجاه شامل، لذا لم تُعَمر علاقتهما طويلًا، من تقارب أعقبه إعجاب، ثم انفصال لرابطة شاءت لها الأقدار ألا تستمر.

لم يكن الشطرنج بالنسبة إلى نامق مجرد لعبة يقتلُ بها وقتًا بل غذاء لروح وريٍّ لنفس... كثيرًا ما انتبه إلى أن عيوبه في الحياة هي نفس عيوبه في اللعب... حتى أمسى بالنسبة له لعبة كاشفة عن عوار التفكير وسوء التصرف، أحب الشطرنج حبًّا جمًّا، يرى الرقعة وكأنها رقعة الحياة وليست فقط رقعة اللعب...

وكما هو معروف... الأبيض يلعب أولًا... هو الذي يُبادر... يُراعي الأبيض قوانين اللعبة ولا يخالفها أبدًا، يبدأ البداية المعتادة، النمطية كما يراها النمطيون، البداية التي تخضع لمعايير البداية، حركة بسيطة لواحد من الثمانية بيادق المُصطفين احترامًا للمنظومة، الآخر أيضًا يصطف بنظام

ولكن ليس احترامًا للمنظومة ولكن لأن هذا ما وجد عليه أباءه وأجداده، لذا عليه أن يصطف كما كان الآباء والأجداد يفعلون.

الأبيض يتحرك بقوانين "المنظومة" والآخر يتحرك بقوانين "الموروثة".

أحب نامق التباري.. كان يكره أن يسميها لعبة ولكنه لم يجد لها وصفًا آخر فهي في نظره أعظم من أن توصف بأنها لعبة.. يكفي أن من أدبياتها ألا يوصف الطرف المقابل في اللعب بأنه خصم فلا خصومة في الشطرنج ولكنه يوصف بالرسيل... أى الذي يُراسل الأفكار... راقية حتى في الخصومة فاستحقت عن جدارة أن تُلقب بلعبة الملوك... بحث كثيرًا عن تاريخ نشأتها فوجد أن عليه خلافًا شديدًا لم يقطعه أحد بالخبر اليقين... فمنهم من يقول بدأت في الهند ومنهم من يقول إنها بدأت في فارس والبعض يقول في الصين، أما نامق فكان يرى أنه ليس من المهم أين بدأت ولا متى نشأت ولكن المهم أنها وصلت.

قال القُدامى فيها أشعارًا:

إن شئت أن تدري الزمان وأهله فتأمل الشطرنج يحكيك الورى[1].

ولها من المحُدثين نصيب[2]:

(1) البيت للشاعر أحمد بن حجلة.

(2) الأبيات منسوبة إلى الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي (المرجع.. موقع ديوان.. جريدة الأهرام). المؤلف: ولم يكن يدور في خلد إبراهيم ناجي حين كتب هذه الأبيات ما سوف يحدث لِمَلك فاروق، بل إنه زاد من الشعر بيتًا حين قال في قصيدة أخرى عنوانها المهرجان.. "مصر شطرنج وفيها الشاه فاروق العظيم... انظر الأجناد تمشي تتبع الركب الفخيم" قالها احتفاء بزواج فاروق وفريدة في 20 يناير 1938.

تعال الساحة الكبرى وقل لي ألست ترى جيوشًا في البطاح
كتائب كم يحار الطرف فيها ويحسبها عواصف كالرياح
وذا "فاروق" ظللنا لواء وليس حمى الملوك بمستباح

وأجلَّها رجال العقل وقبَّحها رجال النقل...

ما هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون؟

هذا هو رأيهم فيها... رأي أهل الاتباع... أهل تبجيل ما كان... فالمهم أنه كان... طالما أنه كان فهو الأمان..... والأعظم دائمًا _في دينهم_ هو ما كان..

كرهوها لأن فيها السؤال.. وهم يقدسون الإجابة.

كرهوها لأن فيها الفكر وهم يبغضون الفكر.

كرهوها لأنها تخضع للقوانين لا للعرف، لا خداع فيها ولا تورية، لا خِفية فيها ولا مواربة بل اعتراف... تطهر...

كرهوها مثلما كرهوا الفلسفة... الشطرنج فلسفة.. الترجمة الفعلية لدواخل العقل وصلاح الرأي أو فساده.

كرهوها لأنها لعبة بيان لا خِفيان.. الحركة مشهودة والنية معلنة.. ما تنويه هو ما تفعله.. الفعل يشي عن النية.. والرؤية تتحول إلى واقع في موقع... الحركة ترجمة القصد.. وإن فعلت فلا تراجع.

هي لا تعرف التبرير.. ولا التحجج... لا تخضع إلا للمعايير العملية لنتيجة كل خطوة... إما أن تأكل أو تؤكل.. النقلة لا النقل هي من تثري أو تذري...

ليس المعيار الخانة المتروكة بل الخانة المستهدفة.. ما أسهل أن تترك... ولكن لن تحصد إلا إذا استهدفت موقعًا يتيح لك أن تنتقل إلى آخر لتصير أكثر قوة.. فالقوة تؤدي إلى القَدر.. والقدرة تُفضي إلى المقدرة..

القوة هي أصدق المعايير وأفعلها...

كان نامق يرى أن أعظم ما فيها هو أن أحداثها مرصودة منذ البداية، موَّثقة منذ الحركة الأولى.. لا أحد يكذب في تاريخ حركاته أو يتعذر بإكراه أو إجبار لما آل إليه نتيجة لتصرفاته وقرارته.. لا ظلم فيها.. لا أحد يُكره أحدًا على أن يأتي بحركة ما، وإن وقع إكراه فهو لم ينتج إلا نتيجة تردي صاحبها إلى درك الاستسهال ومنه إلى الخنوع قبل الخضوع اختيارًا... نتيجة لا سبب.. النقلات سبب لك ونتيجة عليك، إما مغنم وإما مغرم.

ومن هناك أيضًا كانت مكروهة.. رفضتها الكنيسة حتى أن أحدهم أبدع رقعة مطوية حتى يأمن حاملها وتبدو لمن يراها وكأنها كتابان متجاوران...

كلهم متشابهون في كل زمان... عيد مثل عيَّاد.. لا فرق.

جلس نامق إلى الرقعة رسيلًا أمام شامل..

خسر نامق المبارة... لا يهم... المهم أنه لم ينسحب..

نظر شامل إلى نامق وقال:

ـ عامل إيه في الشغل؟

رد نامق وهو يعرف أن شامل سوف يستنتج:

ـ زيك بالضبط مع الفارق.

ابتسم شامل لمرام نامق وأجابه:

ـ قبول لا تأقلم.

رشف نامق آخر رشفة من قهوته التي لا يشربها إلا في فنجان.. فالقهوة في نظره لا تفقد مذاقها بل تفقد معناها إن لم تستقر بين حنايا فنجان... ويا حبذا إن كان من الخزف فالزجاج أدنى كثيرًا من أن يحتضن القهوة، إن للقهوة قداسة.

وقال نامق:

ـ أنا مش بس فاهم، أنا متفهم أزمتك يا صديقي.

ردَّ شامل:

ـ إنت كمان كان عندك أزمة لكنك قدرت تتغلب عليها.

نامق بعد زفير هادئ:

ـ مش بسهولة... أخدت وقت كتير علشان أقدر أقنع نفسي إن مفيش ترزي للحياة.. ومفيش حياة على المقاس وإن وجدت ففي الغالب بتكون في نهاية العمر.. بعد دفع الثمن.

شامل مكررًا مقولة نامق:

ـ الله لم يخلق المجانية.

نامق مُوقعًا على صدق نسبة الجملة إليه:

ـ الله لم يخلق المجانية..

وأكمل شامل كلامه:

ـ الأزمة في الضغوط الشديدة.. أنا حاسس إني مش في مكاني... على فكرة هُمَّه مش سيئين.

نامق متممًا المعنى:

ـ همّه مختلفين.

شامل بضيق لم يستطع مداراته:

ـ بالضبط.. فصيلة غير الفصيلة.. أنا إللي غريب.. رغم المكانة والأمان

الوظيفي والمادي لكن البوصلة الداخلية... إمممم.

نامق محاولًا التخفيف عنه:

ـ صعب فعلًا إن الإنسان يكون جسدًا في مكان ونسقًا في المكان الآخر المختلف والمتضاد مع مكانه الجغرافي.

ابتسم شامل وأكمل نامق:

ـ تكوينك أقوى من تفكيرك يا صديقي.. علشان كده وصلت لمرحلة إمممم، الأرستقراطية في تكوينك أقوى من البرجماتية في تفكيرك.. إنت مش قادر تهرب من إحساسك بالرفعة في وَسَط وضيع.

شامل مؤكدًا:

ـ الوضاعة مش مجرد إحساس.. ده وصف حال.. تقرير واقع.. الوضاعة في الألفاظ وفي التصرفات والاختلاف، وضاعة في التفكير وفي الأهداف... وضاعة تقطر بالتناقض والغباء وكل معاني النفاق... أقولّك على حادثة حقيقية.. حدثت بالفعل.. أنا عايشتها بنفسي بحكم عملي..

لم يُجب نامق ولكن أرسل تعبيرًا بوجهه يوحي بالإنصات وليس فقط الاستماع.

ـ إنت عارف طبعًا إني باشتغل مدير التوريدات في مصنع للخيوط.. وبحكم طبيعة المنتج المصنع بيتعامل مع مختلف مصانع الملابس الجاهزة،

ومن غير الدخول في تفاصيل لا لزوم لها استدعت ظروف المتابعة تواجدي في أحد المصانع المتخصصة في صناعة ملابس البحر.

اضطر نامق هنا للمقاطعة:

ـ ماتقول المايوهات.. هُوَّه عيب يعني!

شامل بلهجة احترام لملاحظة نامق البديهية:

ـ تصوّر.. إللي بيشتغلوا في المصنع ده ياريت كانوا بيقولوا زي إنت ماقُلت كده واقتصروا الوصف عند حد تعبيرك.. عيب..

نامق مستفهمًا:

ـ بيقولوا إيه؟

شامل بازدراء:

ـ صاحب المصنع قال لي إنه أحيانًا بيسمعهم وهُمه بيقولوا لبعض إن الشغل في مصنع المايوهات حرام.

نامق متعجبًا:

ـ وليه بيشتغلوها؟

شامل ضاحكًا:

ـ ما هُوَّه ده إللي حيجنن صاحب المصنع.. يقولوا حرام وطول اليوم

يدعوا إن المصنع يستمر. في مرة من المرات واحد من إللي بيشتغل معاهم هَب فيهم:

ـ إللي شايف إن الشغل هنا حرام.. بسيطة يروح يشتغل شغلانة تانية.

رد عليه واحد منهم:

إنت يعني شايف الشغل مقطع بعضه في البلد.

وعقبت موظفة من الإداريين من تلك النوعية التي لا تفارق سماعة التليفون أذنها طوال اليوم:

ـ حنشتغل إيه؟

وأردفت أخرى وهي تضع في فمها حبة من حبات هرم اللب الموجود على سطح مكتبها بصفة دائمة تحت سمع وبصر صاحب المصنع الذي استسلم لهذه السلوكيات معلنًا يأسه من إصلاح الحال:

ـ نروح فين يعني؟

بشيء من الفضول:

ـ وزميلهم إللي هب فيهم ده قال لهم إيه؟

ـ قال لهم.. المبدأ معروف: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك... إللي شايف

إن الشغل في مصنع المايوهات حرام أو حتى فيه شبهة تحريم... بسيطة.. يروح يلمَّع أحذية مثلًا.. شغلانة شريفة وحلال، وإللي شايفة إن الشغل في المصنع حرام تروح تخدم في البيوت ولَّا حتى تمسح السلالم في العمارات وآهي برضه شغلانة شريفة وحلال.

مستنتجًا:

ـ وطبعًا لا هو حيعمل كده ولا هِيه حتعمل كده.

شامل معقبًا:

واحدة منهن قررت إنها تترك العمل الحرام وذهبت بالفعل للعمل في مصنع آخر.. ملابس أطفال، أسبوع والتاني ورجعت مرة أخرى للحرام.

نامق مستفهمًا:

والسبب؟

شامل مُجيبًا:

ـ مواعيد العمل.. العمل في الحرام من الثامنة صباحًا وحتى الخامسة مساءً.. لكن العمل في الحلال من التاسعة صباحًا حتى التاسعة مساءً..

شامل مؤكدًا حديثه بإشارة من السبابة توحي بالعدد واحد:

ـ وِدَه مجرد نموذج في مكان واحد... ومشكلة إللي زينا إننا لا ننتمي ولا ننتسب للنموذج المتسيد، لكن لازم نقبله.

نامق مُصححًا:

ـ نقبل فقط.. لا نندمج.. نُسلِّم أحيانًا ولا نستسلم أبدًا...

مبتسمًا:

ـ تعرف يا نامق أحيانًا بأشعر إن بقاءك على قيد الحياة.. فقط مجرد بقاءك على قيد الحياة في حد ذاته معجزة.

نامق مؤكدًا:

ـ أنا أيضًا أعتقد هذا...

عرف نامق الطريق إلى مقهى البستان وأمسى يذهب إليه وحده بعدما ظل لفترة لا يذهب إليه إلا بصحبة صديقه وكأنه كان يأتنس به من إحساس بالغربة من ذاك المكان قبل أن يألفه، بعدما أحس بروح التنوع فيه، الروح التي غزلها حب المعرفة والاطلاع على شتى الثقافات رفضًا وقبولًا، فصار من رواد المقهى الذي يزخر بمختلف أطياف الفيض السياسي والفكري في الشارع المصري، زرافات ووحدانًا، أشخاص يأتون وآخرون يرحلون وهو يعج بالحركة وبخاصة في الفترة المسائية، ليس بالضروة أن تعرف أحدًا معرفة مسبقة لكي تحادثه.. في هذا المقهى الكُل يعرف الكل لا بالاسم ولكن بالمكان، المكان إذن المعرفة، من يأتي إلى البستان يدخل ومعه صك معرفة لكل من هو موجود فيه، إنه عالم الجزء والكل في آن.

وكان النقاش...

عماد سعدان:

ـ أحب أعرفكم بفريد حسن.. إحنا بناديه باسم فري.. فنان جرافيك.. الجرافيك حيكون له دور كبير في المرحلة إللي جاية.

رانيا: للأسف أنا مش باعرف أرسم نهائي.

نامق: ليه إنتِ ممكن ترسمي أي رسم وأكيد حتلاقي إللي يطنطن ويحط لك فيها ألف معنى.. منظومة الفن التشكيلي دلوقتي تسمح بأي شيء.

نظر عماد إلى نامق شذرًا.. وفي نبرة ضيق لا تخطئها الأذن ردَّ قائلًا:

ـ الفن حرية.. انطلاق.. أي حد من حقه يرسم إللي هو حاسس بيه بأي طريقة وأيًّا كانت النتيجة.

نامق: لكن من حق المتلقي كمان إنه يرفض، ويتعالى عن الاستسهال، الغريب إن كثيرًا من التشكيليين على وجه التحديد يتعالون على حس الجمهور رغم أن فيهم نفس الداء الجماهيرى المعروف.. الميل الدائم للأسهل.. الحل السهل.. الفن السهل.. التفسير السهل وأخيرًا الإبداع السهل.

فري مستفهمًا:

ـ تقصد إيه بالإبداع السهل؟

نامق مُفسرًا:

ـ تقدر تقوللي وإنت في قلب الحركة الفنية بكل أطيافها.. كام فنان على سبيل المثال يقدر يرسم بورتريه لوجه بشري، مرة بملامح حزن أو اكتئاب ونفس الوجه بملامح فرح أو سعادة؟

كام فنان يقدر يرسم لوحة.. نفس اللوحة ويتخيلها وهِيه موضوعة بجانب نافذة ويرسمها بدرجات لونية منضبطة تجسد اختلاف سقوط ضوء الشمس عليها على مدار اليوم؟

كام فنان يقدر يرسم درجات لون السحاب على مدار العام؟

فريد في ثقة:

ـ كثير ممكن يعملوا ده.

نامق مُعارضًا:

ـ آسف.. لا ليس كثيرًا.. صحيح أنا مش فنان تشكيلي لكن متابع.. متابع لدرجة إني فكرت أرسم.. ولم لا؟ والجماهير تتلقى وتصفق كالعادة.

عماد متحديًا:

ـ من حق الفنان أن يرسم بلا قيود أي شيء يشعر به.

نامق: مش حنختلف في النقطة دي.. لكن كمان من حق المُتلقي إنه يرفض التفاهة والسطحية والمتطفلين.

عقَّبَ فريد محاولًا ترطيب النقاش:

ـ السؤال من هم المتطفلون؟

نامق: الذين يحاولون تخطي المعايير، المعايير هي المقياس، وكأن المطلوب هو تحطيم المعايير ذاتها، ترسيخًا لهدف أبعد... بمعنى نفي فكرة المعايير عن الأذهان، حينها حتكون العقول والنفوس مُهيأة لقبول أي أفكار أو أيديولوجيات تحت أى تفسير ملفق، بالضبط زي تفسيرات معاني اللوحات المبهمة.

فري بعصبية: أي معايير؟ المدارس الفنية كتيرة ومعاييرها مختلفة.. حتى المعايير نفسها غير موحدة.

رانيا: إنت تقصد بالمعايير المعنى إللي في اللوحة؟

نامق: ده أضعف الإيمان... وغالبًا بيكون غير موجود في كثير من لوحات الفن المعاصر.

رفع فري يده في مرح مقلدًا تلاميذ المدارس:

ـ ممكن مثال يا أتتاذ (أستاذ).

نامق شارحًا وجهة نظره:

ـ فريدا كاهلو على سبيل المثال.. البعض يعتبرها فنانة عظيمة، بالنسبة لي تمثل كل معاني القبح.

رد عماد: مشكلتك هِيه المعايير.. عقليتك أسيرة للمعايير من يومك.

قالها بطريقة لا شعورية وكأنه يسترجع ذكرى قديمة بينه وبين نامق.

نامق: الواقع التشكيلي فتح الباب للمتطفلين والمدَّعين لا للمبدعين... أمتلك الشجاعة أن أقول: المجد للوحة طبق الفاكهة.. أشهر لوحة رأتها العيون، معيار ومعنى وفن... لا يقوى على رسمها العشرات من أدعياء التصوير الحاليين..

وإذا بصوت رخيم يفيض عذوبة ورِقة يتدخل فجأة في الحديث متسائلًا:

ـ فلتكن دواخل الفنان هي المعيار فيما تخطه الفرشاة.

رفع نامق بصره ووقع على صاحبة الصوت الرخيم، إنها منار، فتاة في أواسط العشرينيات، فنانة تشكيلية صقلت موهبتها بالدراسة في كلية الفنون الجميلة وتخرجت فيها، يسارية، تعمل بالصحافة، تتكلم بثقة، لا يخلو حديثها من نبرة جدية دون تزمت.

نامق مكررًا:

ـ افتقاد المعايير فتح الباب للمدَّعين والمتطفلين.

منار: لكن فريدا كاهلو فنانة نادرة.

أحدهم: مؤكد كاهلو أعظم فنانة أنجبتها المكسيك.

نامق بحدة:

ـ فريدة كاهلوا كفنانة قبيحة ولوحاتها مثلها تشع قبحًا[1].

نظرت منار إلى نامق في ضيق قائلة:

ـ إنت حر في رأيك.

نامق بتبسم:

ـ أنا مش عايز أظهر بمظهر: خالف تُعرف، ولكن الواقع التشكيلي بالفعل يحتاج إلى طرح فكرة المعايير.

أحدهم مُستنكرًا: أي معايير! الفن حرية مطلقة.

نامق: دي الفوضى نفسها ليست حرية مطلقة...

منار: للمرة الثانية تقصد إيه بالمعايير؟

نامق: الواقع التشكيلي بيعاني من نفس الأزمة إللي بيعاني منها الشعر والأغنية والرواية وكل ضروب الإبداع... يعاني من المتطفلين.. لأن المانع لوجودهم هي المعايير.. مفيش معايير.

منار بعصبية:

(1) استنانًا بالمعيار الشهير الذي يقول: بضدها تتمايز الأشياء.. يمكننا في هذا المقام أن نعتبر أن نموذج الضد لفريدا كاهلو هي الفنانة الأمريكية جورجيا أوكيف الملقبة بكاهنة الصحراء.. وهي تُعد رائدة الحداثة في الفن الأمريكي.. ومن أشهر لوحاتها أزهار الداتورا، والمفارقة أن جورجيا أوكيف كانت تقيم في ولاية نيومكسيكو، وتوفيت في عام 1986.

ـ يعني إيه معايير؟ ومين إللي من حقه يصوغ أي معيار ويعطي له تعريف إنه معيار أو صفة المعيارية؟ وعلى فكرة الدكتور نصر حامد أبو زيد له رأي شهير في الموضوع مفاده إن هناك دائمًا علاقة توتر بين المعياري والفني على كل المستويات، ومحاكمة الفن على أساس المعيار سواء كان المعيار لغويًّا أو أخلاقيًّا أو فلسفيًّا أو دينيًّا، هو خلط ضار بالفن.

ردَّ نامق بثقة:

ـ المرام (المعيار) بالنسبة لي هو هدف العمل... معناه، ملامحه العامة، أي شخص يرسم أي شيء ويلاقي إللي يطنطن ويفلسف ويبرر تهريجه.. مثل التافه بيكاسو.

منار في ذهول:

ـ بيكاسو تافه!

نامق: طبعًا... لا معنى للوحاته.. بيكاسو لم يرسم إلا لوحة واحدة هي جورنيكا.. اللوحة الوحيدة إللي لها معنى أما باقي أعماله تفاهات في تفاهات.

ردّ أحدهم: بيكاسو لا يرسم للدجاج.[1]

(1) الإشارة هنا لإجابة بابلو بيكاسو عندما قال له أحدهم: أظن أنك لا تُتقن من فن الرسم سوى هذه الخطوط والخربشات المتداخلة. فتناول بيكاسو ريشته وقام برسم حبة قمح صغيرة.. وكان الرسم متقنًا إلى درجة أن إحدى الدجاجات تقدمت محاولة التقاطها.. عندها انبهر الرجل وقال لبيكاسو: لماذا إذن تصر على هذه الرسوم العجيبة وأنت تتقن الرسم بهذه الطريقة الرائعة؟ فأجابه بيكاسو بهدوء: لأنني لا أرسم للدجاج.

عقَّب نامق بثقة: رد بيكاسو المهاري لا يغير رأيي فيه.

لقي رأي نامق بعض التأييد من وجوب توافر المعايير كحائط صد ضد المتطفلين وبين مجموعة أخرى رأت في وجهة النظر هذه ارتدادًا للخلف.

فأكمل نامق واثقًا:

ـ الناس بدأت ترجع للطبيعي، للنمطي والدليل عودة الفرق الغنائية ونجاحها الشديد، مفيش أحسن من الطبيعي، مهما بلغ من جودة المُصطنع إلا أنه في النهاية مصطنع، زي بالضبط الدمية إللي بتتباع في بعض البلاد من أجل ممارسة الجنس، أقبح امرأة طبيعية في العالم من المؤكد أنها تحقق الإشباع الحسي أفضل من أجمل دمية جلد مصنعة.

منار متجاهلة التشبيه الفج الذي تفوه به نامق:

ـ لكن الفرق الموسيقية إللي إنت ضربت بيها المثل دي مش بتغني أغاني نمطية ولا ألحانها ألحان نمطية وحتى ملابسهم لا تنتمي للملابس المعتادة على الإطلاق.

رد أحدهم ممن يؤيد نامق في وجهة نظره:

ـ الغرض من المثل هو البرهنة على أن الناس بدأت تحن للحي.

نامق: بالضبط، كل شيء حاليًّا متوفر..

Mp3 يوتيوب.. وعلى كل موبايل، ليه الحفلات الحية بتكون ممتلئة؟

إحداهن مستوعبة:

ـ الروح...

آخر: التفاعل البشري.

نامق: الروح هي المعيار.. المعنى الكامن والهدف البيِّن.. أسهل شيء في أي شيء هو الغموض.. الغموض سهل، الوضوح صعب، انطلق نامق في الحديث مؤكدًا إن الراصد لحالة الإبداع في عمومها يلاحظ أن هناك أزمة تلقي موازيه تمامًا لأزمة الإبداع والمسئولية في أزمة الإبداع والتلقي تقع على عاتق المبدعين أنفسهم، عملية الإبداع تنتابها حالة عجيبة من الاستسهال لدرجة أن المبدع تحول من حالة الحديث مع الآخر أو إلى الآخر أوعن الذات، تحول إلى حالة الحديث إلى الذات، والبون شاسع من أن تكون العملية الإبداعية موجهة إلى ذات المبدع بدلًا من أن تكون موجهة إلى الآخر المفارق للذات.

عضد نامق أحدهم وقد استعذب رأيه فناصره قائلًا:

ـ مثلما حدث في الشعر الذي وصل به الحال إن البيت فيه أصبح مجرد كلمة ولما المتلقي يحاول تتبع أفكار القصيدة يصطدم بحركة انتقالات لفظية تؤثر على الأفكار مما يستحيل تتبع وحدة القصيدة ومرامها.

وأكمل نامق حديث معضده:

ـ والحال مُشـابه في مجال الفن التشـكيلي والتصوير الزيتي على سبيل المثال، لوحة عبارة عن مجموعة من النقاط بعضها بجانب البعض؟ لوحة أخرى ما هي إلا خطوط طولية وعرضية!

قاطعته منار:

ـ الغموض مثير... والإبهام إيهام.

رد نامق بهدوء شديد:

ـ الإبداع ليس معناه الغموض والاستغراق في النرجسية المفرطة، ليس معناه أن يحول المبدع مادته الإبداعية إلى سوط مسلط على ظهور المتلقين وعليهم أن يحتملوه، المنُتج الإبداعي إن لم يخرج معناه من ذاتِ المبدع إلى كيان المتلقي تبيانًا فقد فَقَدَ عندئذ معنى وجوده.

انصرفت منار وهي على قناعة تامة أنها كانت تتحدث مع شخص يمثل كل معايير النمطية، وانصرف هو إلى مكتبته العتيقة.. باحثًا عن كل ما يمكن الاطلاع عليه فيما يخص اليسار المصري فرغم الخلاف الذي وقع بينه وبين منار فإنها وقعت في نفسه وحركت داخله شيئًا ارتاح له رغم أنه لم يفهم كيف يمكن للفتى ذي الميول الملكية أن يميل لفتاة يسارية كما عرَّفت هي نفسها!

بطبيعة الحال لم يكن نامق مجتث الصلة عن معرفة شيء من تاريخ اليسار ولكنه أحسَّ أنه يحتاج إلى قراءة منهجية منظمة ومبسطة رغم ملحمية الموضوع

ولكن هذه المرة ليس بسبب حبه للمعرفة والاطلاع ولكن بسبب شغفه بذات الوجه البهي والصوت الشجي والتي راقت له بنجاحها في اختراق جدران نفسه ذات البأس. كان يعلم مدى عُسرة البحث في هذا الموضوع، فتتبُع تاريخ اليسار المصري محفوف بالمصاعب لأن اليسار وبحكم تكوينه كثقافة مضادة للثقافة الشعبية من جهة وللثقافة الرسمية من جهة أخرى أضفى على تاريخه وعلى تطوره غموضًا، صحيح أن في تاريخه جزءًا معلنًا وموثقًا ولكن هناك جزءًا آخر سريًّا خفيًّا، والمشكلة أن الجانب السري لا تتوفر حوله المعلومات الكافية، وحتى الجزء الظاهر والمعلن منه ليس موثقًا بالقدر الكافي.

مسح نظارته الطبية ثم جلس بعد أن انتقى من مكتبته عدة مصادر تتحدث عن تاريخ حركة اليسار المصري وبدأ نامق القراءة:

* كان الطلاب المصريون الموفدون للدراسة في أوروبا هم من بدءوا نشر الأفكار الاشتراكية إثر عودتهم في بداية العقد الأول من القرن العشرين، إلا أن العمل الأول للفكر الماركسي في مصر والمنشور في عام 1915، كتبه باحث شاب لم يُتح له السفر إلى أوروبا قط، وهو مصطفى حسين المنصوري، لكنه كان على اتصال بفكر ماركس من خلال الترجمات الأولى والدوائر الثقافية للأجانب المقيمين في مصر، ويظهر من استعراض كتاب المنصوري عن المذاهب الاشتراكية، كيف أثر الجدل الدائر حول مدى اتفاق الفلسفة الاشتراكية مع مبادئ الدين الإسلامي على هذا الباحث الشاب، حيث

ناقش كيف أن الأممية الماركسية لم تتعارض مع حب الوطن ومع عالمية الإسلام، ومن هنا تظهر لنا النزعة التوفيقية لدى الباحث بين الاشتراكية ومبادئ الدين، ولكن بعد بضع سنوات سيُستغل انتقاد الاشتراكية من منطلق ديني كأداة لتقييد نشاط اليسار المصري في دعم حقوق الطبقة العاملة، وذلك بالتحديد في عام 1923 عندما كان الحزب الشيوعي المصري حزبًا وليدًا، وقد نجح آنذاك في أن يلعب دورًا جوهريًّا في المجال العمالي والنقابي في الإسكندرية وصولًا إلى السيطرة على الاتحاد العام للعمال وتنظيم العديد من الإضرابات في هذا العام، حيث استطاع الاتحاد العام للعمال أن يعتمد على 20,000 عضو وهو الأمر الذي أفزع السلطة الاستعمارية البريطانية آنذاك، ما دفعها إلى توزيع نسخ من الفتوى الصادرة في 1919 عن الشيخ محمد بخيت مفتي مصر والتي أعلن فيها تحريم البلشفية أي الشيوعية السوفييتية.

إلا أن انتشار هذا المنشور أدى إلى تأثير معاكس للمتوقع منه، حيث أراد العديد من العمال وبخاصة المصريون أن يتحدثوا للمرة الأولى عن الاشتراكية.

وفي عام 1924 مع وصول سعد زغلول إلى السلطة وتدشين الدستور الذي وضع حدودًا صارمة على الأنشطة السياسية والنقابية، تبنى الحزب الشيوعي المصري فكرة مقاطعة الانتخابات، وشهدت تلك الفترة موجات قوية من الإضرابات العمالية في المدن الكبرى للبلاد والتي طالب فيها العمال

بتقليل ساعات العمل ومطالب أخرى تعتبر تقليدية، إلا أن العلاقة بين سعد زغلول والعمال وصلت إلى التصادم ما دفعه إلى الاستعانة بالقوات البريطانية للتصدي للعمال[1]، وترتب على ذلك بالطبع امتداد تلك الإجراءات القمعية إلى قيادات في الحزب الشيوعي المصري، وازداد وضع الحزب سواء مع الانقلاب الذي حدث في البلاط وأتى بزيور باشا بدلًا من سعد زغلول في نهاية 1924، حيث قامت قوات البوليس بإلقاء القبض على كل أعضاء اللجنة المركزية للحزب في 30 مايو 1925، وتم إعلان الحزب الشيوعي المصري حزبًا غير شرعي.

إلا أن اليسار المصري عاد إلى النشاط بشكل قوي في الأربعينيات، حيث تكونت آنذاك ثلاثة حركات ماركسية لها أسماء شهيرة في التاريخ المصري، وهي الحركة المصرية للتحرر الوطني "حمتو" وتحولت بعد ذلك إلى "حدتو" وشقيقتها الحركة السودانية للتحرر الوطني "حستو"، والشرارة "إيسكرا" وتحرير الشعب.

ومع قيام ثورة يوليو، رحبت أغلبية المثقفين بأنباء التغيير الثوري،

(1) رغم الدور غير المنكور الذي لعبه سعد باشا زغلول وحزب الوفد في حركة الاستقلال الوطني فإن هذا لم يمنع سعد زغلول أن يتصرف مثل أي رئيس حكومة في قيامه بالتصدي لأي حركة اضطرابات داخلية، هذا غير أن شقيقه الأصغر فتحي زغلول كان عضوًا في هيئة محكمة دنشواي الشهيرة.
المؤلف: المقولة المنسوبة إلى سعد زغلول "مفيش فايدة" ربما تكون مجتزأة من سياقها.. فربما يكون قد قال مثلًا: "مفيش فايدة من التفاوض مع الإنجليز"، فتم التعامل مع المقولة على طريقة ولا تقربوا الصلاة... ربما.

وكانت بعض قوى اليسار على علم بانقلاب ضباط يوليو قبل حدوثه، حيث أن بعض الضباط القريبين من المواقع اليسارية مثل يوسف صديق وخالد محيي الدين قد انضموا في الوقت نفسه إلى "حدتو" وأبلغوا الحركة بالانقلاب قبل عشية حدوثه، إلا أن وجود عناصر يسارية بين الضباط الأحرار لا يعني أن سنوات القمع كانت قد انتهت، حيث جاء الصدام الأول بين جمال عبد الناصر واليسار الماركسي مع قمع النظام لإضراب عمال كفر الدوار وإعدام قائدي الاحتجاج خميس والبقري، كما أن اليسار لم يسلم من موجة اعتقالات عام 1954 الشهيرة، حيث كان الخلاف الرئيسي بين ناصر وقطاع كبير من اليساريين آنذاك قد تركز على رغبة ناصر في دمج كل القوى الوطنية في حزب واحد، وقد صدمت الاعتقالات كافة اتجاهات اليسار المصري واستمرت فترة الاعتقال حتى عام 1964.

في تلك الفترة حاول النظام السياسي دمج قطاع كبير من اليساريين في أجهزة الدولة، فتأسست مجلة "الطليعة" والمفارقة أن عبد الناصر كان هو الذي اختار لها هذا الاسم.

لعبت الطليعة دورًا فكريًّا بارزًا في الحقبة الناصرية، بانفتاح اليسار المصري على العالم وتمت استضافة مفكرين في ثقل جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار.

في فترة السبعينيات ساعد القرار التاريخي لأنور السادات في نوفمبر 1976 بالعودة إلى التعدد الحزبي قطاعًا كبيرًا من اليسار على تأسيس حزب

مستقل عن الدولة، وهو حزب التجمع الذي تأسس عام 1976 وحظي بالاعتراف القانوني سنة 1977، وضم وقتها مجموعة من اليساريين الاشتراكيين، والشيوعيين، والناصريين، والقوميين، وبعض الليبراليين، وكان الشيوعيون أكبر الداعين إلى إنشائه، أو بمعنى آخر التحول من يسار حكومي إلى يسار معارض ولكن سرعان ما وقع تصادم بين الدولة والحزب الوليد مع نشوب الانتفاضة الشعبية في يناير 1977، والتي اعتبرها السادات مؤامرة شيوعية شارك فيها حزب التجمع.

تذكَّر نامق كتابًا كان قد اشتراه من كنوز الباعة المتواجدين على الأرصفة فبحث عنه بين الأرفف حتى وجده، كتابًا عن دراسة للباحث الإيطالي جينارو جيرفازيو، بعنوان: الحركة الماركسية في مصر 1967 – 1981، والتي نال بها الدكتوراه من جامعة نابولي، حيث عاش هذا الباحث في مصر فترة ليست بقصيرة _جميعهم عاشوا فيها وعاشت فيهم ما عدا أهلها، إلا ثلة يعرفون قدرها ويا لندرتهم_ والاطلاع على هذا الكتاب يُعد من حسن حظ نامق حيث أن جينارو في بحثه استطاع أن يتخلص من تلك النزعة الاستشراقية التي تصاحب أعمال كثير من الباحثين الأوروبيين.. والمفارقة أن نامق يعتبر نفسه من أشد أنصار الاستشراق والمستشرقين فهو ربيب لمكتبة أحدهم.

طالع نامق الكتاب مُطعمًا سابق قراءته باستزادة شائقة:

تاريخ اليسار في مصر بكل أطيافه واتجاهاته الفكرية والسياسية هو

جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر السياسي والاجتماعي وليس تاريخًا بديلًا كما يتصور البعض، سواء من داخل اليسار أو خارجه ويؤكد جينارو أن اليسار في مرحلة الأربعينيات واجه مشكلة حينما كان بعض رموزه من الأجانب وبخاصة من اليهود وكان أشهرهم على الإطلاق هنري كورييل، ما جعل بعض الدارسين يعامل اليسار واليساريين وكأنهم دخلاء على الحركة السياسية وليسوا جزءًا أصيلًا منها.

توقف نامق مليًّا عند رصد الباحث الإيطالي لقضية هامة وهي ظاهرة تراجع اليسار المصري في نهاية السبعينيات وتغلغل الاتجاهات الإسلامية في المجتمع، حيث فسر البحث هذا الأمر بانشغال اليسار بالقضية الوطنية، فحينما يكون جزء من البلد تحت الاحتلال فإن ذلك يعني التفات اليسار إلى تلك القضية، وتصبح لها الأولوية، والواقع أن أفكار وكتابات ماركس ولينين كانتا تدعوان إلى النضال الوطني وتحرير الأرض، وفي خضم انشغال اليساريين بهذه القضية اتجه الإسلاميون إلى العمل وسط الجماهير ومحاولة تقديم خدمات لهم مثل العيادات والمستوصفات الشعبية وغيرها، وبعد استعادة سيناء كان موقف اليسار صعبًا فالقضية الوطنية لم تعد قائمة، والوضع الاجتماعي سيطر عليه الإسلاميون وهذا فرض صعوبات كثيرة على التيار اليساري في مصر.

والتقط كتابًا آخر خَلَص فيه كاتبه إلى أن اليسار المصري تقزَّم لعدم رؤيته للقضايا الاجتماعية وانعزاله عن الواقع وتعاليه عن الشعب بمصطلحات

معقدة، هذا غير طريقتهم المتعجرفة في الحوار.. ارتاح نامق لهذا الرأي فقد صادف لديه هوًى من جانبين.. ولائه الأيديولجي الذي ينحو نحو الرأسمالية الوطنية من جهة وترسيخ فكرته عن ضرورة الاتصال بالواقع وعدم الانفصال عنه من جهة أخرى وهذا ما لم يفعله اليسار المصري طبقًا لما قرأه.

بعد أن انتهى نامق من إطلالته السريعة على تاريخ حركة اليسار المصري، إذا بسؤال بديهي يطرح نفسه عنوة:

ما الذي يدعو فتاة في مثل عمر منار إلى اعتناق الفكر اليساري؟ تلك الأيديولوجيا التي نشأت وعاشت وانتهت وهي مفصولة تمامًا عن الواقع ولم يبقَ منها إلا شذرات من كتب بالية أو كوادر بلغت من العمر أرذله بعدما أكل عليها الدهر وشرب؟

فتحت منار باب شقة أسرتها، وما إن خطت خطواتها الأولى نحو الداخل حتى سمعت صوت حديث يدور بين والدتها وأخيها، اللذين توقفا عن استكمال حديثهما بمجرد شعورهما بحضورها.

ـ إيه ما تكملوا كلامكم.

الأم: أخوك معذور يا منار.. الموضوع برضه محرج بالنسبة له.

ـ أنا بأكتب في جريدة يا عصام مش منشورات سرية.

ـ عُمري ما ضغطت عليكي يا منار.. كلامي مع ماما مجرد فضفضة.

ـ على فكرة يا عصام.. صدقني لو قلت لك إني أحيانًا بأتراجع وأصحح عبارات أو ألفاظ بعد ما بأكتبها إكرامًا لخاطرك، أنا بأراعي طبيعة عملك وحساسية وضعك.

ضاحكًا:

ـ إمتى بقى تتجوزي وأرتاح منك.

رافعة كفيها الاثنتين إلى أعلى:

ـ وتقول لهم ماليش دعوة دي ست متجوزة..

مشيرًا لها:

ـ بالضبط وآجي آخدك إنت وجوزك في مأمورية واحدة.

باسمة:

ـ إنت خلاص إفترضت إني حأتجوز مُعارض... لأ ومش أي... ده كمان الداخلية بتجري وراه.

ـ أكيد.. مين ده إللي حيستحمل الخبلان إللي في دماغك.. إوعي تزعلي.

بمرح:

ـ لا يا سيدي مش حأزعل.. ثم تكمل ساخرة:

ـ ده إنت الحكومة فيه حد يزعل من الحكومة برضه.

كانت العلاقة بين عصام ومنار علاقة جميلة يظللها ود واحترام ولم يكن هذا الاحترام من فراغ بل متأصلًا في نفوسهما بمصداقية كاملة، فمن جانبه كان عصام يحترم أفكارها وميولها السياسية ويتفهم سببية تلك الميول... غير أنه قرر عدم الزواج إلا بعد أن تتزوج هي رغم إلحاح والدته عليه ومناشدة منار له بألا يربط موضوع إقدامه على الزواج بزواجها هي أولًا.. ولكنه أصرَّ على هذا الموضوع حيث يعلم أنه بزواجه سوف يتركها للعيش وحدها بعد أن ينتقل إلى الإقامة في بيت الزوجية.. فرفض هذا الطرح رفضًا مبرمًا وأصرَّ على عدم الإقدام على الزواج إلا بعد زواج أخته رغم معرفته بطبيعتها وأسلوب حياتها غير المألوف والذي يزيد صعوبة قبول شخص عادي لأفكارها ونشاطها، أما منار فكانت تشعر بمصداقية أخيها في رغبته بتزويجها أولًا ولولا أنه اشترى شقة بالفعل لزواجه حين يعزم أمره لظَّنت أنه يريدها أن تتزوج هي أولًا حتى يفوز بمسكنهم ويقيم فيه بعد زواجه مع أمهما، كما أنه كثيرًا ما كان يؤكد لهما أنه سوف يصطحب والدته للحياة معه فلن يتركها وحدها أبدًا حتى بعد زواجه حيث أنه بالفعل يرغب في أن يبدأ حياته الزوجية في بيت جديد خاص به وأنه يتمنى ذلك منذ صغره.. ولذلك فإن منار لم تشك مطلقًا في مصداقية نوايا عصام تجاه رغبته في زواجها أولًا حتى يطمئن عليها، ومن جانبها كانت

بدورها تراعي طبيعة عمله وحساسية وضعه كضابط، إنهما أخوان ينتميان لأبوين يُمثلان تلك الطبقة الجميلة التي كانت تُشكل السواد الأعظم من المصريين... الطبقة الوسطى.

الأم سيدة المنزل العادية مثلها مثل أغلبية المصريات، توفي عنها زوجها وترك لها عصام ومنار وهما لا يزالان في الدراسة يرتعان. الابن الذي يحلم بالالتحاق بكلية الشرطة، الحلم الأشهر لكثير من الشباب وقد تحقق بالفعل بعد وساطة أحد كبار المسئولين في البلد الذي زامل والده في العمل عندما كان والده يعمل محاسبًا في مصانع النحاس التي كانت واحدة من أعظم صروح الصناعة المصرية، استطاع هذا المسئول أن يتأقلم سريعًا مع المتغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت وهو ما لم يستطع والد عصام أن يفعله فرحل عن الحياة كمدًا ورحل زميله إلى منصب أكبر ولكنه ظل محتفظًا بروح طيبة تجاه أغلبية من زاملهم طوال عمله والذي كان والد عصام ومنار واحدًا منهم ومن هنا نشأت ميولها اليسارية حيث أنها كانت ميالة أكثر من أخيها إلى الاستماع لوالدها وهو يحدثها عن الصناعة المصرية، كيف كانت وما آلت إليه، رغم أن والدها نفسه لم يكن يساريًّا ولم ينضم لأي تنظيم يساري أو حزبي طوال عمره ولكنه من أشد المتحمسين لتفعيل الصناعة الوطنية.. حتى جاء يوم عاد فيه والدها إلى المنزل مهمومًا محسورًا بسبب ما نما إليه من أخبار مؤكدة عن قرب خصخصة هذا الصرح العظيم وبأبخس الأثمان، أدت إلى اصطدامه مع بعض النقابيين الفاسدين وعلى رأسهم نقيب

العمال المداهن الذي كثيرًا ما كال المديح نفاقًا إلى رئيس الدولة الذي يتبنى هذه السياسية رغم أنه من المفترض أن يكون مناهضًا لها وما هي إلا أيام حتى رحل الأب عن الحياة، تاركًا ابنًا حزينًا وابنة غاضبة مشبعة بروح الكراهية لنظام فاسد لم يألُ جهدًا في تدمير الصناعة والزراعة.

وتطورت علاقة منار بالقراءة والاطلاع، وشغفت بأدبيات الفكر اليساري ومصطلحاته وازدادت تبحرًا في فهم أدبياته ومفرداته وكأنها تؤبن أباها، ومما زاد من تعلقها بأفكار اليسار هو تأثرها الشديد بسيرة واحدة من أنقى اليساريات في مصر.. أروى صالح... تلك العنزة الجبلية، قرأت منار سيرتها وبحثت حثيثًا عن كتابها "المبتسرون" حتى عثرت عليه بصعوبة شديدة... أحبتها دون أن تراها وتعاطفت معها وتفهمت لماذا أقدمت أروى على الانتحار مرتين... فشلت في الأولى ونجحت في الثانية، إنها الغربة... غربة الذات مع المجموع.. عاشت أروى حالمة.. صادقة.. بريئة من كل غرض.. ولكنها لم تستطع المقاومة، سقطت عندما سقط حلمها وتمكن اليأس منها... حاولت التأقلم، ولكنها اكتشفت أنها تعيش في فصيلة مختلفة عن فصيلتها التي كانت تظن.. أنها مفصولة عن الواقع.. كان اكتشافًا متأخرًا بعد انقضاء كثير من سنوات العمر فانتحرت وانتحر معها حلمها.

رن جرس الباب في منزل شاهين عابد مُعلنًا قدوم سالم ومعه ابنته الكبرى كريمة وابنه يحيى.

سالم الأخ الأكبر غير الشقيق لشاهين، فهما أخوان من جهة الأب فقط، تزوج والدهما عابد مرتين، في المرة الأولى أنجب سالم وبعد عدة سنوات تزوج مرة أخرى من والدة شاهين، كانت فتاة قاهرية، تعرف عليها عابد في إحدى زياراته إلى االقاهرة تصريفًا لبعض شئونه، كانت الابنة الصغرى لأحد جيران أقاربه الذين يقيم عندهم عند قدومه للقاهرة، رآها عابد وتعلق بها وبجمالها الفطري، انجذب إليها حيث شعر فيها بروح الاختلاف عن زوجته وعن جميع بنات القرية التي نشأ فيها، انجذب إلى روحها مثل أي ريفي ينجذب إلى روح المدينة، وكأنه رد فعل نفسي تلقائي ضد ثقافة القرية وانغلاق الريف... تزوجها عابد ولم يكن زواجهما عسيرًا، فقد كانت تعيش حياة تعسة في بيت مليء بالمشاكل بينها وبين زوجة أبيها من جهة وبينها وبين زوجة أخيها، والتي كانت هي الساعي في زواج أبيها من إحدى قريباتها، لذا لم تخلُ نفسيتها أبدًا من ذاك النفور الباطني من تلك التي حلت محل والدتها أو من الطرف الذي جاء بها إلى حياتها، ومما زاد الأمر لهيبًا هو أن أخاها وزوجته كانا يشغلان الشقة المقابلة والرؤية يومية والمعاملة حتمية ما جعل المشاعر دومًا في مرمى نيران نفسية لا تعرف خمودًا، ومن جانبه لم يُخفِ عابد لا عليها ولا على أبيها أنه متزوج، وأن له ولدًا يعيش مع أمه في قريتهم، فلم يكن هناك بد من إخبارهم، لأن هذا الموضوع لا يمكن إخفاؤه كما أنه ليس عيبًا ولا حرامًا، ولقت الزيجة هوًى لدى العروس لأنها شعرت أنها في أمسِّ الحاجة للرحيل بعيدًا عن بيت أبيها وزوجته الكريهة وأيضًا

عن أخيها وزوجته، فجاء عرض الزواج ولو من رجل متزوج كأنه الحل وقد هبط عليها من السماء كي ينقذها من المستنقع البشري الذي تعيش فيه، فوافقت ولم تكن تدري أنها كما يقولون: "كمن يستعين من الرمضاء بالنار"، ومن جانبه وافق الأب دون ترحيب فبالرغم من معايشته المشاكل اليومية بين الجميع فإن مشاعر الأبوة غلبته عتابًا، وهو يزوج ابنته الوحيدة من رجل متزوج وله أبناء، وكمحاولة بدت وكأنها مقاومة أبوية أو رفض مستتر يتمناه، اشترط أبوها على عابد أن تقيم ابنته في القاهرة وأن يوفر لها سكنًا فيها.. واستجاب عابد للشرط الذي لم يكن يحتاج اشتراطه من الأساس فقد كان لديه من خبرة الأرياف ما يغنيه عن التفكير في الجمع بين زوجتين في نفس السكن أو حتى نفس القرية، وبطبيعة الحال لقي العرض ترحيبًا من زوجة أبيها وأخيها وزوجته، وانتقلت العروس مع عابد إلى السكن في أحد أحياء القاهرة المتوسطة وما هي إلا أشهر معدودات حتى رزقها الله بشاهين والذي صار الابن الأول لها والثاني لزوجها.

على عكس سالم نشأ شاهين في المدينة، وتشبع بروحها قلبًا وقالبًا حتى أنه لم يزر قرية أبيه إلا نادرًا وعلى فترات متباعدة، كان آخرها زيارة تلقي العزاء في والده عندما رحل عن الحياة.

كانت علاقة شاهين بسالم علاقة فاترة ولكنها لم تكن سيئة، وسارت علاقتهما في سلام حتى بعد وفاة أبيهما، لعبت أمانة سالم في الحفاظ وصون ميراث أخيه دورًا كبيرًا في ترسيخ احترام شاهين له، الخلاف فقط يكمن

في جوهر شخصية كلٍّ منهما.. شاهين ابن المدينة ذو الشهادة الجامعية، وسالم ابن القرية ذو الثقافة العتيقة والعادات التليدة، لم يكمل سالم تعليمه وفضّل التفرغ لرعاية أرضه الزراعية الشاسعة، فلاحًا طيبًا لا يعرف إلا أرضه وأسرته.. عاش جُل حياته في قريته التي ولد فيها، وحين حان الحين بتخرج شاهين من الجامعة باع نصيبه من أرض أبيه إلى أخيه بثمن مجزٍ وكان هذا البيع بيعًا حتميًّا، فشاهين لا علاقة له بالأرض ولا يعرف شيئًا عن الفِلاحة وكل علاقته بالقرية هي أنها الموطن الأصلي لأبيه، وبثمن الأرض بدأ... بدأ جادًّا ومستقيمًا ومُخلصًا لمشروعه أيما إخلاص، مُحققًا بذلك حلمه القديم بالاستقلالية في العمل، أنشأ المصنع الذي كبر وأينع وأتى ثماره مع مرور الأيام.

أما سالم فظل في بيئته الريفية التي يألفها، تزوج وأنجب زمرة من البنين والبنات كعادة الفلاحين المزمنة.. تزوج منهم من تزوج ولم يبقَ إلا يحيى، الذي حصل على بكالوريوس الزراعة من جامعة القاهرة، فضَّل يحيى الالتحاق بجامعة القاهرة حتى يكتسب اللقب بأنه خريج جامعة القاهرة وليس جامعة محافظته الريفية التي ينتمي إليها.. تجسيدًا لعقدة الريفي الحالم بالانتساب للمدينة.. ونتيجة لتفوقه بالإضافة إلى تزكية أحد كبار رجال الحزب الحاكم تم تعيينه معيدًا في الجامعة وشرع في تحضير الماجستير.

كانت الزيارة واضحة الهدف.

طلب رضوى للزواج من يحيى.. لم يكن طلبًا جديدًا فلم تكن رغبة

يحيى في الزواج من رضوى خافية عليها ولا على أسرتها، وكأن الزمان يكرر نفسه كما فعل عابد جده لأبيه في يوم من الأيام من انجذابه لفتاة المدينة، فعلها أيضًا يحيى الحفيد وانجذب بدوره إلى من تُمثل روح المدينة التي يحلم بالانتساب إليها، لم يكن هناك ما يمنع من الموافقة على زواجهما فالطرفان متكافئان في ظاهر الأمر، في التعليم والمستوى المادي.. هذا غير التقدم النسبي في عمر رضوى، كما أن يحيى لم يمانع من استمرار رضوى في العمل مع أبيها خصوصًا وأن محل سكنهما سوف يكون في القاهرة حيث عمله الجامعي ورغم كل ذلك كان شاهين يعاني من صراع لم يبُح به لأحد، صراع ناشئ من رفضه فكرة زواج ابنته من ابن أخيه حتى لا تتكرر معاناة ابنته مع زوجها كما عانت والدته مع أبيه ذي العقلية المختلفة، فعلى الرغم من أنه كان أبًا جيدًا له فإنه لم يكن زوجًا كفؤًا لوالدته والتي عانت الأمرين ليس فقط بسبب فارق السن ولكن أيضًا بسبب فارق التفكير بين ابن القرية وبنت المدينة ورغم أنه لم يكن مقيمًا معها فإن الأيام القليلة التي كان يأتيها لم تكن تخلو من مشاحنات، لذا لم يتردد شاهين لحظة واحدة في رفض شامل مسترجعًا ذكرى والدته التي أباحت له يومًا بأنها لم تستطع أن تتخلص من شعورها بالمرارة نتيجة وضعها كزوجة ثانية، ولكن يحيى يشغل موقفًا أقوى، أقوى بكثير من الموقف الذي كان يشغله والده عندما تقدم لوالدته منقذًا لها مما تعانيه.. موقف شاهين يعرفه جيدًا.. ولم يلتفت إليه أحد غيره، ومن هنا كان الصراع بين رفضه لزواج ابنته من يحيى وبين

ما يرى من حتمية هذا الزواج وهو الأمر الذي لم يناقشه ولا يعرفه أحد من أفراد أسرته على الإطلاق، لا ابنته ولا حتى عفاف زوجته.

لم يكن يحيى غريبًا عن رضوى بالكلية، كانت تعرفه فقد أتى لزيارتهم أكثر من مرة بحكم إقامته في القاهرة وكثيرًا ما فضت مناوشات حوارية كانت تدب بينه وبين أختها رانيا.. تلك الصغيرة المتمردة ذات اللسان المنفلت، في شخصيته عمق لا تخطئه العين، وكان متحدثًا لبقًا يكاد يقترب من أن يكون خطيبًا مفوهًا، لم تشعر أبدًا أنه جاهل وهذا صحيح فيحيى لم يكن جاهلًا ولكنه كان جهولًا... جهولية لا تفضحها إلا المعايشة وليس الزيارات العابرة.

ورضوى في تلك الأيام بُعيد انتهاء علاقتها مع شامل في أضعف حالاتها النفسية وهنا ظهر يحيى، ظهر مثل الميكروب أو الفيروس الذي يتكون فجأة ويخرج من حوصلته عندما تُتَاح له الظروف والبيئة المناسبة وكانت نفسية رضوى مناسبة جدًّا لظهوره ومهيئة تمامًا لذلك، وافقت بنصف قلب ونصف عقل... ولا زالت دواخلها تئن من ألم علاقة مبتسرة مع شامل.. ووافق شاهين لغرض في نفسه لم يبح به لأحد.

وتمت الموافقة على الزواج من ابن عمها هربًا وحلًّا... وبئس الحل كان.

أضحت حياة نامق مقسمة إلى جزأين، صباحي ومسائي.. طرفي نقيض،

يعيش في الصباح حياة مختلفة كل الاختلاف عن حياته في المساء..

في الصباح حياة عملية قاسية عنيفة تتجلى فيها كل معاني الوصف المصري البليغ "لقمة عيش" أما في المساء فهو مع الذات، في قهوة البستان أو ساقية الصاوي أو أيٍّ من المراكز الثقافية المنتشرة في طول القاهرة وعرضها، أو مُمارسًا للعبة الشطرنج التي يهواها ويعتبر قوانينها مطابقة تمامًا لقوانين الحياة.

هو في المساء مع الألفة والصحبة التي مهما اشتد الخلاف بينهم فإنهم على نفس الموجة... وهكذا صارت الأيام... الصباح للمعدة والمساء للرئة.

وجاء يوم افتتاح بينالي القاهرة هذه المرة على موعد مع قدر له، ففي مكان يشع بالبهجة والفن والجمال تواجد نامق كعادته في متابعة البينالي الذي يقام كل عامين وإذا به يبتسم حتى كاد يفتح فمه بالقهقهة ولكنه انتبه في آخر لحظة أن عليه أن يسيطر على ذهنه حتى لا تثبت عليه تهمة الجنون، والتي بدأ البعض يتهمه بها سرًّا في مقر عمله حتى وصلت إلى أسماعه مصادفة، وإذا به يلتفت فيجد منار أمامه مباشرة، وبالطبع لمحت ابتسامته والتي التفت دون أن يزيلها من على وجهه، وما هي إلا ثوانٍ حتى انتبه إليها وتذكرها فسارع قائلًا:

ـ على فكرة أنا ما كنتش بابتسم لك.. أنا آسف.. لكنها الحقيقة.

أجابت منار:

ـ من الواضح أنها ابتسامة ذهنية.

راقت له الملاحظة:

ـ فعلًا ابتسامة ذهنية.. ملاحظة في محلها.

تحركا قليلًا وجلسا إلى إحدى الأرائك المواجهة لواحدة من اللوحات المُبهمة التي يمتلئ بها البينالي.

بادرت قائلة:

ـ الإتيكيت بيقول إني المفروض ما أسألكش عن سبب الابتسامة العجيبة أو نقول سر الابتسامة يكون أفضل.

تنفس بصوت عالٍ:

ـ منظر ضيوف البينالي فكرني برغبة قديمة، فكرة طرأت على بالي من زمن.

ردت بالإنصات، فأكمل كلامه:

ـ كنت بأحلم أعمل جمعية أسميها جماعة البايب والبابيون.

ضحكت وعقَّبت:

ـ جماعة البايب والبابيون!

ـ جمعية تشترط على كل أعضائها ارتداء البابيون في أي اجتماع أو احتفال تنظمه.

اصطادت جملته:

ـ معنى كده إن الجمعية دي جمعية ذكورية.

ـ مضبوط.. لكن مفيش مانع إن السيدات ينضموا ليها.

ـ ويلبسوا بايب ويدخنوا الغليون؟

ـ لأ يلبسوا فساتين.. يرجعوا تاني يلبسوا الفستان.. الزي المهجور.

ابتسمت بحياء:

ـ تعرف إني رأيي فيك إنك...

ردّ سريعًا:

ـ نمطي.. صح؟

صح.. ده كفاية رأيك في اثنين من أعظم الفنانين.

ترجَّلا بعد جلستهما القصيرة أمام اللوحات التي تمتلئ بها حوائط البينالي على اختلاف مدارسها وانتماءاتها.

نامق بحماس:

ـ الفن.. فن... روح ومعنى، مش عايز أقول رسالة زي الناس إللي

بتطلع في التليفزيون، لكن لا بد إن يكون لكل عمل سبب أو دافع.. باختصار يكون هناك متن يمكن الارتكان إليه.. لكن إللي بيحصل دلوقتي طلاسم وادعاءات بإسم الفن، تخيلي فيه لوحة اسمها الصرخة إتباعت بحوالي 120 مليون جنيه، 120 مليون مش 12 مليون.. لوحة تنتمي إلى المدرسة الإعدادية.

ردت مستفهمة:

ـ المدرسة الإعدادية؟

نامق:

ـ زي ما فيه المدرسة التعبيرية والمدرسة التكعيبية.. أنا رأيي إن فيه كمان المدرسة الإعدادية. ينتمي إليها كثير من الفنانين إللي رسوماتهم لا تتعدى رسومات طالب في إعدادي...

منار وهي تغالب ضحكتها:

ـ ده نفس المعنى إللي إنت قلته وإحنا قاعدين على البستان...

استطرد قائلًا:

ـ لوحة التتويج واحدة من أعظم اللوحات في تاريخ الفن.. تفيض بالمعنى..

منار مؤرخة:

ـ رسمها جاك لوي ديفيد وأتمَّ رسمها عام 1807.

مُعقبًا:

ـ كلها معاني... نابليون الأول يضع بيده تاج السلطة على رأسه رغم وجود البابا بجانبه.. المعنى واضح ومباشر.. رسالة... الفصل التام بين السلطة الدينية والمدنية.. لوحة معبرة تستحق فعلًا حجمها ستة أمتار في عشرة أمتار.

سألته:

ـ واشمعنى جورنيكا هيه إللي بتعجبك في أعمال بابلو بيكاسو؟

ـ لأن لها معنى وسبب.. يُقال وربما تكون الحادثة غير حقيقية إن أحد الضباط النازيين دخل على بيكاسو ورأى اللوحة وسأله.. أنت مَن رسم هذا؟

رد بيكاسو:

ـ لا بل أنتم.

ضحكت منار بعد سرد نامق للواقعة المتواترة تاريخيًّا عن جورنيكا.

ـ طبعًا كان لازم تضحكي.. بالفعل النازية وإللي عملته في قرية جورنيكا الإسبانية كانت هي الدافع إللي خلى بيكاسو يرسم اللوحة علشان كده اللوحة عاشت وأصبحت خالدة.

مستوضحة:

ـ ارتباط اللوحة بحدث تاريخي فسّر فوضويتها من وجهة نظرك.

مسترسلًا:

ـ تمام.. كما فعل أوجين ديلاكروا، رسم واحدة من أشهر لوحات الفن المعاصر.. الحرية تقود الشعب.. إحياء لذكرى الثورة الفرنسية في عام 1789.. ورغم أن اللوحة تظهر فيها امرأة عارية الصدر فإنها لا تعطي أي انطباع إباحي أو شهواني.. معناها كان أقوى.. رسالة اللوحة طغت على منظر الصدر العاري..

سألته فجأة:

ـ وإيه سبب ترددك على البينالي المفترض وأكيد بحكم خبرة سابقة من المؤكد أنها موجودة عندك، إن معظم اللوحات إللي فيه متوقع إنها ضد ذوقك؟

أجابها مُوضحًا:

ـ المتابعة... لا بد من المتابعة.. أنا دايمًا أتابع ما أرفضه أكثر ما أتابع ما أؤيده.

شيئًا فشيئًا بدأ النمطي يروق لليسارية.. استمر في الحديث يشير بيديه ويعبر بوجهه وهي تقريبًا لم تعد تسمعه.. كانت فقط تراه.. ورأت فيه

براءة لم تعهدها في غيره وصفاء طوِّية لم تشعر بها أبدًا تجاه أحد من قبل.. أحبت منار نامق، أحبته قبل أن يحبها هو.. على عكس المعتاد.. المألوف.. الموروث الذي وجدنا عليه آباءنا.

ـ كلود مونيه.

انتبهت منار إلى الاسم الذي نطقه نامق.. وتنبهت إلى شرودها الذي لم يلحظه هو..

أكمل حديثه ناظرًا إليها:

ـ كلود مونيه[1].. خلق الله كلود مونيه، من أجل أن يغسل أعيننا من خزعبلات الحداثة وأفاقين المعاصرة، مش بس في مصر.. في الدنيا كلها.. عزائي الوحيد إن فيه فنان وجد يومًا اسمه كلود مونيه.

إلى هنا وانطلقت ضحكة عالية من منار.. ضحكة صافية من القلب لدرجة أن جعلت بعض الحضور يلتفتون إلى صاحبة الضحكة، ضحكة أعقبتها نظرة إلى وجه نامق وكأنها تنظر إليه للمرة الأولى.. نظرة تحمل أول درجة من درجات الحب.

(1) كلود مونيه (14 نوفمبر 1840 – 5 ديسمبر 1926) رسَّام فرنسي. رائد المدرسة الانطباعية في الرسم، قام بإنجاز لوحة جديدة عام 1872، وسماها "انطباع، شمس مشرقة"، ولما كان الأول في استعمال هذا الأسلوب الجديد من التصوير، فقد اشتق اسم المدرسة الجديدة من اسم لوحته: الانطباعية.

كما يقول القانون الفيزيائي الشهير: لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، عرفت مصر السلفية المسيحية، نشأت نشأة حتمية كرد فعل طبيعي للسلفية الإسلامية من جهة ولحركة الإخوان المسلمين من جهة أخرى.

ورث مرقص عياد عن جده جينات الحمية للمسيحية، كثيرًا ما استمع إلى جده وهو يحكي له عن تاريخ المسيحية وكيف دخلت مصر، حديث الجد كثيرًا ما كانت تفوح منه رائحة المرارة.. ولم يكن منير عياد هذا الجد المزهو بقبطيته شخصًا عاديًّا، فبالإضافة إلى أنه جراح ماهر كان أيضًا عضوًا في الجماعة التي عُرفت يومًا ما باسم "الأمة القبطية" والتي حكى لحفيده مرقص عنها.

جلس الحفيد يومًا بين يدي الجراح المخضرم منصتًا إليه وهو يقول:

ـ حبيب جرجس.. هوه إللي صاغ اسم الأمة القبطية بعد ما إبراهيم فهمي هلال[1] المحامي أشهر الجمعية في يوم 11 أكتوبر عام 1952.

ابتسم مرقص وهو يقول:

ـ عام 1952.. برضه.

لم يلتفت الجد لملاحظة الحفيد الماكرة وأكمل سرده...

(1) المفارقة أن هناك اثنين فقط من الأقباط سارا في جنازة حسن البنا، أولهما هو السياسي المصري مكرم عبيد، وكان الثاني هو إبراهيم فهمي هلال (المصدر.. مداخلة لإبراهيم فهمي هلال ـ فيلم وثائقي عن حياة قداسة البابا شنودة ـ قناة الجزيرة الوثائقية).

ـ الجميعة كان لها أهداف، أهداف معلنة نصَّ عليها الإشهار:

إصلاح شئون الكنيسة القبطية.

مساعدة المحتاجين.

تعليم اللغة القبطية وإحلالها محل اللغات الأخرى.

أما شعارها: الإنجيل دستورنا والموت في سبيل المسيح أسمى أمانينا، الله ملكنا ومصر بلادنا والعنخ _مفتاح الحياة الفرعوني الذي يشبه شكل الصليب_ علامتنا، والشهادة في سبيل الرب غايتنا.

ـ الجماعة بدأت سلمية حتى عام 1954 بعدها حدث ما كنت أنا شخصيًّا ضده، لأنه يتعارض مع روح المسيحية.

ـ سأل جده بفضول:

ـ ماذا حدث؟

ـ بعض أعضاء الجماعة قاموا بخطف البطريرك وقتها الأنبا يوساب الثاني، خطفوه من المقر البابوي، تم تحريره فيما بعد وبعدها حُكِم على رئيس الجماعة بالسجن ثلاث سنوات وفي نفس السنة تم حل الجماعة، كان طبيعيًّا أن كل ده يحصل.. العقيدة غالية زي الوطن.. وأسوأ شيء إنك تحس إنك غريب في وطنك.

رد بمرارة:

ـ ولسَّه الإحساس بالغربة موجود لحد دلوقت.

أجابه الجد شاردًا:

ـ إشهار جماعة الأمة القبطية كان رد فعل طبيعي لوجود جماعة الإخوان المسلمين فقبل إشهار الإخوان المسلمين لم يكن هناك وجود إلا للإخوان المصريين وهي الأخوة التي تجمع الأمة ولكن بعد خروج جماعة الإخوان المسلمين للحياة العامة استفز ذلك مشاعر الأقباط فسعوا بدورهم إلى بلورة وجودهم من خلال الإخوان الأقباط وأصبحت مصر منذ ذلك التاريخ إخوانًا مسلمين وإخوانًا مسيحيين ووقف الإخوان (المُحتلين) يشاهدون هذه الحالة من الانقسام والتشرذم بالسرور والحبور.

كثيرًا ما استمع مرقص لسرد جده الذي كان يثق به وبخبرة عمره المديد، ورحل الجد عن الحياة بعدما ترك حفيدًا مثقلًا بالهموم في واقع يقوم يوميًّا بتغذية هذه الهموم، فالضغوط التي يتعرض لها الأقباط كانت واضحة للعيان وليست خافية على أحد.. إساءات من خطباء المساجد.. أصحاب عمارات يرفضون تسكين المسيحيين، مهن مثل الجزارة محرمة عليهم... الطلبة المسيحيون في الجامعات يقفون بعضهم مع بعض في تجمعات غير مندمجين مع باقي زملائهم، بالإضافة إلى تلك القنوات الفضائية اللعينة التي استباحتهم بالنقد والاتهامات.. فكان رد الفعل الطبيعي هو نشوء سلفية مضادة مدعومة من واقع الحياة اليومي الذي يعضد من وجود تلك النزعة لدى عامة الأقباط في مصر وكان مرقص واحدًا منهم.

وأصبحت الكنيسة كمؤسسة وطنًا بديلًا للأقباط رغمًا عنها فلم يكن هذا الوضع من اختيارها بل فرض عليها فرضًا وكان على رأس الكنيسة واحد من أقوى الباباوات الذين عرفتهم الكنيسة المصرية، البابا شنودة الثالث، كان البابا شنودة نموذجًا مثاليًّا للقبطي الأرثوذوكسي، وكان انتخابه على رأس الكرسي البابوي وكأنه على موعد مع الزمن والأحداث.. جلس البابا شنودة على رأس الكرسي البابوي مدة تزيد على الثلاثين عامًا.. أحبه الأقباط حبًّا جمًّا ولهم الحق في ذلك.. كانوا يرون فيه كل معاني الأنفة الدينية والعزة القبطية والروح الأرثوذوكسية العنيدة التي تجسدت في كثير من مواقفه حتى لو أدى به الأمر إلى الاصطدام مع رأس الدولة وهو ما حدث بالفعل، هذا غير موقفه المتشدد في الذود عن حرفية نصوص الكتاب المقدس وتعنته الصخري في موضوع الطلاق.

كان البابا كيرلس الذي سبق البابا شنودة في الجلوس على الكرسي البابوي قد عمل بلائحة 1938 التي تمنح الأقباط حق التطليق لعدة أسباب وعدم الاقتصار فقط على علة الزنا.

رغم أن ميلاد لائحة 38 جاء على يد ثلة مُختارة من رموز الضمير القبطي ومنهم من شارك بالفعل في وضع دستور 1923 الذي التفَّ حوله الجميع وصار محفورًا في التاريخ كأفضل دستور مصري، حتى أن من بين من شاركوا في وضع لائحة 38 هو حبيب باشا المصري، الذي عمل سكرتيرًا لمجلس

الشيوخ. ويعتبر حبيب باشا المصري من أجلِّ أراخنة[1] الأقباط في القرن العشرين. فقد جمع بين الثقافة الرفيعة وبين كونه رجل إدارة من الطراز الأول كما كان شخصية كنسية روحية على مستوًى سامٍ، حتى أنه عمل كسكرتير للمجلس الملي لفترة طويلة فعُرف عنه أمانته الشديدة في الحفاظ على التراث القبطي، ولائحة 38 لم تنشأ من العدم ولم تولد من الفراغ بل هي أصلًا مأخوذة عن المجموع الصفوي وهو أول مجموع باللغة العربية للقانون الكنسي الذي جمعه وحققه العالم الكنسي الشهير صفي الدين بن العسال[2] في القرن الـ13. واعتبرته الكنيسة القبطية بمثابة القانون الذي اتبعت ما جاء به من أحكام قانونية ليس فقط فيما يخص الأحوال الشخصية بل في كل ما يخص إدارة وتنظيم شئون الكنيسة. وأن ما به من قوانين للأحوال الشخصية يتوافق تمامًا مع قوانين جميع الكنائس الأرثوذكسية في العالم المسكوني بما في ذلك الكنيسة الروسية واليونانية مما يُظهر قدمه وأصالته وأنه كان سابقًا على كل الانقسامات التي حدثت في الكنيسة منذ القرن الخامس الميلادي[3].

حتى جاء البابا شنودة الثالث وألغى العمل بهذه اللائحة وحصر سبب الطلاق على علة الزنا بالإضافة إلى شرط آخر وهو تغيير الديانة أو الملة، وكان مرقص أحد أشد المؤيدين لهذا الإجراء والمتمسكين به.. لا طلاق

(1) أراخنة: كلمة يونانية تعني " قائد، رئيس، رُبَّان".
(2) هو سليل أولاد العسال.. أصحاب الشأو العظيم في التاريخ القبطي والذين اشتهروا بجمال وحُسن الخط وتعدهم بعض المراجع أصدق تعبير عن الهوية القبطية.
(3) من عدة مواقع – بتصرف للسياق.

إلا لعلة الزنا.. كما قال الكتاب المقدس.

كان الأقباط دومًا على موعد مع العِظة التي يلقيها قداسة البابا شنودة في الكاتدرائية المرقصية بالعباسية..

يستمع الجميع إليه في سكون ويرسلون الأسئلة في أوراق وتكون الإجابة دائمًا على السؤال المعتاد في جملة واضحة لا لبس فيها:

ـ إللي مضايقة من جوزها تروح تقعد عند أبوها.. مفيش طلاق.

لهذا لم يكن غريبًا أن يقولها مرقص بحزم:

ـ لا اجتهاد في نص.

قالها جازمًا ردًّا على مقولة نامق بوجوب تعاطي النصوص الدينية مع الواقع، وكالعادة اشتد الحوار على المقهى بين مؤيد ومتحفظ خصوصًا وأن الأمر له حساسية من جهتين.. الحساسية الدينية المعتادة للنصوص الواردة في الكتب المقدسة بصفة عامة والحساسية النابعة من طبيعة الموضوع نفسه بصفة خاصة.

نامق بود وبروح علمية في الحوار:

ـ بروح رياضية يا مرقص ومن غير زعل.. العقلية الأرثوذوكسية في مصر عقلية سلفية في تكوينها.

أحدهم رافعًا الحرج عن نامق:

ـ أنا مسيحي وأشهد بذلك.

مرقص مبرِرًا:

ـ طبيعي جدًّا.. وضع الأقباط في مصر مؤسف وخصوصًا في الأرياف وفي المناطق الشعبية.. الوضع مزرٍ وبصراحة الكنيسة مش ناقصة ضغوط.

نامق بصدق:

ـ لكن الموضوع ده قديم يا مرقص ومُعلق وإنت أكيد عارف.. والضغوط مش على الكنيسة لكن الضغوط الحقيقية على رعاياها.

كرر مرقص المقولة بعناد:

ـ لا اجتهاد في نص.. أبونا قال كده.

ـ رد نامق بتلقائية:

ـ تشابهت العقليات فتطابقت المصطلحات.. الديانات مختلفة لكن العقليات واحدة ربما بسبب انتساب الأرثوذوكسية للعالم الشرقي.

مرقص بضيق واضح:

ـ لأسباب كتيرة جدًّا يا نامق.

نامق بود:

ـ المهم إنك ماتزعلش من كلامي.

مرقص مبادلًا لهجة الود بمثيل لها:

ـ أنا متأكد من صدق نواياك وبراءتك التامة من أي تعصب لكن صدقني الموضوع ده تحديدًا أعقد بكثير مما تتخيل.

نامق بلهجة تفيض بالقناعة:

ـ بصفة عامة أنا مقتنع تمامًا إن القبطية الأرثوذوكسية تحتاج إلى تجديد.. إلى لاهوت التحرير.

مرقص باسمًا:

ـ أنت حالم.

نامق نافيًا:

ـ أحيانًا أشعر إني واقعي أكثر من اللازم على عكس الاتهام الدائم بغير كده، ولاهوت التحرير مش حلم ده حقيقة ونجح.

مرقص بلهجة المُطلع:

ـ الكلام ده في أمريكا اللاتينية مش في مصر ولا في الشرق يا صديقي.

نامق بقناعة راسخة في عقله ويقين قابع في صدره:

ـ الفقه الإسلامي محتاج يتحرر هُوه الآخر...

اندفع أحد الحاضرين مستفهمًا:

ـ ممكن لو سمحتم توضحوا لنا إيه هوه لاهوت التحرير؟

ضحك مرقص ضحكة بسيطة:

ـ معاك حق.. الموضوع بالفعل محتاج توضيح وتأريخ...

وبحركة لا إرادية اعتدل مرقص في جلسته مُبسِّطًا المصطلح للحاضرين مُتخذًا من أحد أشهر المواقع القبطية ثقة مرجعية لشرحه:

ـ لاهوت التحرير[1] يهتم بالوضع الاجتماعي للإنسان، هدفه تحرير المعوزين والمقهورين اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا، وأيضًا يعمل على تحرير الكنيسة مما لحق بها من شوائب وأساليب تسلطية، لاهوت التحرير يجعل الإنسان هو المحور، وليس النص، وبتحويل المركزية للإنسان يصبح كل شيء قابلًا للتفاوض والحوار، حتى نصوص الكتاب المقدَّس تؤوَّل لصالح الفقراء والمظلومين.

لاهوت التحرير لاهوت نبوي أي يقوم بعمل الأنبياء الذين كبتوا الظلم، وأنه يحمل في داخله الإعلان الإلهي فيقول: لاهوت التحرير لاهوت نبوي، فالنبوءة هي أن يرى النبي الواقع، ويتخذ القرارات العملية لمواجهته، فلاهوت التحرير ـ من هذا المنطلق ـ يحمل المسئولية النبوية للتاريخ، وبالتالي للمجتمع ككل.. ولما كان لاهوت التحرير يدعو إلى تحرير المظلوم والفقير، ليسترد الإنسان إنسانيته، فإن تحرير المظلوم يتضمن في داخله إعلانًا إلهيًّا.

(1) التعريف والشرح من موقع: موقع الأنبا تكلا هيمانوت – بتصرف.

كـما أن لاهوت التحريـر يُعبر عن الفعل الاجتماعـي Social Action وليس الخدمة الاجتماعيـة Social Service فالفعل الاجتماعي هو التأثير في الواقع لإصلاح حال الفقراء، وهو وقوف الكنيسـة بجوار المطحونين وتوعيتهم لتحقيق حريتهم، والاعتماد على ذواتهم، واسـترداد إنسانيتهم السليبة، فهو يبحث عن علاج أسباب المشكلة.

ولاهوت التحرير هو نتاج التلقيح الفكري بين الكثلكة والماركسية، وهو تفاعل بين الماركسية والكاثوليكية لإقامة الفردوس على الأرض، هكذا كان بروز لاهوت التحرير سباقًا في أمريكا اللاتينية بسبب التفاعل الحقيقي بين الحركات الاجتماعية الماركسية والاشتراكية وبين الكنيسة الكاثوليكية، وهذا مفقود في بعض مناطق العالم رغم وجود مشكلة الفقر.. وكان من نجاحات لاهوت التحرير هذا التقارب الذي أدخل القضية الاجتماعية إلى قلب الاهتمام الديني. ويمكن تعميم القول الآن بأن فكرة لاهوت التحرير هي باختصار جعل الدين أكثر اهتمامًا بالإنسان وبالمجتمع، وهو يحاول القيام بمهمة مزدوجة تبشر بالفردوس في الأرض وفي السماء ولا تؤجل سعادة الإنسان.

وأول من استخدم تعبير لاهوت التحرير هو اللاهوتي جوستافو جوتييريز سنة 1967 في محاضرته التي ألقاها في مونتريال، ثم محاضرته التي ألقاها في بيرو سنة 1968، خلال مؤتمر ميدللين، وبرَّر جوتييريز موقفه من صبغ تحرير الإنسان بصفة اللاهوت بأن اللاهوت ليس مجرد معرفة نظرية، بل

هو موقف عملي وأن اللاهوت يتجه إلى واقع الإنسان، ولذلك عندما نبحث في علم المسيح يجب أن ننطلق من الأرض أي من صفة السيد المسيح الإنسانية، ووضعه البشري، وتضامنه مع الفقراء، ولا ننطلق من السماء، أي من صفة السيد المسيح الإلهية، ولذلك على الكاهن أن يتضامن مع الضعفاء، ولا ينحاز للأقوياء، وأن الهدف من البشارة بالإنجيل ليست العقيدة فحسب، بل تغيير الوضع الاجتماعي للإنسان، وأن الحياة المسيحية تنبع من الأرض وليست من السماء.

لمست هذه النقطة تلافيف عقل نامق المغرم بفكرة الاتصال وعدم الانفصال عن الواقع.

واستمر مرقص في إيضاحه:

ـ والسؤال: لماذا دعوا تحرير الإنسان لاهوتًا؟

تتلخص الإجابة في ارتباطه سياسيًّا بتحرير الإنسان من العبودية والقهر والتخلف، لهذا أصرَّ مفكرو هذا التوجه على لفظ "اللاهوت" فاللاهوتي يدرس مسيرة الله المتحققة في الزمان والمكان، كما يدرس سلوك البشر في إطار الزمان والمكان نفسهما، ليعرف مدى تطابقهما مع قصد الله الخلاصي. كما فرض الواقع نفسه على الكنيسة لدرجة أن المجتمع الفاتيكاني الثاني (1962 – 11965) كان ملتقى للتيارات اللاهوتية في أوروبا، إذ وجد اللاهوت نفسه أمام تساؤلات إيمانية من نوع جديد فرضتها الاكتشافات العلمية الحديثة والمجتمعات الصناعية.

ومن وجهة نظر دعاة لاهوت التحرير فإن اللاهوت يبدأ من واقع الإنسان ويبحث عن تحريره من الظلم الاجتماعي، وأيضًا تحريره من الظلم الروحي أي من سلطان الإكليروس، فعلم اللاهوت يبدأ عادة من الوحي إلى الواقع. أما لاهوت التحرير فهو يبدأ من الواقع إلى الوحي ويرى بعضهم أن مصداقية اللاهوت تتحقق في مطابقتها للواقع ولما كان علم اللاهوت يرتبط بالواقع، فهو لاهوت يمكن أن يكون محليًّا، فالواقع في أمريكا اللاتينية هو الذي نبع منه لاهوت التحرير، هذا الواقع قد يتفق مع واقع آخر في موقع آخر.. ولذا فإن الأفارقة يمكنهم أن يكتبوا لاهوت التحرير من واقع إفريقيا.. بل يجوز أن يشكل علم اللاهوت نظرية أو يتبنى ويناقش قضية معينة.. فالسود في أمريكا، في سبيل دفاعهم عن حريتهم، ربطوا علم لاهوت التحرير بقضيتهم، والمرأة في دفاعها عن حريتها في المجتمعات الشرقية أنشأت لاهوت تحرير المرأة.. علم اللاهوت التحريري لم يبدأ من الوحي، لكنه بدأ من الواقع الاجتماعي والسياسي للمجتمع والبيئة.. وحيث أن لاهوت التحرير، واقعي، فهو يرتبط بالإنسان وبالإنسانية. إنه لاهوت الإنسانية.. إن لاهوت التحرير ليس لاهوتًا ينتظر المستقبل، لكنه يحدد العمل المباشر والحاضر.. فلاهوت التحرير من هذا المنطلق، لاهوت عمل في مواجهة الواقع الأليم للبشرية.

ولاهوت التحرير من هذا المنطلق، هو اللاهوت الأول من نوعه في تاريخ الفكر اللاهوتي الذي يعتمد على الواقع التاريخي.. لاهوت يدعو إلى

العمل لأجل المطحونين والهامشيين من المجتمع البشري، والدعوة تحمل قيام المجتمع الكنسي بكل ما يمكن عمله لتحرير المطحونين، ليكونوا مستقلين، لهم سيادة على ذواتهم، دون اعتماد على الغير..

لاهوت التحرير ليس مجرد دعوة للتحليل العقلاني فحسب، بل دعوة للعمل الرعوي والخدمة، نابعة من سماع أصوات الفقراء في كل عصر، ومن هنا نرى أن لاهوت التحرير، لاهوت عملي، واقعي، فهو يرتبط بالمجتمع وظروفه، ويدعو الكنيسة للقيام بدورها الفعَّال لتطوير المجتمع للأفضل.

وتمتد المسئولية، من داخل علم لاهوت التحرير، إلى ما يحدث داخل الكنيسة فالنظرة التحرُّرية للمطحونين داخل الكنيسة، تدعو للتحرر من سلطان الإكليروس، وسيادته، فالكنائس اتخذت لها أساليب دكتاتورية سلطوية، وتمارس نفس العنف، والسيادة القهرية في ممارستها لسلطاتها.. ولاهوت التحرير يدعو لتحرير المظلومين من أي نوع.

ولما كان لاهوت التحرير يرتبط بالواقع، وبقضايا الإنسان الفقير والمظلوم، فإن الإنسان هو المركز الرئيسي لهذا اللاهوت والواقع أن لاهوت التحرير يعتمد على العلوم الإنسانية وحيث أن لاهوت التحرير لاهوت عملي يرتبط بالإنسان وبالواقع، لذا فهو لاهوت متجدد يطالب باستمرار الدراسة والتأمل واكتشاف أساليب تحرير المظلومين والفقراء.

ولكن لاهوت التحرير ليس لاهوتًا أبديًّا كما هو الحال في اللاهوت العقائدي، بل هو متغير بتغير الأزمات في كل عصر، ربما هو جزء من لاهوت الأزمة Predivament.. وأصبحت الدراسات اللاهوتية الآن تتعرض لموضوعات العصر باسم لاهوت التقدم، لاهوت العدالة، لاهوت المساواة، لاهوت الوحدة، لاهوت التنمية، لاهوت الألم، ولاهوت حقوق الإنسان.. إلخ.

تعددت اللقاءات بين نامق ومنار اقتربا من بعضهما أكثر وأكثر، ومع مرور الأيام نما الإعجاب بينهما.. إعجابًا عميقًا جذَّره توحد الجوهر رغم اختلافهما في تسبيب بعض القضايا العامة أو تفسير بعض الأحداث.. ولكنه الاختلاف الذي يبعث على الحيوية لا النفور أما التوافق بينهما فهو ذاك التوافق الذي يرسخ للطمأنينة..

توافق بلا تطابق، واختلاف بلا تناقض، فكان ذلك وقودًا للاستمرار...

وكأن نامق على موعد مع القدر مثل قدر والده الذي تزوج من عرق مخالف ودين مختلف.. ها هو الابن على وشك أن يكرر الأمر مع اختلاف طفيف حيث يتزوج الشاب ذو الميول الملكية من فتاة يسارية، أحبها نامق وراقت له، فعندما يبدأ الحوار بينهما لايكاد ينتهي فيستكملونه في لقاء آخر مما جعله متمسكًا بها.. خاطبت داخله ميله الشديد للحوار فهو بحكم

تكوينه كائن حواري لا يمل النقاش والجدال خصوصًا في الشأن العام، وهي أيضًا مثله... أحب فيها نقاءها وحماسها ووجهها ذا الملامح الطفولية، لم يخلُ حوارهما أبدًا من المزاح بسبب اختلافهما في الآراء وكثيرًا ما كان يحلو لها أن تقول له: نامق باشا.. فيرد في جدية مقلدًا طريقة اليساريين.. الرفيقة منار...

يتحاوران.. يختلفان.. يفترقان دون أن يفترقا...حتى قالت له ذات مرة:

ـ تتجوزني يا نامق.. تتجوز صحفية يسارية...

نظر إليها لحظة ثم ابتسم.

هي التي طلبت يده للزواج.. شجعها على ذلك أفكاره المتحررة من حظيرة العادات والتقاليد، وأيضًا طبيعتها المتمردة وعقليتها الوثابة، وكراهيتها للموروث العتيق.. أحبته، أحبت فيه صدقه وصراحته وأيضًا اختلافه.. لم تكن ترى فيه تلك التهمة اللصيقة به دومًا... النمطية.. صحيح أنه نمطي في المظهر ولكن ليس في الجوهر، أو ربما بسبب طبيعتها التي جعلت أغلبية من تقابلهم متشابهين في الأفكار وفي الملابس التي يتعمدون أن تكون مهلهلة، متفاخرين بذلك ومتباهين حتى ظهر نامق في حياتها كنسق مختلفٍ بالنسبة لها، هو مختلف مع أفكارها ولكنه ليس متناقضًا مع طبيعتها، ذلك الاختلاف الذي يُثري الحياة ويصونها من براثن الملل والروتين.. أو ربما ليس كل ما سبق بل هي الأرواح التي تقابلت فتلاقت، لم تخشَ من الإحراج أو أن يظن بها ظن السوء، فلم يكن الأمر سابقة من نوعها.. عرفَ المجتمع تلك

النوعية من المبادرات الراقية... جرى أغلبيتها على استحياء هربًا من سطوة العفن المعشش في الرؤوس.. أن تطلب (هي) الزواج من (هو)... ولم لا؟ أليس من حق الأنثى أن تختار شريك حياتها كحق موازٍ لحق الذكر؟ كانت تسأل نفسها دومًا لماذا يقتصر حق الاختيار على الرجل ويكون حق الأنثى فقط مقصورًا على القبول أو الرفض؟ ماذا لو قابلت إحداهن من ترى فيه زوجًا مناسبًا لها، والأقسى من ذلك ماذا لو عثر أحدهم على شخص يصلح زوجًا لأخته أو ابنته، لم لا يكون من حقه أن يدعوه للزواج بها؟ ألم يفعلها نبي الله شعيب مع نبي الله موسى!

طلبت منه الزواج ولم يخب ظنها فيه ولا رد فعله.. تقبل الأمر وتفهمه.. أثبت لها في لحظة أنه نمطي في القميص والبنطلون فقط.

وعندما فاتحت أخاها عصام بهذه الرغبة غلبته كيمياء الذكورة وضاق برهة بما أقدمت عليه أخته، ثم تقبل الأمر بعد ذلك نظرًا لمعرفته الوثيقة بها وبطبيعة أفكارها وأفكار من تصادقهم، ولم يأخذ الموضوع منه أكثر من ثلاثة أيام للتقصي عن نامق وعن عمله ومحل سكنه وكانت النتيجة لصالحه، فعمله ذو صفة في مصنع مُشهر منذ سنوات، والسكن في حي عتيق، ما يشف عن أصل رفيع لم يكذب حينما أخبرهم عنه مما طمأن قلب الأخ على أخته، وخابت ظنونه في أن تتزوج من معارض تطارده أجهزة الأمن، بل ها هي تُقدم على الزواج من شخص كثيرًا ما يدافع عن الحكومات وقد أسعده هذا كثيرًا كضابط، وكثيرًا ما تضاحكا هو ونامق

على هذا الموضوع، أما والدتها ففرحت بالأمر كأي أم، ولأول مرة يذهب نامق إلى مقر البنك لكي يقوم بفك شهادات الاستثمار التي تركها له والده فقد حان حينها تغطية لتكاليف زواجه.

تم زواجهما في يسر وسهولة تامة بدءًا من الشبكة التي لم تكن بناء على رغبة من منار أكثر من مجرد دبلتين، فعلها نامق ووضع دبلة ذهبية مثل أبيه الذي ظل يضع دبلة زواجه الذهبية حتى وافته المنية رغم أنف المجتمع الذي تغيرت معاييرهُ[1]... مرورًا بعقد القران وأخيرًا بحفل الزفاف في إحدى القاعات التي أمست منتشرة بكثرة في الآونة الأخيرة.

امتلأت القاعة بالأقارب من جهة منار ولم يحضر لنامق من أقارب سوى شامل، فلم يتبقَ له من أحد بعد أن هاجر الجميع من أسرته منذ زمن ليس بالقصير، فحضر دون زوجته احترازًا من وجود رضوى والتي ربما يكون نامق قد دعاها إلى حفل الزفاف، فجاء التعويض بالأصدقاء.... كانت القاعة في تلك الليلة تضم كل الأضداد... ضباط شرطة أصدقاء عصام... فنانون وصحفيون أصدقاء منار... شعراء وأدباء أصدقاء نامق.

أما المفارقة فكانت في حضور رانيا ليس بصفتها ابنة صاحب المصنع الذي يعمل فيه العريس، الذي كان له مبدأ الفصل التام بين الحياة الخاصة والعمل حيث كان نامق على قناعة تامة بأن كل شيء يُسمع ويُرى تتداوله

(1) حتى نهاية السبعينيات كانت الدبلة ذهبية للطرفين بالفعل.. ثم تبدل الحال بعد ذلك وصار الخاطب والزوج بعد ذلك يرتدي دبلة فضية.

الألسنة أيًّا كانت درجة خصوصيته... شهوة اللسان أقوى.. فمن الأفضل أن تسير العلاقة بين حياته الخاصة وحياته في العمل في خطين متوازيين لايلتقيان أبدًا... مُطلقًا، ولم يخلف مبدأه، لذا لم يقم بدعوة أحد من زملائه في العمل إلى حفل زفافه.. المبدأ مبدأ لا استثناء فيه، أما رانيا فجاءت إلى الحفل بصفتها إحدى مواطني مقهى البستان ومن الدائرة القريبة منهما، ولم يكن في الأمر غرابة فقد فكر نامق ومنار بالفعل في إقامة حفل زفافهما في ساحة المقهى ولكن عصام رفض.. رفض بصفته... ضابط أمن الدولة رفض.. لم يكن يستطيع أن يمنع أخته أن تذهب إلى المقهى، وهو الذي بحكم عمله يعرف ميول رواده ولكنه تزمت وتصلَّب أمام رغبتهما في إقامة حفل الزفاف في حرمه، كان يعرف أنه إن حدث فلسوف يؤثر على موقفه الأدبي والرقابي أمام زملائه ورؤسائه.. وكان على حق.

وانتهى الحفل ليبدأ حفل آخر.. حفل ثنائي لا ثالث فيه.

كانت صدمة منار صدمة مضحكة عندما وقف نامق أمامها وهو يرتدي زي النوم المقدس (البيجاما).. بدا وكأنهُ خرج للتو من أحد الأفلام المصرية القديمة، ولكن ما هي إلا لحظات حتى انتبهت إلى طبيعة الشخص الذي سعت هي للاقتران به.. فقد كان منظره وهو يرتدي تلك البيجاما الكلاسيكية في أول ليلة من ليالي زواجه منظرًا يبعث على الضحك، أما هي فقد بدت بدرًا ببياض بشرتها الناصع في ثوب حريري شفاف وكأنها أميرة من أميرات أفلام والت ديزني، كان المشهد يبدو متناقضًا تمامًا.

ومثلما هو معتاد ومتعارف عليه لا بد من حوار قبل أن تبدأ الملحمة الحتمية في تلك الليلة التي لم يجد المجتمع لها اسمًا غير هذا الاسم السوقي.. الدخلة.

بادرها قائلًا:

ـ أنا عارف إللي بيدور في ذهنك لكن صدقيني، كان لازم البيجاما دي الليلة؟

ردت وهي تحاول تقليده:

ـ طبعًا لأن البيجاما هيه الزي المعياري للنوم.

ابتسم لدعابتها واقترب منها قليلًا:

ـ وعد.. مش أكتر من مجرد وعد قطعته على نفسي، باختصار، أمي هيه إللي خيطتها لي وقالت لي: إبقى إلبسها في ليلة دخلتك.. وكانت آخر حاجة تفصلها لي..

أجابت: عندي إحساس إن البيجامة بتتعارض مع الدبلة الدهب إللي إنت لابسها.

أجابها: أقر وأعترف أمام زوجتي الحبيبة أنني لا أخلو من التناقض...

ـ على العموم البيجاما مش غريبة على طبيعتك يا نامق أنا حبيتك رغم...

قاطعها مُكملًا كلامها... على فكرة صحيح أنا نمطي لكن نمطي متحرر.

ضحكت ضحكة صافية:

ـ نمطية متحررة...

قال في جدية غلبتها روح المرح:

ـ البيجاما دي بقى ليها ميزة مهمة جدًّا.. أفضل قماش ممكن الإنسان يمسح بيه عدسات نظارته الطبية هي ظهر قماش البيجاما الكستور.

منار ضاحكة:

ـ بيجاما كستور... يااه.. أنا آخر مرة سمعت كلمة كستور دي كانت من ماما وكنت وقتها آاااد كده.

نظر إليها وأردف في خبث..

ـ لكن على فكرة موضوع النمطية ده غير مؤثر... الكستور هو المؤثر.. حتى اسألي ماما.

ابتسمت منار في خجل عندما انتبهت لمرامه، وما هي إلا لحظات حتى ذابا معًا في لجة المشاعر، تبادلا القبلات الهادئة وسرعان ما تحولت إلى أحضان محمومة تغلفها تنهدات طبيعية، وما لبث أن رحل إلى أسفلها ينهل من عسيلة شرخها نهلًا.

كانت مهنة الطب بالنسبة إلى مرقص أكثر من مجرد مهنة يمتهنها، كان يمارسها باحترام... احترام يليق بقدرها الذي كان البسطاء قديمًا يصفون صاحبها بأنه "حكيم"، وإنه لوصف يُغني عن البيان، ورث حب المهنة عن جده الذي كان له أكبر الأثر عليه، لم يكن مرقص يحب المهنة ويحترمها فقط بل يشعر بالغيرة عليها وعلى ما أصابها من عطن، ذلك العطن الذي كما أصاب أربابها من الأطباء أصاب أيضًا المرضى...يكاد يتميز من الغيظ مقارنة بما صار إليه حال المرضى قياسًا بمعايير والدته التي كانت تصر وهو صغير أن يقوم بتغيير ملابسه الداخلية قبل الذهاب إلى الطبيب وعندما يُبدي اعتراضًا على إصرارها:

ـ يا ماما الهدوم لسه نضيفة، ده أنا لسّه مستحمي.

يتذكرها وهي ترفع سبابتها أمام وجهه في صرامة:

ـ علشان لما الدكتور يكشف عليك.

لا يزال مرقص يتذكر وقوف الممرضة لحظة دخول الطبيب إلى العيادة احترامًا له، ولا تزال مهابة وجلال حجرة الكشف شاخصة في ذاكرته لم تبرحها.

كانت غيرة مرقص على مهنة الطب غيرة صادقة وعميقة، مليئة بالشجن الممزوج بالألم.. لكنه لم يكُ يدري ما الذي في استطاعته أن يفعله والأطباء أنفسهم يحتاجون إلى إعادة تأهيل مهني وأخلاقي.. ماذا يمكن أن يفعل

لكي يصونها ويحفظها من المدَّعين والمتطفلين الذين تفشوا في عالمها، هم صحيح أطباء بحكم شهادتهم الرسمية ولكنهم ليسوا كذلك بالممارسة ولهذا كان مرقص يكره نقابته، يراها مجرد مؤسسة لحماية الأطباء الفاشلين، كثيرًا ما عاصر ورأى نصرة النقابة لطبيب مهمل أو مجاملتها لطبيب مستغل خصوصًا إن كان شهيرًا، مارس مرقص الطب كرسالة وليس كمهنة كما علمه جده، ظل دائم الاهتمام بعمله إلى أقصى حد مما جعله موضع ترحيب من كثير من المستشفيات وخصوصًا تلك المستشفيات الملحقة بالكنائس.. فما إن يباشر عمله في إحدى العيادات حتى يذيع صيته في المنطقة التي تقع الكنيسة في زمامها وما هي إلا أسابيع حتى تمتلئ عيادته بالمرضى بسبب أمانته التي يحسها مرضاه نتيجة عدم الدخول بهم في متاهات العلاج المعروفة عن كثير من الأطباء الذين يُقدمون على طلب الأشعة والتحاليل الواحدة تلو الأخرى كمعيار للجدية في العلاج ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من عملية سرقة مقنعة واتجار بمرضى لا حول لهم ولا طول.. لم يكن يفرق في الاهتمام بين مريض مسلم أو مسيحي، العكس هو ما كان يحدث فحدث ذات مرة أن رفض أحد المستوصفات التابع لإحدى الجمعيات الخيرية الملحقة بأحد المساجد أن يعمل لديهم لأنه مسيحي، فآثر عدم تكرار المحاولة مكتفيًا بعمله الصباحي في أحد المستشفيات الحكومية وفي المساء في أحد المستشفيات الملحقة بإحدى الكنائس والمفارقة أنه لاحظ أن أغلبية المرضى في كثير من الأيام في ذلك المستشفى الكنسي أو ذاك من

المسلمين، يعرفهم بحكم أسمائهم التي يتحتم كتابتها لصرف الدواء إذا كانوا ذكورًا، أما الإناث فلم يكن يحتاج إلى معرفة الاسم لأن الكثيرات منهن إما محجبات أو منقبات، وحدث ذات مرة أن تجرأ وسأل أحد مرضاه بعد أن توسم فيه شيئًا من الطيبة عن سبب تفضيل كثير من المسلمين الذهاب للعيادات الملحقة بالكنائس فإذا بالمريض يجيبه بعفوية ليست غريبة على مظهره البسيط:

ـ علشان الدكاترة المسيحيين شاطرين.

ورغم حبه الشديد لمهنته فإنه لم يكن مندمجًا مع زملائه، فالزملاء عنده مثل الجيران، بالنسبة له مجرد أشخاص في حياته ليس أكثر، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين لا فرق.. لم يكن أنانيًّا ولكنه كان أنويًّا، ساعدته هذه الأنوية على التفوق الدراسي، كائن أحادي يميل إلى العلاقات الضحلة والتي يمكن بترها وإنهاؤها في أي وقت يشاء، لذا كان يتردد كثيرًا في موضوع الزواج، ولكنه رضخ أخيرًا بعد الإلحاح والضغوط المعتادة من الأسرة وخصوصًا الأم واستكمالًا للمظهر الاجتماعي، وأيضًا انقيادًا لطبيعته الذكورية التي لم يستطع مغالبتها، عاش مرقص جُل عمره بلا صديق مُقرب حتى تعرَّف على فادي الذي يعمل كمندوب لشركة أدوية وهو الذي عرَّفه بمقهى البستان، ثم تقابلا أكثر من مرة مصادفة في الكنيسة أثناء القداس، وعن طريق فادي تعرَّف مرقص على مادلين زميلة فادي في نفس الشركة التي يعمل بها، كان مرقص يتمنى أن يختار عروسه من خارج جدران الكنيسة على عكس

ما تُقدِمُ عليه بعض الأسر المسيحية التي تجعل من مناسبات الأعياد فرصة للتعارف بغرض التزاوج.. شيء في داخل مرقص كان يرفض هذا الأمر، وحدث ما تمناه حين رأى مادلين عندما استدعت ظروف عملها أن تكون بزمالة فادي في مأمورية عمل لهما في المستشفى الكنسي الذي يعمل به مرقص في الفترة المسائية، فتاة مليحة في منتصف العشرينيات من عمرها، حاصلة على بكالوريوس العلوم.. وما هي إلا أيام أعقبتها شهور حتى تزوجا على عهد أن ما جمعه الله لايفرقه إنسان..

بعد مرور عدة أسابيع قرر مرقص أن يذهب إلى البستان، فلم يكن قد ذهب إليه منذ زفافه، لم يود مرقص أن يصطحب مادلين معه.. شيء داخله يرفض مزج حياته الخاصة بحياته مع أصدقاء المقهى وخصوصًا أنه لا يخالط كثيرًا من رواده بل يقصر حضوره على مجموعة صغيرة من الأشخاص توسَّم فيهم أنهم يصلحون أن يقضي معهم بعض الوقت ولو على فترات متباعدة كلما سنحت له ظروف عمله بذلك من ناحية أو راق له مزاج في أن يذهب من ناحية أخرى، ولذا رأى أنه من الأفضل ألا يُدخل زوجته معه في هذا العالم الذي يعجُّ بآراء وحرية في الحديث والأفكار ما يتعارض مع شخصيته المتحفظة.. تلقى مرقص التهاني على زواجه من الجميع دون استثناء وبطبيعة الحال لم يخلُ الأمر من الدعابات المعتادة في هذا الشأن، وتقبلها على مضض دون أن يُظهر ذلك..

بادر أحدهم قائلًا:

ـ مفيش فايدة.. لا أمل في هذا البلد.

رانيا معترضة:

ـ إنت بتقول إيه.. إنت في غيبوبة يا ابني... البلد بتغلي.

رد أحدهم:

ـ ده صحيح فعلًا.. الحراك الموجود حقيقي غير مفتعل.. صحيح المؤسسات ساكنة، لكن بطن المجتمع بتتحرك.

عقَّب كريم:

ـ مؤسسات ونقابات فاشلة.

رد عماد سعدان:

ـ معذور.. إللي جرى لك مش بسيط..

أضاف كريم:

ـ أطباء عايزين الـ..

انتبه كريم لوجود مرقص وأنه طبيب.. فاستدرك قائلًا:

ـ اعذرني يا مرقص.. لكن فعلًا الواقع الطبي في مصر مؤسف وللأسف النقابة بتحمي الإهمال.

لقي رأي كريم هوًى لدى مرقص الكاره هو الآخر لنقابته.

مرقص متفهمًا:

ـ آسف على إيه يا كريم أنا أؤيدك في كل كلمة بتقولها.

وأكمل كريم:

ـ لحد دلوقتي مش عارفين نجيب حقنا من طبيب قذر ضيَّع حياة أمي بسبب إهماله.. بعض المعارف أشاروا علينا إننا نذهب للشكوى في النقابة.. اكتشفنا إن النقابة بتحمي الأطباء مش بتحاسبهم، أنا شخصيًّا تأكدت إن الانتساب لأي نقابة مش لأنها شرط لممارسة المهنة ولكن لضمان الحماية من القانون... والدليل إن النقابات التي لا منفعة منها مفيش حد بيهتم لا بالانتساب إليها ولا حتى بحضور انتخاباتها وأشهرها نقابة التشكيليين.. نقابة لا تقدم ولا توخر.. يهتموا بيها ليه؟ لإنهم فنانين؟ هُمه برضه فنانين من غير انضمام.. التشكيليين مش محتاجين النقابة لكن هيه إللي محتاجاهم على عكس النقابات التانية زي المحامين والأطباء والمهندسين وغيرها...

مرقص مؤكدًا كلام كريم:

ـ ده صحيح.. أنا طبيب وأعترف إن بعض الأطباء بلا ضمير وإن كثيرًا منهم لا تنقصه الكفاءة ولكنهم يفتقدون الأمانة في العلاج، ده غير إن أغلبية المستشفيات الخاصة وربما لا يوجد استثناء ما هي إلا دكاكين لاستغلال المرضى واستنزافهم.

آخر بمرارة:

ـ ده غير النصابين بتوع عيادات علاج العقم والإنجاب.

مرقص مؤكدًا:

ـ الموضوع ده تحديدًا مليء بالفساد والاستغلال بصورة لا يمكن تخيلها، ده غير أطباء الفضائيات.. وكله تحت سمع وبصر نقابة الأطباء.

عماد وكأنه وجد ضالته في طبيعة موضوع الحوار...

ـ العزف على وتر فشل النقابات ممكن يجيب نتيجة في تثوير الجماهير.

كريم بِتمنٍّ:

ـ أتمنى إنه ييجي يوم يتم فيه السماح للأطباء الأجانب بالعمل في مصر..

مرقص ضاحكًا:

ـ ليه كده بس يا كريم مش للدرجة دي.

كريم بمرارة:

ـ للدرجة دي وأكتر.. دي الطريقة الوحيدة إللي ممكن تضع كل شيء في نصابه وتفضح المستوى العلمي للأطباء في مصر..

مرقص مكررًا التماسًا العذر لكريم:

ـ صدقني أطباء مصر لا تنقصهم الكفاءة ولكني أعترف إن بتنقصهم الأمانة على المرضى.

كريم بلا حرج:

ـ سيان.. المهم لا بد من دخول متغير خارجي يكون أقوى من المنظومة الحالية، الوضع الحالي عصي على التغيير بالعوامل العادية أو بأي عامل داخلي فقط، الحل الجذري هو المنافسة مع مُتغير خارجي من خارج المنظومة، هو ده الحل الحقيقي لعلاج الأطباء.. الأطباء أنفسهم محتاجين علاج مهني وأخلاقي..

ضحك مرقص للمفارقة في تشبيه كريم ولكن ما لبث أن وجم عندما أكمل كريم حديثه في حدة...

ـ لو تم السماح للأطباء الأجانب بفتح عيادات في مصر وقتها أطباء البلد دي حيعرفوا مدى الانحدار في مستواهم العلمي... المستوى الذي أصبح لا يختلف كتير عن مستوى حلاقين الصحة[1].

(1) حلاقين الصحة: كان بعض من يمتهن مهنة الحلاقة فيما مضى يمارس العلاج الطبي مثل إجراء عمليات الختان للأطفال الذكور وتطهير الجروح وغير ذلك، أما عن سبب احتكار الحلاقين تحديدًا، دون غيرهم من أصحاب المهن الأخرى، لهذه الصفة فهو أنه كان في العصور السالفة لم يكن مسموحًا إلا للحلاقين فقط أن يحملوا شفرات والتي كانت تُعد بمثابة سلاح ممنوع حمله بحكم القانون إلا للجنود النظاميين، دون أن يعتبر ذلك مخالفًا للقانون حيث أنها بطبيعة الحال أداة ضرورية لممارسة عملهم، ورويدًا رويدًا صاروا يقومون ببعض العمليات الطبية اعتمادًا على ما يحملونه من أدوات تتيح لهم ممارسة بعض أنواع الجراحة البسيطة.

شعر مرقص بشيء من الإهانة من التشبيه، ولكن ما يراه مرقص نفسه من بلادة كثير من الأطباء والغرور والتعالي على المرضى كان كفيلًا بالتماس العذر لكريم.

وأكمل كريم:

ـ مهنة سايبة ونقابة متبلدة... ده غير فوضى الألقاب، في الخارج تتحدد الألقاب وفقًا للتخصص..

طبيب الأسنان يوصف dentist، الجراح لقبه surgeon، الصيدلي صفته pharmacist، الدكتور الجامعي يحصل على لقب professor، طبيب العلاج الطبيعي يوصف بـ Physiotherapist.

كان نامق يستمع إلى هذا الحديث وهو صامت تمامًا.. أكثر ما لفت انتباهه هو مقولة كريم: "لا بد من دخول متغير خارجي يكون أقوى من المنظومة الحالية، هُوه ده الحل الجذري، الوضع الحالي عصي عن التغيير بالعوامل العادية أو بأي عامل داخلي فقط"..

شرد نامق ببصره.. المشكلة إذًا لا تخصه وحده في العمل.. المشكلة أعقد وأكثر اتساعًا بكثير... لا بد من وجود متغير خارجي.. قوة حقيقية، تذكر نامق مقولة قالتها يومًا ما المُدرسة في حصة التاريخ: الحملة الفرنسية كانت سلاح ذو حدين.

كانت الحملة الفرنسية بالفعل سلاحًا ذا حدين.. هي احتلال ولكنها

تُصنف كحتمية من حتميات التاريخ... فالنور لا ينبلج إلا مع اشتداد الظلام.. من واقع مظلم يموج بالتخلف جاء الفرنساوية بالنور.. رغم كل شيء ورغم كل المآسي التي ارتكبتها تلك الحملة في أهالي المحروسة فإنها كانت على مصر نورًا.. إنها المُتغير الخارجي القابع في أضابير التاريخ والذي تفوَّه به كريم دون أن يعي..

ـ إنه النور الأبيض القادم من خلف بحره..

جاء نابليون إلى مصر.. غازيًا.. محتلًّا.. لا شك، ولكن ما فعله بمصر كان غير قليل..

لم يُسقط نظامًا فحسب، ولكنه أسقط المنظومة، ضرب القديم في مقتل فانبلج الجديد مولودًا يصيح فرِحًا.

ما قاله كريم صحيح، شخص كريم الحال وأرّخ صِدقًا دون قصد..

الشرق لا يعرف التغيير ولا يعترف به إلا مُكرهًا مُرغمًا وهذا هو الفرق بين أهل الشرق وبين الأبيض الذي يُغير اختيارًا لا إجبارًا.. يسبق بخطوة لذا يختار التوقيت ويحدد الثمن لأنه علم بحكمته أن لكل شيء ثمنًا وأن الحمقى فقط هم من يحسبون أنهم سوف يحصلون على شيء بلا ثمن.

رحل نابليون.. تاركًا مجتمعًا مصدومًا صدمة الإفاقة... ألقى فيه بذرة لا يزال يقطف ثمارها حتى اليوم.. بذرة النور... نور أضاء أبصار المصريين فرأوا عالمًا آخر غير الذي عاشوا في غياهبه سنين عددًا.

جاء الأبيض ليُحَصحِص الحق ويُسقط الأقنعة.

هرب مراد بك وإبراهيم بك.. لم يثبتوا ويدافعوا عن أرضهم ولا عن بلادهم لأنها ببساطة ليست أرضهم ولا وطنهم ولكنها غنيمتهم التي اغتنموها... فهربوا وتركوا الشعب...

أيها التاريخ الكاذب.. المماليك هم الاحتلال.

أيها الواقع الكاذب... الجماهير هي الاحتلال.

وقال نامق لنفسه..

ـ الوطن من غير دولة قطعة أرض.

جاء الفرنساوية إلى مصر وهي وطن لغير أهلها.. وعندما رحلوا تركوها وهي دولة لشعبها.. كما كانت في غابر الأزمان.

جاء الفرنساوية لا لينهبوا ولكن لينبهوا المصريين.

مصر ليست بلد.. مصر هي البلد كما قال نابليون.

يا للأقدار.. جاء الجد يومًا إلى مصر جنديًّا لكي يحارب الحملة التي يشعر تجاهها حفيده الآن بالعرفان.

ترى أهي ثقافة الاعتراف والتي اخترقت أدبياتها هذه المرة ذهن نامق بسهم هزَّاع، فراق له ما عصفه هذا السهم من أفكار نزفت دماء من وريد عقله الأبهر؟

أخيرًا.. قالتها منار في سعادة عندما أخبرها نامق بتمكنه من الحصول على إجازة لمدة أسبوع كما استطاع من خلال أحد عملاء المصنع الذي يمتلك عدة محلات لبيع الملابس الجاهزة في واحد من أهم شوارع مرسى مطروح أن يحجز شقة بسعر خرافي في هذا الوقت من العام...

ردَّ عليها.. أخيرًا يا زوجتي العزيزة.. حأخطفك وأروح بعيد...

لم تكن الفرحة قاصرة فقط على منار فكاد نامق هو الآخر يطير فرحًا ليس فقط بسبب الإجازة التي يحتاجها أيما احتياج ولكن لأنه شعر في قريرته أنه ذاهب لزيارة البحر.. وأي بحر.. البحر الذي جاء من خلفه يومًا ما جده الأقدم ليستوطن المحروسة.

بحر الاختلاف دون خلاف.

بحر الحضارات.. بحر الجمال والنقاء.. بحر المدينة والمدنية.

بحر النور.

البحر الذي تقع خلفه أحب بلاد الله إليه.. اليونان..

وهاهما يقفان أمامه يتأملان أمواجه تتلاطم.. وعجبًا.. الطبيعة مهما بلغ صخبها ليست مزعجة... مهما علا صوت الأمواج فلهديرها نغم ولو زقزقرت آلاف العصافير فلا ضجيج لزقزقتها، ومهما هبَّت الرياح لا يزعج الأذن صريرها.

وقف أمام شاطئ البحر حاضنًا خصر منار بيده فنظرت إليه باسمة:

ـ أنا عارفة إنك بتحب البحر..

ردَّ شاخصًا ببصره إلى الطرف الآخر من الشاطئ..

ـ العالم مليء بالبحار.. أحمر وأسود.. لكن الأبيض مختلف.

باسمة:

ـ عنصرية...

وهو لا يزال ناظرًا إلى الأفق البعيد:

ـ أعترف.. والاعتراف تطهر..

نظر إليها قائلًا:

ـ قربي مني عايز أقولك حاجة.

ردت في مكر:

ـ بعد النظرة دي.. يبقى أكيد حاجة مهمة.

جلسا على الرمال الدافئة... احتضنها بإحدى يديه وأمسك الرمال بقبضتة الأخرى ثم رفع ذراعه إلى الهواء مُفلتًا حبات الرمال التي سقطت عموديًّا قبل أن تتطاير بفعل الهواء:

ـ الحكاية طويلة يا منار... حكاية حضارات بادت وثقافات كانت،

لم تنقطع أواصر الالتقاء بين شعوب المتوسط على مر التاريخ وكانت عمليات التثاقف والتلاقح الحضاري تتم بكل الوسائل، تعرفي إن كل فترة تلح عليَّ فكرة، رغبة تراودني من حين لآخر.

مُتذكرة:

ـ جماعة البايب والبابيون.

ـ ضحك.. لأ حاجة تانية، نفسي أبني مدينة..

تُشكل منار بيدها مجسمًا في الهواء يوحي بالتضخم:

ـ مدينة.. مدينة كاملة.. عندهم حق يقولوا عليك مـ.. بترت جملتها فقد أحسَّت بتجاوزها في الكلام فأكمل هو التشبيه الكامن في نيته جملتها المبتورة:

ـ مجنون مش كده.

منار بسؤال بدا وكأنه اعتذار:

أي مدينة؟

شرد ساهمًا... متمنيًا:

ـ هيلينيا... اسمها مشتق من اسم هيلين ابنة زيوس كبير الآلهة عند اليونان.. مدينة تنمو دائريًّا.. دائرة صغيرة وتتسع أفقيًّا.. تسبق العشوائية

بخطوة... مدينة عبقرية التخطيط.. يمكن الوصول من أي مكان لأي مكان فيها دون الوقوف في إشارة مرور واحدة... استخدام وسائل المواصلات العامة هي الأساس والسيارات الخاصة الاستثناء... مدينة للفنون والجمال، يوضع بها تماثيل لكل شخصيات حضارة البحر المتوسط.. مدينة عظيمة تتسع لكل الثقافات واللغات والأعراق والأديان...السيادة فيها للنموذج.. نموذج التعايش والتثاقف.

ثم أكمل بتركيز:

ـ وأهم ما في المدينة هو البرج.

مُرددة في استفهام:

ـ برج؟

موضحًا:

ـ برج هائل عظيم البناء.. يقع على أعلى ربوة بالقرب من البحر.. ويكون مُميزًا بميزة متفردة.

منار وقد أثارها الفضول:

ـ أي ميزة؟

أجابها حالمًا:

ـ إنه يرى أوروبا بالعين المجردة...

ـ من يقف أعلى البرج يستطيع أن يرى الأنوار الأوروبية بالعين المجردة.

ضحكت وقالت متعجبة:

ـ بالعين المجردة... المرة دي بقى مش حانكسف... مجنوووووون..

وقبل أن يهم باستكمال الكلام قطع كلامه رنين مفاجئ لتليفونه المحمول.. التقط الجهاز فرأى كما توقع رقم إدارة المصنع.. وبصورة عفوية قام من مكانه ليرد على استفسارات الإدارة بخصوص بعض الأمور المتعلقة بالعمل، فعادت منار للجلوس أسفل المظلة، التقطت جهاز الآي باد من حقيبتها وشرعت في القراءة فقد تغير الحال وتبدلت الأزمان وبعدما كانت المعرفة عسيرة وتتطلب أيامًا من البحث والتقصي أضحى الأمر الآن يسيرًا، وعلى نفس شاطئ اليم الذي طالما ألقى طرحه علمًا ونورًا جلست تقرأ:

كان حوض البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارة العالمية منذ المستوطنات الأولى التي أقيمت في عام 9000 قبل الميلاد في أريحا. والبحر الأبيض المتوسط معروف في اللغة الإنجليزية واللغات ذات الأصل اللاتيني بأنه البحر الذي "يتوسط الأراضي"، وأطلقت عليه العديد من التسميات: بحرنا بالنسبة للرومان، والبحر الأبيض بالنسبة للأتراك، والبحر الكبير بالنسبة لليهود، والبحر المتوسط بالنسبة للألمان، وثمة احتمال أن قدماء المصريين أسموه الأخضر الكبير.

أدى البحر المتوسط دورًا رئيسيًّا في الاتصالات بين الشعوب حوله، وحال

دون وقوع اشتباكات بين الشعوب ذات المصالح المختلفة من أجزاء مختلفة للحوض. وتوضح خريطة العالم الموقع والشكل الفريد للأبيض المتوسط فلا يوجد مثيل لحوضه في العالم، فشكله وجُزره وخلجانه ومضايقه يخلق وسائل لربط الشعوب التي تعيش حوله، ويبدو كما لو كان بحرًا مغلقًا، ولكنه يوفر طرق النقل الرئيسية بين الشرق والغرب.

وكانت مكتبة الإسكندرية القديمة في مصر منذ إنشائها في عام 300 قبل الميلاد، واحدة من أكبر وأهم المكتبات في العالم القديم. كما نشأت التطورات الفكرية الأولى في شرق البحر المتوسط، وركزت أساسًا على الفلسفة وأتيحت للناس حول الأبيض المتوسط فرص لا حدود لها لالتقاء الثقافات المختلفة والتعرف على العالم، وأفضى هذا الالتقاء إلى ظهور فلاسفة قدموا مساهمات كبيرة في التطور الفكري. وكان من بينهم تاليس وأناكسيمنديس، وفيثاغورس، وزينوفينس، وديوجين من أبولو، وأبقراط، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو (القرون السادس والخامس والرابع قبل الميلاد). وبين عامي 622 و750م، وظلت الأندلس في أيبيريا والمغرب مركزين ثقافيين لعدة قرون ومن القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر، وكان لكثير من الفلاسفة أثر ملحوظ على تطور الفلسفة في المنطقة، ومن بينهم جابر بن حيان، والفارابي، والبيروني، وابن سينا، وابن رشد، وجلال الدين الرومي وابن خلدون.[1]

(1) بتصرف واختصار https://unchronicle.un.org/ar/article

أنهى مكالمته ونظر إلى منار وهي تقرأ وشرد ببصره مسترجعًا تلك الرغبة التي يُذكره بها الشاطئ فكثيرًا ما حلم وهو مراهق بتحقيق المشهد السينمائي الشهير بين البطل والبطلة حيث المداعبات بين أحضان وقبلات ثم ما يلبثا أن يتطارحا الغرام على الرمال استكمالًا لما كانا يفعلاه في المياه ولكن بطبيعة الحال كان الواقع أبعد ما يكون عن تحقيق تلك الرغبة الدفينة فانتبه أن عليه ألا يقع في التناقض وينفصل عن الواقع.

نظرت إليه وابتسمت وكأنها قرأت ما يدور في ذهنه قائلة له:

ـ الناس كلها فاكراك مؤدب أنا الوحيدة إللي عارفة الحقيقة.

ردَّ بحنان:

ـ مفيش غيرك يا منار.

أجابته بصدق:

ـ مفيش غيرك يا نامق.

وما هي إلا لحظات حتى التقيا على غرام أعمق بكثير مما كان يسمح به التطارح على الرمال كما كان يحلم.

مر الأسبوع سريعًا.. وعاد إلى الواقع وصاح الجرس مُعلنًا بدء فترة الاستراحة اليومية، صعد نامق من المخزن الذي يقبع أسفل المصنع إلى

مكان استراحة الإداريين وما هي إلا لحظات حتى جاء عيد من عنبر الماكينات فإذا بإحدى زميلاتهم تبادر قائلة:

ـ إعملوا معروف بلاش نقار أنا مصدعة.

ضحك عيد وقال:

ـ إنت على طول مصدعة يا داليا.

داليا وعلى وجهها علامات الحزن:

ـ لأ بجد.. كفاية إللي أنا فيه.

عيد متعجبًا:

مالك يا داليا.. مش عادتك.. أنا حتى ملاحظ إن بقى لك كام يوم كلامك قليل على غير العادة وكمان هادية كده وساكتة.. إيه الأدب ده كله... من إمتى؟

ابتسم نامق ولم يعقب فقد أخذ على نفسه عهدًا بألا يتعامل مع داليا إلا فيما يخص شئون العمل فقط بسبب لسانها الذي لم يستسغ ما يخرج منه من ألفاظ وعلى الرغم من أن داليا كانت تعرف هذا فإنها قالت له:

ـ افتكرتك إمبارح يا سقراط المنطقة.

نامق في قلق:

ـ خيرًا.

في لهجة لم تستطع مُداراة رنة الحزن فيها:

ـ أختي إطلقت.

نامق مستفهمًا:

ـ وأنا إيه علاقتي بطلاق أختك يا داليا؟

مُفسرة:

ـ إطلقت غيابي.. اكتشفنا إن جوزها الندل طلقها غيابي قبل ما يتوفى ورغم كده عاش معاها فترة طويلة وهِيه طليقته... يعني هِيه دلوقتي ملهاش أي حقوق زي ما فهمنا من المحامي.

مُكرِرًا استفهامه:

ـ برضه أنا مش فاهم إيه علاقتي أنا بطلاق أختك سواء كان غيابي أو حضوري.

مُوضِّحة:

ـ إفتكرت كلامك ونقارك مع عيد.

التفتت داليا إلى عيد..

ـ الصراحة نامق عنده حق.. أنا لأول مرة أحس إنه بيفهم..

ابتلع نامق الإهانة الضمنية في قول داليا.. ربما بسبب ما تحكيه عن الطريقة التي طُلقت بها أختها وأيضًا بسبب معرفته المسبقة بنوعية الألفاظ

التي تخرج منها تلقائيًّا، ليس معه وحده ولكن مع الجميع فلم يسلم أحد من لسانها.

أكملت دامعة:

ـ فجأة اكتشفت أختي إنها مُطلقة... نامق كان عنده حق لمَّا كان بيقولك على ضرورة إن الطلاق لا يجب ألا يقع إلا أمام القاضي.. مش هُوه كان بيقول كده برضه.. وقتها كلامكم إتقطع فجأة لأن وقت الراحة خلص.. إفتكرت الجملة دي إمبارح.

عيد بلا مبالاة ليست غريبة على عقليته السلفية:

ـ يقع الطلاق صحيحًا بمجرد التلفظ ولا يشترط وقوعه أمام قاضٍ أو شهود.

نامق مستدركًا:

ـ إلا إذا...

عيد مستفهمًا:

ـ إلا إذا إيه؟

نامق بهدوء:

إلا إذا اشترط المتعاقدان ذلك في عقد القران.

داليا مستوضحة:

وهل ده ممكن في الشرع؟ يعني زي ما بيقولوا كده جائز شرعًا.

نامق واثقًا:

ـ الزواج عقد.. عقد قران.. ومثله مثل أي عقد يمكن للطرفين وضع شروط يتوافقون عليها... يعني ممكن مثلًا إن الزوجة أو وليَّها يشترط توفر السكن في مكان معين أو عدم الزواج بأخرى[1] وغير ذلك... وعليه يمكن لولي الأمر أن يشترط ألا يقع الطلاق إلا أمام القاضي ويكون هذا الشرط ملزمًا عقديًّا فإذا تلفظ الزوج بلفظ التطليق فإن الطلاق لا يقع شرعًا نظرًا لمخالفته شرطًا من الشروط المُنشئة للعقد.

عيد: ده صحيح.. واستدرك سريعًا بجملة احترازية.. على حد علمي.

ـ إنت جاي تقول ده دلوقت بعد أختي ما إطلقت.

ـ هُوه أنا السبب يعني!

(1) فعلها رفاعة الطهطاوي.. ووثيقة تعهده على عدم زواجه بأخرى، وإلا تُعد زوجته الأولى خالصة (طالق) هذه الوثيقة موجودة ومنشورة ونجتزئ منها ما يخدم سياقنا دون إخلال بجوهر نص الوثيقة ما يلي.. "فإذا تزوَّج بزوجة أيامًا كانت بنت خاله بمجرد العقد خالصة بالثلاثة وكذلك إذا تمتع بجارية ملك يمين ولكن وعدها وعدًا صحيحًا لا يُنقض ولا يخل أنها ما دامت معه على المحبَّة المعهودة مقيمة على الأمانة والحفظ لبيتها ولأولادها ولخدمها ولجواريها ساكنة معه في محل سكناه لن يتزوج بغيرها أصلًا ولا يتمتَّع بجوار أصلًا ولا يُخرجها من عصمته حتى يقضي الله لأحدهما بقضاء".

نامق: لا يا عيد مش إنت السبب.. لكن الضمير الجمعي هُوه السبب، العادات والعرف ورفض التجديد.. والاجتهاد إللي أصبح تهمة.

عيد بعد أن مطَّ شفتيه: المجتمع متعنت في الأمور دي.. وكمان المؤسسات الرسمية.. الموضوع متعدد الأبعاد... وخصوصًا إن الموضوع له علاقة بالأحوال الشخصية، الناس بتطمئن للموروث المتواتر... اطمئنان نفسي واجتماعي.

نامق مصدقًا على كلام عيد:

وهُوه ده لُب الأزمة.. الأسبقية للنواقل لا للعواقل أو مقتضيات الواقع.. أزمة أخت داليا ليست متفردة.. الأزمة أعم وأشمل..

عيد: لا أحد يجبر أحد.. إذا كان من شروط الزواج الإيجاب والقبول.. بسيطة يتفق الطرفان على شروط تُذكر في عقد الزواج.. عقد القران.

ـ كده تبقى إنت مفصول عن الواقع يا عيد.

ـ بعصبية:

ـ حيرتنى معاك يا نامق.. إيه التناقض ده! ننفصل عن الواقع ونفذ كلامك ولَّا نخضع للواقع ونتقبل ما حدث لأخت داليا.

نامق بهدوء:

ـ التفسير في منتهى البساطة ولا تناقض فيه.. هناك بعض الأمور

لا يمكن أن تتم بصورة فردية.. أبرزها عقود الزواج.. لا يمكن ترك بنود عقود الزواج مفتوحة لا بد من صيانة الدولة لحقوق الطرفين.. الطرفين على فكرة، مش بس الزوجة..

داليا بأدب شديد وبلهجة بدت غريبة عليها:

ـ وضّح والنبي يا نامق.

عيد: لا تحلفي بغير الله.

نامق موضحًا:

ـ عقد القران يجب أن تكون صيغته صيغة رسمية لا مناص منها وإلا لا يتم توثيق العقد أمام الجهات الرسمية وتكون هِيه دي وسيلة الضغط على ثقافة مجتمع إحنا كلنا عارفين مواصفاته.. صيغة تلزم الزوج كشرط القبول له وأيضًا كشرط منشئ للعقد بألا يقع الطلاق إلا أمام القاضي.. وإن حدث وتلفظ الزوج بلفظ الطلاق فإن الطلاق لا يقع شرعًا ولا قانونًا لأنه بذلك خالف شرط القبول المنصوص عليه في العقد.. وأيضًا كركن من أركان العقد حيث إن هذا الشرط وقع كشرط منشئ للعقد.. عقد القران.

ـ فلندع الأمر للتقدير الشخصي لكل حالة.. إنت ليه تطلب الإلزام للجميع؟

نامق مُسترسلًا: للمرة الثانية.. رجعت تاني للانفصال عن الواقع، من

المستحيل على مجتمع تركيبته العامة ما بين ريفية وشعبية أن يضع شروطًا في موضوع زي ده تحديدًا لأن من المؤكد إن العقلية الذكورية العامة سترفضها.. من يقبل أن يتمم زواجه بعروس يشترط وليُّها عليه أي شروط غير ما هو متوارث.. إنت يا عيد تعرف جيدًا قسوة المتوارث وسطوته.

داليا: والحل في الإلزام.. أنا كده فهمت صح؟

نامق مؤكدًا:

ـ صح.. لو أصبح عقد القران الرسمي والوحيد المعترف به أمام المحاكم ينص على ألا يقع الطلاق إلا أمام القاضي.. حينئذ قضي الأمر الذي فيه تستفيان وأصبح المجتمع بكل موروثه أمام أمر واقع لا مهرب منه.. رغم غباء كثير من العادات والتقاليد في مجتمعاتنا فإن من ضمن الحسنات هي انقياد العامة للجهات الرسمية وخصوصًا في الأحوال الشخصية بسبب حساسيتها وأيضًا لحفظ الأنساب والحقوق.

ـ الموضوع يلزمه فتوى.

نامق بأصبعيه: فتوتان.. فتوى من أساطين السلفية وأرباب الفضائيات من جهة، وفتوى من الجهات الرسمية من جهة أخرى، الموضوع شائك.

وقبل أن يهم عيد بالحديث صرخ الجرس معلنًا انتهاء فترة الراحة.

قال نامق لعيد بأسلوب تقريري قبل أن ينصرفا:

ـ ليس كل الخير في اتباع من سلف وليس كل الشر في ابتداع من خلف...

لكن الخير كل الخير في التعاطي مع الواقع.. مع الحاضر.. السلف لم يكونوا سلفًا في أوانهم، بل كانوا معاصرين لزمانهم وأغلبية الفتاوى التي أصبحت الآن مراجع في أمهات الكتب كانت في الحقيقة فتاوى حديثة في زمانها وربما تكون أثارت لغطًا وقتها.. لكن المشكلة دائمًا في (لا) في وجاهة الرفض أو ابتغاء الأمان فيه.

لم ينجح المقهى في تغيير شيء في شخصية مرقص ربما لأنه ذهب إليه متأخرًا بعدما تشكلت شخصيته بالفعل على مر السنين، أو ربما بسبب طبيعته وطريقة تفكيره أو قد تكون جينات تجري في عروقه تقاوم التغيير، سارت حياة مرقص ومادلين بصورة روتينية، حياة عادية مثل حياة ملايين الأزواج في مصر، يختلفان، يتشاجران، حدة مرقص كانت شديدة.. حادًّا في كل شيء.. مبالغًا في كل أمر... هذا غير ذاتيته الشديدة وفشله الذريع في التواصل إنسانيًّا مع شريكة حياته، وقفت طبيعته التي لا تقوى إلا على العلاقات الضحلة عائقًا مناقضًا لجوهر الزواج وأسسه التي تأسس عليها، المشاركة الوجدانية التي لا تقل في أهميتها عن المشاركة الجسدية، تأزمت علاقته بمادلين مع مرور الأيام، نسي أن رغم وداعتها وروحها الداجنة أنها في النهاية إنسان، دبَّت بينهما المشاحنات.. بدأت بسيطة وعلى فترات متباعدة وما لبثت أن كثرت مع الوقت، يأتي الأهل إليهم مرة لمصالحتهما ويذهبان إلى الكنيسة مرات لطلب المشورة، حتى استعصت علاقتهما على التوافق ووصلا إلى طريق مسدود... ولم يكن هناك من حل لتلك العلاقة المأزومة

إلا رحيل أحد الطرفين عن المنزل... فرحلت مادلين إلى بيت أبيها.

ظلت شهورًا في بيت أبيها ولم يحاول مرقص أن يسأل عنها.. ساعد انشغاله طوال اليوم فضلًا عن طبيعته العنيدة في تجاهل غيابها ثم عادت إلى البيت مرة أخرى بعد إلحاح شديد من أهلها كالعادة.. عادت وهي تحمل في نفسها جرحًا غائرًا تجاه زوجها الذي لم يحاول الاتصال بها أو استرضاءها حين غابت عن المنزل شهورًا.

تغيرت مادلين كثيرًا، أصبحت صامتة في أغلب الأوقات، في عيونها مسحة ألم لم يُعِره مرقص في البداية اهتمامًا، عزى ذلك إلى أنها لا زالت تعاني من آثار الأزمة التي مرت بهما مؤخرًا، ولكن حالتها طالت عما هو متوقع حتى شعر في قرارة نفسه بأن في الأمر شيئًا ما، بدأ الشك يتسرب إلى عقله، شك تعضده شواهد، لا يتصل بها إلا ويجد التليفون مشغولًا وعندما سألها ذات مرة عمن كانت تحدثه أجابت بأنها كانت تتحدث مع خدمة العملاء، انتهز وقتًا مناسبًا وأمسك بجهازها المحمول باحثًا عن الأرقام الواردة إليه والصادرة عنه.. فوجد أن جميع الأرقام مُمحاة.. تحول الشك إلى هاجس والهاجس إلى وسواس حتى عزم أمره على تتبعها.

كان الموضوع بسيطًا.. يذهب إلى عمله صباحًا كل يوم كالمعتاد ومنه إلى عمله المسائي، وفي الموعد الذي تتفق فيه مع رفيقها على اللقاء تتصل بمرقص لسؤاله عن أي شيء وما إن تتيقن من وجوده في مقر عمله حتى تذهب إلى من ترافقه.

لا يوجد شيء في الحياة أسهل من اصطياد الضعفاء.. هم بطبيعتهم يكونون مُهيئين للسقوط.. كانت مادلين ونتيجة تأزم علاقتها بمرقص في أضعف حالاتها وهناك دومًا من يرصد، ويرقُب ويتابع ويعرف بخبرته الشيطانية مكامن ضعف النفوس، لا أحد لا يحكي، الناس جميعهم يحكون كل شيء.. يخبرون الأقرباء والأقرباء يحكون للغرباء.. وكثير من الناس حياتهم على المشاع ليس بسبب فضول الآخرين وتطفلهم على حياتهم ولكن بسبب عدم استطاعتهم كتمان شئونهم، فالكتمان فضيلة لا يقوى عليها إلا أولو العزم من البشر ولا يستطيعها إلا الناضجون وما أندرهم في هذه الحياة.

هناك في إحدى المناطق الجديدة التي باتت شاخصة على تخوم القاهرة، وفي فيلا لا تزال تحت التجهيز كانت مادلين تلاقي خدنها، لم يكن الأمر صعبًا عليها، تصل إليه بواسطة إحدى شركات سيارات الأجرة التي بدأت تتواجد في الشارع المصري كبديل عن فُحش سائقي الأجرة العاديين واستغلالهم المعروف لركابهم..

تعددت اللقاءات بينهما حتى تتبعها مرقص أثناء ذهابها في أحد الأيام، وها هي زوجته تترجل من سيارة الأجرة إلى الداخل، فتح مرقص باب سيارته ولكن بالكاد وقبل أن ينزل منها سمع دوي بعض السيارت من خلفه تطلب منه التحرك.. نسي في غمرة انفعاله أنه يكاد يقف في منتصف الطريق، كما لم ينتبه إلى أنه لا يحمل أي سلاح من أي نوع، تفكيره بالكامل

اتجه إلى قطع الشك باليقين فلم يعد في ذهنه مساحة للتفكير في أي أمر آخر كما أنه مثل أغلبية الناس لا يملك سلاحًا من الأساس، ومن شدة توتره صدم أحد عمال البناء المنتشرين في هذه البقعة السكنية الجديدة والذي سقط على الأرض من شدة الفزعة لا من شدة الاصطدام، فنزل من سيارته ملهوفًا على مَن صدمه خشية أن يكون قد حدث له مكروه ولكن الله سلم وتمَّت ترضيته سريعًا بعد الاعتذارات المعتادة ثم استغرق الأمر منه بعض الوقت قبل أن يجد مكانًا يرمي فيه سيارته قبل أن ينطلق إلى داخل الفيلا.

ساعد المكان النائي وطبيعة الفيلا التي لا زالت في طور التشطيب على دخول مرقص إليها دون أن يثير جلبة أو يحتاج إلى الاستئذان والذي إن تم فمن المؤكد أنه سوف يُفسد الموضوع برمته... وقف صامتًا بجانب أحد الحوائط، كانت الفيلا خالية وكأن صاحبها قد رتب الأمر سلفًا في أن تأتي ضيفته في يوم خالٍ من العمال، التفت مرقص يمينًا ويسارًا وما هي إلا لحظات حتى صعد الدَّرج إلى أعلى وهاله ما رأى.

كان الوضع مخزيًا، فما رآه مرقص رأي العين لم يدع له مجالًا لأي شك في خيانة زوجته، زنا كامل لا ريب فيه... ورغم أن مرقص توقع ما سوف يراه إلى حد اليقين فإن التوقع شيء وتأثير رؤيا العين شيء مختلف تمامًا.

لم يستغرق الأمر إلا لحظات من الخائن الذي تفهم الوضع في ثوانٍ بحكم خبرته المديدة في اصطياد الزوجات على اختلاف دياناتهم فلم يكن لديه مشكلة في هذا الأمر فمثله لا يأبه كثيرًا لديانة خدينته، وفي خلال

دقائق كان الموقف بالكامل تحت سيطرة الأقوى بدنيًّا وليس الأقوى وضعًا فالسيطرة دومًا لصاحب القوة لا لصاحب الحق.. سقط مرقص مُضرجًا في دمائه في حالة دوار بعد شجار لم يدم طويلًا، فارِق القوة الجسدية لم يكن في صالح الزوج المغدور رغم شدة انفعاله ولكن الخائن كان هو الآخر وكأنه مُدرب وعلى أهبة الاستعداد دومًا لمثل هذه المواقف، بعدها انطلقت مادلين في سيارة خليلها تاركينه مغشيًّا عليه في حالة يرثى لها.

وتصرفت بدهاء النساء، تحركت سريعًا قبل أن يبادر مرقص بأي فعل بعدما حدث.. ذهبت باكية منهارة إلى منزل والدها، استطاعت بسهولة أن تحيك قصة اتهامه لها بالخيانة وبأنها ليست المرة الأولى التي يشك فيها، وبأنها احتملته كثيرًا حتى فاض بها الكيل هذه المرة وأنها لن تعود إلى منزل زوجها مرة أخرى وقررت أن تبقى في بيت أبيها حيث الأمان والكرامة.. لم يكذبها أحد من أسرتها، أساسًا لم يكن أحد منهم يملك غير تصديقها لأن كذب روايتها ليست في صالحهم ولا في صالح أخواتها البنات اللائي لم يتزوجن بعد.

لم تكن العلاقة بينها وبين زوجها على مايرام مصداقًا لقول الشاعر:

من لم تجانسهُ فاحذر أنْ تجالسَهُ ما ضرَّ بالشمع إلا صُحبة الفِتلِ[1]

(1) البيت للشاعر: صالح طه ردًّا على الشاعر أبو إسحاق الغزي الذي قام بنظم بيت من الشعر جاء في شكل سؤال وهو:

ما لي أرى الشمع يبكي في مواقده من حرقة النار أم من فرقة العسل؟

وجود الفتيل في الشمع _وهو ليس من جنسه وفصيلته_ كان سببًا في حرقه وهكذا البشر فقد تحترق حياتنا بسببهم ويسيل دمعنا بكاء مثل الشمع يوم لا ينفع البكاء.. كما لم ينفع رضوى... فالفارق بينها وبينه لم يكن فارقًا في العمر ولا في التعليم ولا في المستوى المادي أو الاجتماعي ولكن الفارق تجلَّى في المستوى الفكري، الاهتمامات، الآراء، لم تكن رضوى ثورية أو متنمرة، ولكن مختلفة، عندما تنظر في المرآة لا ترى وجهها ولكن ترى عقلها، وكان زوجها على عكسها، شخصًا عاديًّا.. أما الكارثة التي اكتشفتها فكانت أن له ميولًا إخوانية، رغم أنه لم ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين رسميًّا.. مثله مثل الآلاف الذين يقولون إنهم ليسوا من الإخوان ولكن الهوى معهم، هذا بالإضافة إلى سلفيته والتي لم تكتشفها إلا بعد زواجهما حيث استطاع أن يخفيها بمكر ومهارة، لم يكن يحيى سلفيًّا في المظهر الذي يتميز بلحية هائلة وجلباب قصير ولحن القول، سلفيته سلفية عقلية، سلفية التفكير والمرجعية، ورغم عمله في التدريس الجامعي حيث يفترض فيه توفر الروح الأكاديمية الموضوعية فإن كل هذا لم يمنع من إصابته بداء الدوجما، التعصب والانغلاق، لم تكن المشكلة بين رضوى ويحيى أنهما مختلفان ولكن المشكلة الحقيقية أنهما متناقضان، ليسا من نفس الفصيلة.. ما بينهما هو اللامزج.. فالاختلاف لا يمنع من التمازج، ربما يمنع الذوبان طالما أن المختلفين بينهما نقاط تقابل مشتركة على نفس الأرضية وهذا ما لم يكن متوفرًا في علاقة رضوى ويحيى.. رضوى نسوية ويحيى

ذكوري فوقع التضاد بين النسوية والذكورية فالاختلاف لم يكن بين زوج وزوجة، ولا حتى بين ذكر وأنثى ولكن الاختلاف كان بين نسوية رضوى وذكورية يحيى.

كثيرًا ما شكت رضوى زوجها إلى أبيها، ليس من سوء معاملته لها، الشكوى من شُح الفكر وضحالة العقل، ارتدت رضوى الحجاب بعد زواجها من يحيى بعد إلحاح شديد منه بعدما عاشت مثل والدتها سافرة الرأس والعقل، لا يحد تفكيرها حد ولايمنعها شيء عن إبداء رأيها وكل هذا تغير بعد الزواج.. لم تصدق أنها تزوجت من شخص مثل يحيى فلم يبدُ عليه أي مظهر من مظاهر الانغلاق أو التعصب عندما تقدم لخطبتها، ثراؤه وثراء والده ومظهر إخوته البنات العادي كان يخفي وراءه أشياء كثيرة أعلنت عنها الأيام، هذا غير أنه يعمل في السلك الجامعي... أستاذ أكاديمي.. مما كان يطمئنها قليلًا عندما تقدم للزواج بها، ولكن من الواضح أن كل هذا لا قيمة له أمام ما يعشعش في الرؤوس، احتملت رضوى ما احتملت حتى ضاق بها الحال ووصلت إلى نقطة اللاعودة، فقد حدث لها من أسرته الريفية وبعلمه ورضاه ما لم يخطر لها على بال في يوم من الأيام وكانت القاصمة.

ففي ذات يوم وأثناء زيارة لبيت عائلته دخلت عليها كريمة الأخت الكبرى لزوجها وإذا بها تسألها فجأة سؤالًا فجًّا:

ـ إنت إتطاهرتي يا رضوى؟

بُهتت رضوى من طبيعة موضوع السؤال وأجابت وهي في حالة من الذهول:

ـ إنتِ بتقولي إيه يا كريمة وبتسألي السؤال ده ليه؟

ـ بصراحة يحيى مُحرج يقولك بس إنت عارفة العادات والتقاليد.

ـ عادات إيه وتقاليد إيه! إنت بتقولي إيه؟ صرخت رضوى وهي تنادي على زوجها: يحيى.. يا يحيى...

دخل يحيى وهو يعلم مسبقًا بالسؤال الذي سألته أخته لزوجته.

ـ طبعًا إنت عارف أنا ناديتك ليه؟

ـ عادي يا رضوى... دي عادات وأصول مش ممكن نتجاهلها، الناس بتسأل..

أجابت رضوى في تحدٍّ وقد خرجت تمامًا عن شعورها:

ـ لا يا ست كريمة.. لأ محصلش وإنت يا سي يحيى مش عارف إذا كانت مراتك بعد شهور من الزواج إتطاهــرت ولَّا لأ..

ردت كريمة محاولة تهدئتها:

ـ خلاص يا رضوى.. إهدي شوية.. ده مش أكثر من مجرد سؤال... إنت عارفة الناس ودماغها... وخلاص عرفنا الإجابة.

انفجرت رضوى في البكاء بعد أن انصرفا من أمامهما... وشعرت بالندم أنها تزوجت من هذا الشخص الذي ينتمي للثقافة الريفية بكل ما تحمله من تخلف وغباء وقبح ولم تكن تدري أن الأمر لن يتوقف على مجرد السؤال بل سوف يتعدى إلى ما لم يكن في حُسبانها.

فما هي إلا دقائق قليلة إلا وفوجئت رضوى بكريمة ومعها سيدتان قويتان البنية تدخلان عليها هكذا دون استئذان وبهدوء شديد وابتسامة بدت عادية تمامًا على وجهها:

ـ الموضوع بسيط خالص يا رضوى وحصل لي أنا شخصيًّا وعلى إيد الحاجة فايزة.. ما تخفيش.

ردت رضوى فحتى اللحظة لم يصل ذهنها إلى استنتاج سببية الحوار رغم وضوحه منذ البداية:

ـ موضوع إيه... إنتِ عايزه إيه ومين دول؟

وجاء الرد عمليًّا بلا شرح أو مقدمات... أمسكت بها كريمة ومعها إحدى السيدتين وقامت المدعوة فايزة بسحب القطعة السفلى من الملابس الداخلية ثم أخرجت من طيات ملابسها شفرة رأتها رضوى رأي العين، وعندئذ تنبهت لما سيحدث لها.

ـ عملية ختان.

ـ ختان في مثل هذا العمر.

صرخـت رضوى وضاع صراخها في فضاء الجهل، وغياهب العقول الآسـنة والتقاليـد البالية... ضاع صراخها وضاع معه آخر إحسـاس لها بالآدمية...

بعد مرور كامل اليوم التالي حيث لم تستطع التحرك من الفراش بعدما حدث لها مباشرة ومع تباشير الصباح كانت رضوى في طريقها إلى منزل أبيها... لا تعرف كيف قادت سيارتها وهي أساسًا لا تشعر بنفسها.

علاقة نادرة... هكذا يمكن وصف العلاقة الزوجية بين نامق ومنار.. هو الفتى الملكي وهي الصحفية اليسارية.. مشغولان طوال الوقت.. ما بين عمل صباحي ومسائي.. ربطتهما أواصر العقلية المشتركة المحبة للفكر والثقافة والاهتمام بالشأن العام.

ها هو يجلس وهو يمسك بيده كتاب يقرؤه وزوجته على بعد متر منه تجلس إلى لوحتها التي تتلقى ضربات فرشاتها.

شرد نامق بذهنه مُسترجعًا ذكرى مشهد قديم استدعته تلك الجلسة مع زوجته...مشهد أبيه وهو جالس يقرأ كتابًا في وقار وبجواره والدته تطالع مجلة حواء أو تتابع آخر خطوط التصاميم الجديدة للملابس في مجلة بوردا، كَمُنت تلك الذكرى في داخله سنوات حتى جاءته طيفًا من غياهب السويداء شاخصة كعيان على موعد بالتكرار، فتلك ذكريات لا يطويها النسيان.

ولم تمر الذكرى مرور الكرام، ضغطت عليه حتى انفجر ناطقًا:

ـ الناس بطلت تفصَّل.

نظرت إليه دهشة:

إنت بتقول إيه يانامق؟!

انتبه إلى أن منار لا تطالع ما اعتراه من شجن الذكريات.

ـ الناس زمان كانت بتفصَّل ملابسها.. تعرفي إني عندي اعتقاد إن ترك تفصيل الملابس والاكتفاء بالملابس الجاهزة ساعد على انحدار الذوق العام..

ردت دون أن تترك فرشاتها:

ـ عملك في مصنع الملابس أثر عليك فبتهرب لفكرة تفصيل الملابس.. ربما بسبب كراهيتك الباطنية لشُغلك.

ابتسم لتفسيرها وكأنها قد أصابها العدوى من طريقته هو في التفكير...

ـ إطلاقًا.. أنا بالفعل طول عمري مقتنع إن تفصيل الملابس رفعة ونزاهة.. شكل من أشكال الاعتداد بالذات واحترام الإنسان لنفسه، بالضبط زي الفرق بين اللوحة المرسومة وبين الصورة الفوتوغرافية.

ابتسمت لهذا التشبيه الذي لا يخلو من مبالغة.

أكمل ضاحكًا:

ـ فاكرة أول مرة إتقابلنا فيها..

ـ طبعًا فاكرة.. كان حوار تشكيلي... يومها روَّحت وأنا رافضة تمامًا كل آرائك.

ـ إحنا على طول مختلفين مش بس في الآراء الفنية، حتى في السياسة والتاريخ مختلفين دائمًا، على فكرة بتوع الخدمة الاجتماعية بيسموا النوعية دي من العلاقة باسم: قانون المسافة الأنسب.. يعني شيء من الاتفاق لضمان الاستمرارية وشيء من الاختلاف لضمان الحيوية.

نظرت منار إلى لوحتها التي أنهتها للتو وقالت له:

ـ إيه رأيك؟

ردَّ سريعًا:

ـ نمطية.

مُتعجبة:

ـ لا والله!

ـ آه والله بجد.. نمطية جدًّا.. الشمس لونها أزرق والسماء لونها أخضر، والبحر مجموعة ألوان متداخلة.

منار في حيرة:

ـ وهِيَّه كده تبقى نمطية.. هِيَّه الشمس لونها أزرق!

نامق بتأكيد:

ـ طبعًا، النمطي حاليًّا هو "الأي حاجة". العادي هو الانفصال عن الواقع.. يعني لو القمر لونه كحلي في لوحة من اللوحات تبقى لوحة نمطية قياسًا على المطروح في سوق الفن التشكيلي أو نقول سويقة الفن التشكيلي...

منار وقد بدا عليها الضيق:

ـ الانفصال عن الواقع بقى عقدة عندك... خلاص نرجع تاني نرسم كلنا لوحة طبق الفاكهة مش ده رأيك؟

متفهمًا:

ـ أو نرجع لمدرسة الباربيزون...

منار وقد اصطادته متناقضًا:

ـ الباربيزون! ومين إللي بيقول كده نامق... الرافض للتريُّف.. النسق الريفي في الحياة والتفكير...

موضحًا:

ـ ظهور الجماعة في قرية باربيزون كان حتمي بعد الثورة الفرنسية... وتأكيدهم على ضرورة الانطباع الشخصي والحرية في التعبير عن الأحاسيس لم يوقعهم في فخ الفوضوية التعبيرية... رسموا أجمل المناظر في الأرياف.. يعني لا تناقض ولا حاجة.. لم يرسموا بنايات في الحقول ولم يصوروا الماشية في المدن... لا مدينيو الريف ولا ريفيو المدينة، كلٌّ في فلك يختصون، المعنى الحقيقي للواقعية الفنية، مدرسة فنية شديدة الاتصال بالواقع، أنا رأيي إنهم كان لهم دور رائع في تفعيل الخصوصية على عكس ما حدث عندنا، على أي حال كونك أنك يسارية يبقى مش غريب إنك تكوني منفصلة عن الواقع حتى في الفن، اليسار نفسه طوال تاريخه كان منفصلًا عن الواقع.

مُدافعة:

ـ منفصل عن الواقع! إذا كان اليسار أساسًا أيديولجية شعبية.. موجهة للشعب.

مُصححًا:

ـ عفوًا.. تقصدي الجماهير.. وعلى أي حال.. فليكن.. التجربة التاريخية أثبتت فشله التام.. الفشل على مستوى الممارسة..

مُعاندة:

ـ العيب مش في الأيديولوجية.. المشكلة في القائمين على تنفيذها... الخطأ في التطبيق.

مُبرهنًا:

ـ حسنًا.. فلننتظر جميعًا.. نحن شعوب العالم الثالث هؤلاء الملائكة الذين سوف يقومون بتطبيق النموذج.

محذرة إياه من التمادي في السخرية منها:

ـ نامق..

ردَّ في مرح:

ـ نامق باشا لو سمحتِ، إنتِ نسيتي ولا إيه.

التفتت إلى لوحتها وقالت بعد أن نظرت إلى نامق نظرة لوم يملؤها الدلال:

ـ أكتر حاجة كنت خايفة منها هي الملل بعد الزواج، اختلافنا ده بالنسبة لي شيء إيجابي.. أكيد دايمًا حنلاقي حاجة نقولها لبعض.. حتى بعد ثلاثين سنة بعد ما نكبر ونعجز.

اعتدل قائلًا:

ـ إللي زينا مش بيعجِّز يا فنانة.. إحنا بنكبر في السن فقط، اهتمامتنا في الحياة بتصُونَّا من الإحساس بإننا عجزنا.. العجز إللي غيرنا بيعرفه، بعد ثلاثين سنة حنقعد قعدة زي دي أنا معايا كتاب وإنت أمام لوحة من لوحاتك.

وضعت فرشاتها واقتربت منه وعقدت كفيها خلف رقبته ثم حكت أنفها بأرنبة أنفه، تلك الحركة الودود وابتسمت رغم الخلاف بعدما تيقنت من مدى توفيقها في اختيار شريك حياتها، إنه الاختلاف وليس التناقض.. ولهذا لم يخافا أبدًا مهما استفحل الخلاف بينهما أن ينالهما عقاب هدهد سليمان، إنهما يتحاوران، يختلفان، يتشاجران وفي النهاية يلتقيان على خط الهوى في فراش دافئ على ضوء الأباجورة التي يحب نامق دومًا أن يرى وجه زوجته عليه.

ذهبت رضوى إلى مقهى البستان، اقترحت عليها رانيا أن تأتي معها حتى تخرج من تلك الحالة المزرية التي تسيطر عليها بعد ما حدث لها.. رفضت رضوى في بداية الأمر ثم استجابت بعد تشجيع غير متوقع من والدها، تعرفت رضوى على من تواجد من أصدقاء رانيا وقت حضورهما وكان منهم عماد سعدان ومن أول وهلة لم ترتَح رضوى له، داهمها شعور باطني بأنه يمثل كل معاني اللامعنى.

إنه عماد سعدان الابن الوحيد لأبيه حامد سعدان... كان هذا الأب مثالًا ونتاجًا لمرحلة السبعينيات بكل ما تحمله من مسخٍ للشخصية الشعبية... توفي أبوه _جد عماد_ وهو لا يزال صغيرًا ورغم تعهد أمه بأنها لن تقصر معه وأنها سوف تفعل ما في وسعها كي يستكمل تعليمه لم يفعل وفضّل الشوارع وما تمنحه للصبية من حرية وانطلاق حتى بلغ مبلغ الشباب، ولم يكن من بدٍّ سوى أن يعمل بعدما بدأ فعل العمر يؤثر على مقدرة أمه

في العمل وخصوصًا أنها كانت تعمل بالأجر الأسبوعي في مصبغة حتى عجزت تمامًا عن الالتزام بدوام العمل فانقطع مورد الدخل الوحيد وعن طريق المعارف وبناء على معرفة بعض الجيرة بظروفها استطاع أحدهم أن يوفر فرصة عمل لحامد سعدان، وألحقه كعامل في أحد المصانع وكالعادة.. صاحَب أصدقاء السوء وأضحى ينفق كثيرًا من دخله على المخدرات تارة وفتيات الليل تارة أخرى، حتى تعرف في الثمانينيات على إنعام، التي كانت تعمل بائعة في أحد المحلات في نفس المنطقة التي يقطن بها، تزوجها في حجرة من الحجرتين التي يتكون منها منزلهم المتواضع.. وعلى عكس المتوقع كانت العلاقة بين الزوجة والأم كأفضل ما يكون، الأم البسيطة والزوجة الخانعة التي لا حول لها ولا قوة، كان والد عماد سيئ الخُلق بطبعه.. كريهًا.. أنانيًّا.. لا يطيق أحدًا.. لا يوجد بينه وبين كراهية نفسه سوى خطوة واحدة، يرفض من داخله الاعتراف بحقيقة وضعه ومكانته في الحياة.. إنه نفس المبدأ المُكرر في مختلف النفوس على تباين الطبقات، الفرق بين رأينا في أنفسنا وبين رأي الحياة فينا وما يحتمه الواقع علينا.. الفرق بين ما نرى أننا نستحقه وما تعطيه لنا الحياة، يفتعل المشاكل مع كل من يرأسه في العمل وخصوصًا إن كان مهندسًا صغيرًا يقاربه في السن.. فهو لا يطيق أن يوجهه أحد، إحساس غير مبرر بالتضخم في الذات.. فلا تعليم ولا أصل ولا ثقافة ولا أي شيء.. خواء تام يغذيه عقدة نقص تكبر داخله مع الأيام.

فعلت المخدرات به الأفاعيل ولم يستمع لـنصيحة أمه بأن عليه أن يفيق مما هو عليه إن لم يكن لنفسه فعلى الأقل للجنين الذي بدأ يتشكل في رحم زوجته، ولا حياة لمن تنادي... وفي إحدى المرات وبسبب غضب أمه الشديد عليه أثناء كلامها معه هوى بصفعة هائلة على وجهها سقطت بعدها مغشيًّا عليها.. ثم تعددت الصفعات.. وما هي إلا شهور حتى رحلت الأم عن الحياة تاركة وراءها ابنًا عاقًّا، له زوجة حامل في الشهور الأولى مغلوبة على أمرها.

ـ حطلقك وأرميك في الشارع إنتِ واللي في بطنك.

كثيرًا ما سمعتها والدة عماد من زوجها المنقوص، تلك الجملة التي تعد صيغتها من المأثورات في مصر والتي كثيرًا ما يتبناها الكثيرون بعظمة ثقافتها الشعبية ويا له من كذب مكين.. احتملت والدة عماد، فلم يكن أمامها من حلٍّ سوى الصبر والاحتمال على الأقل حتى تضع حملها فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا... وحدث ولكن ما حدث لم يكن في صالح الزوجة ولا الوليد الصغير.. لم يتغير حامد سعدان حتى بعدما جاء عماد إلى الحياة.. يزداد انحدارًا مع الوقت ولم يؤثر فيه سوى اعتلال صحته.. قلَّ دخل الأسرة خصوصًا مع ازدياد مصروفات العلاج للأب المخبول وإنجاب إنعام طفلة ثانية استكمالًا لمسيرة العشوائية في حياتهم، فخرجت للعمل تحمل رضيعتها أحيانًا وتضعها بجانبها أحيانًا أخرى حتى أشارت عليها إحداهن أن تتركها لها للتسول بها نظير أجر يومي وقد كان.. أما هي

فوقفت على نَصْبة شاي على ناصية أحد الشوارع الحيوية في القاهرة بعدما أمَّن لها أحد أمناء الشرطة وقوفها نظير معلوم يُدفع له، وكان عماد في تلك الفترة صبيًّا مراهقًا يساعد أمه في عملها وقد بدأت تنمو داخله مشاعر الكراهية للمجتمع، فأكثر من مرة يلاحظ تحرش الرجال بأمه، وهي التي تقف وحدها دون دفيع يدفع عنها شر الشارع... إنها معايير دولة الشارع.. بل كثيرًا ما كان يرى بعدما يرجع من تلبية أحد الطلبات إلى مكان وقوفها أمين الشرطة وهو يقف خلف أمه وهو يكاد يلتصق بإليتيها فيسرع إليها ركضًا وما إن تراه وكأنه الخلاص، حتى تبتعد عن هذا الكريه الذي يلتصق بمؤخرتها فيتحرك ضاحكًا وهو ينظر إلى الصبي في استهزاء ولا مبالاة.. تلك النظرة التي لم ينسها عماد أبدًا، ولكنه تمسك بالذهاب إلى المدرسة بعدما حكى له أبوه في لحظة أبوية نادرة عن ندمه لتركه المدرسة ولو كان استكمل دراسته لأصبح مهندسًا أفضل من هؤلاء المهندسين الأغبياء الذين يمتلئ بهم المصنع الذي يعمل به ويعطون له الأوامر والتعليمات وبالطبع لا يخلو الأمر من جزاءات.. لم يتفوق عماد في الدراسة وعرف الرسوب مرارًا ولكنه وفي النهاية استطاع مدفوعًا بروح العناد والشعور بالنقص الموروث عن أبيه أن يلتحق بإحدى الجامعات بعد ثلاث سنوات رسوب في الثانوية العامة... لم يكن عيب عماد هو الفقر، فالمجتمع الجامعي مليء بأبناء مختلف الطبقات الاجتماعية وأكثرهم فقراء أو الطبقة الوسطى التي تُشكل السواد الأعظم من المجتمع، ولكن ما كان يعيبه هو الحقد والغل والحسد على أبناء البيوت.. من اليوم الأول لدخول عماد إلى الجامعة أحسَّ

بالزهو في أنه استطاع أن ينتسب إلى هذا العالم المخملي الغريب عن كامل البيئة، التي ترعرع فيها.. ومن اللحظة الأولى قرر أن يأخذ أمر الدراسة بجدية خصوصًا بعدما عرف أن من شرط الترشح لاتحاد الطلاب ألَّا يكون الطالب راسبًا.. ولم يكن الطريق إلى اتحاد الطلاب سهلًا.. ولم يستطع عماد أن ينال الموافقة على الترشح فتذكر نصيحة أمه، تلك السيدة البسيطة..

ـ يا ابني إللي ما يرضاش بالخوخ يرضى بشرابه.

فعمل بتلك المقولة بسبب إصراره على دخول هذا المعترك الجامعي بقوة فانتمى إلى إحدى الأسر الطلابية.

زامل عماد نامق في الجامعة رغم اختلاف كليتيهما إلا أنهما تلاقيا في بعض الأنشطة الطلابية المختلفة عن طريق تلك الأسر، ومن هنا بدأ التعارف بين عماد ونامق، كان عماد أكبر من نامق سنًّا نتيجة تعدد مرات رسوبه قبل أن يلتحق بالجامعة على عكس نامق الذي لم يعرف الرسوب أبدًا سواء في المدرسة أو الجامعة وبسبب اختلاف الأخلاق وطريقة التفكير والسلوكيات الناجمة عن تضاد التكوين وفروق الأصل والمنبع حدثت أكثر من مشادة بينهما آنذاك، أغلبها مشادات مفتعلة يغذيها الشعور بالدونية والسعي إلى فرض الهيمنة على أي لقاء أيًّا كانت درجة أهميته.. فكان التصادم حتميًّا بين نامق ذي الأصل والبيئة الراقية ضد الوضيع ابن الشارع، ولهذا ضاق عماد بنامق عندما رآه على البستان فهو لم يكن يُطيقه أبدًا صحيح أن المكان تغيَّر والزمان تبدل ولكن المشاعر لا تعترف بكل هذا، يهزم الزمان الجسد

ويهرم ويهزم الشعر فيشيب ويهزم البصر فيضعف ويهزم العصب فيرتخي، إلا المشاعر عصيت على الزمان طوعًا وكرهًا، وظلت دومًا من الإنسانيات التي فشل الزمان في هزيمتها، إنها هي هي في أي مكان، ومهما مر من زمن فلا ينال منها أبدًا بل ربما يزيدها تأججًا، كان عماد يشعر بالضيق كلما رأى نامق لأن نامق كان يعرف من هو عماد سعدان، صحيح أنه لم يكن يعرف خلفيات عماد الأسرية بطبيعة الحال، ولكنه كان يعي جيدًا مدى كراهيته للدولة بصفة عامة ولأجهزة الأمن بصفة خاصة، ومن خلال أنشطة الأسر الجامعية المعلنة أصبح عماد معروفًا لدى الأجهزة الأمنية بآرائه التي تفيض حقدًا على الدولة كمؤسسة وليس فقط على نظامها الحاكم... رأت فيه نواة حاقد لا معترض، رصدته مخربًا سعيًا وهدفًا لا معارضًا رأيًا وغرضًا، وانتبه عماد إلى أنه مرصود، مما زاد من كراهيته لأجهزة الأمن وازدادت عُقد النقص لديه عقدة، لأنه يعي بطبيعة الحال أن تلك الأجهزة تعرف عنه كل شيء ولهذا كان يمقتها لأنه يعرف أنها تعرف[1]، تعرف كل شيء عن أبيه وعن أمه ومهنتها وعن أخته المُستأجرة للتسول.. العجيب أن عماد لم يقنع نفسه أن ليس فيه ولا في ماضيه أي شيء مشين.. لا عمل أبيه ولا وقوف أمه على قارعة الطريق للعمل الذي رغم تواضعه فإنه عمل شريف حتى أخته التي عملت بالتسول دون أن تملك من أمرها شيئًا فهذا العمل هو الآخر لم يكن يشينه في شيء، فالتسول أساسًا لا يُخزي من يمارسه في مصر بل يكاد التسول أن يكون مهنة وربما يأتي يوم يكون له

(1) يقول المثل الشعبي المصري: إمتى يابا نرفع راسنا.. لما يموت إللي يعرفنا.

نقابة، ولم لا؟ أليس من حق المتسولين أيضًا أن يكون لهم نقابة مثل الأطباء والمحامين والمهندسين والمعلمين؟ ولكن عقدة النقص سقم إن أصابت نفسًا فلا شفاء منها..

حتى أجهزة الأمن التي يبغضها تركته يقول ويهاجم نظام الحكم بأريحية وينشط بحُرية دون أي منغصات حيث لم يكن في نشاطه آنذاك أي شيء مريب.. فالمعارضة مشروعة والكراهية إن لم تتحول لفعل فلا حساب عليها، هذا غير أنه لم يكن له أي نشاط سري..

وبعد تخرجه في كلية الحقوق ونتيجة لجديته النابعة من الإصرار استطاع أن يعمل في مكتب أحد المحامين في مصر والذي كان أكثر من مجرد مكتب لمحامٍ ومن هذا المكتب كانت البداية إلى عالم أشد مخملية من عالم الجامعة... عالم المجتمع المدني.. بمنظماته وهيئاته ذات الوجاهة الاجتماعية والمكاتب ذات الرياش الوثير والتواجد الإعلامي الدائم، المفارقة أن عماد انتبه إلى أن هذه المنظمات والهيئات مثل أخته تمامًا تمتهن التسول ولكن بطريق مغاير..

كانت هذه الحياة الجديدة هي ما يحتاجها عماد بالفعل حيث بدأت تمنحه الإحساس بالقوة والسيادة، ولم لا، والمنظومة الإعلامية بالكامل تتغير وتميل نحو الحرية والتحرر من قيود كل الوصايات المعروفة سواء السياسية أو الاجتماعية وحتى الدينية، وها هو عالم الإنترنت يفرض نفسه وما هي إلا سنوات قليلة حتى تجنس الجميع بجنسية الفيسبوك وصارت لهم جوازات سفر لكل أنحاء العالم خلف الشاشات المنيرة تحملهم إلى

حيث يريدون دون أن يبرح أحد مكانه...

هذا هو عماد حامد سعدان.. الذي انتهى به الأمر إلى أن يصبح أحد أنشط الأعضاء في واحدة من أهم جماعات الضغط المدني التي فرضت وجودها في الشارع المصري في نهاية سنوات العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين.

رُزق نامق بأول مولود له.. أطلق على ابنه اسم: صامد، بعد مشادة مع منار التي اعترضت على هذا الاسم الغريب...

علشان يصمد في الحياة.. الحياة محتاجة الصامد مش الصامت.

فرضخت عندما وجدت نامق صامد ضد الاعتراض على صامد.

أصبح أبًا.. شعور عجيب.. فجأة يصبح اسمك هو الاسم الثاني بعد طول عمر من الاعتياد على أن يكون الاسم الأول... ومع المولود الجديد زادت أعباء الحياة ومتطلبات الأسرة ما دعا نامق إلى البحث عن عمل إضافي بجانب عمله الصباحي في المصنع، كان الأمر صعبًا وعسيرًا.. ولكنه لم يكن مستحيلًا.. فبسبب تأثير مكتبة والده الهائلة على تفكيره أحب نامق المكتبات وجوها المشبع بأثير الفكر والثقافة، لدرجة أن أمناء المكتبة في المدرسة كانوا يعرفونه من الأسابيع الأولى للعام الدراسي من كثرة تردده على المكتبة ثم يكلفونه بتحرير استمارات عضوية المكتبة للطلبة، كثيرًا ما سأل نفسه: ترى ماذا لو لم تحرق كثير من المكتبات.. هل كان من الممكن

أن يتغير الواقع؟ ماذا كان يوجد في الكتب المحروقة؟ أليس من الممكن أن يكون فيها كتب ثقات تحوي ردودًا مغايرة على أحكام تسيَّدت أو أصبح لها قصب السبق في أذهان وعقول العامة؟ هل المكتبات المحروقة بما كانت تحويه من مخطوطات تحتوي على مروِّيات أخرى لأحداث التاريخ غير الأحداث المتواترة؟ ماذا كان يحدث لو ظلت أغلبية تلك الكتب مصونة؟ ترى هل تلك الحرائق كلها متعمدة بغرض طمس حقائق ليس من المطلوب على مر السنين أن تظهر بل يجب أن تظل مجهولة إلى الأبد؟ ترى.. وترى.. وترى.. هي أسئلة بلا إجابة... هذا غير انشغاله الدائم بكثير من القضايا الفكرية والفلسفية التي جعلت من ذهنه مرقدًا لعشرات الاستفهامات، ولم يكتفِ فقط بما تحويه مكتبة منزله العامرة ولكنه طاف يبحث عن إجابة لما يعتريه من تساؤلات بين كل المكتبات فكَثُر تردده على مكتبات المراكز الثقافية على تعددها من مراكز حكومية أو المراكز التي تتبع سفارات الدول الأجنبية في مصر، وانتظم في التردد على مكتبة من مكتبات إحدى هذه المراكز حيث وجد فيها تنوعًا وانفتاحًا في جُل عناوين الكتب التي تحويها أرففها فلفت نظر مدير المركز فعرض عليه العمل كمسئول عن المكتبة التي طالما أتى إليها زائرًا ومُطالعًا، وكانت تلك المكتبة تابعة لأحد المراكز الثقافية الذي يقع داخل حرم إحدى الكنائس ومفتوحة لزيارة العامة على اختلاف دياناتهم، لذا استطاع نامق أن ينتظم على التردد عليها دون حزازية ولكنه فوجئ بعرض العمل فكل ما كان يتوقعه هو السماح للكل بالتردد على

المكتبة ولكن العمل فيها لم يتوقعه أبدًا حيث أن ذلك الأمر يُعد بعيدًا كل البعد عن المعايير المصرية المعتادة وأسعفته نفسه بالتفسير.. انتبه نامق حتى قبل أن يوضح له من اختاره ويؤكد له صدق تفسيره إلى أن تلك المكتبة هي مكتبة تابعة لدير الآباء اليسوعيين أحد أفرع الكنيسة الكاثوليكية، المعروفة اختصارًا باسم الجزويت، ذلك التيار ذو الفكر المتفتح والعقلية الوثابة للمعرفة المتجاوزة لأطر الأعراق والأديان والمذاهب، عاودت نامق الذاكرة سريعًا بحديث والدته عن جدها الأكبر نوبار الذي أرسله خاله بوغوص في سالف الزمان لكي يتتلمذ على يد الجزويت اليسوعيين في فرنسا ها هي الأقدار تُعيد الحفيد إليهم، وهكذا استطاع المتهم بالنمطية أن يصير مسئولًا عن مكتبة تنتمي إلى أكثر جماعات الفكر الإنساني تمردًا.

وكما لعبت الكنائس فيما مضى دورًا في تكوين نامق عادت مرة أخرى وبقوة تلعب دورًا جديدًا في حاضرِهِ.

قال له الأب الجليل وهم يهم بالانصراف بعد أن قام بتسليمه العمل:

ـ الجزويت حياتهم كتب.

وبالإضافة إلى أمانة المكتبة، عليه المعاونة في تنظيم المؤتمرات وورش العمل والسيمينارات التي يقيمها المركز في موسمِهِ الثقافي من كل عام، لم يكن الأجر كبيرًا ولهذا كان هذا العمل يشغر دائمًا ويحتاج إلى من يشغله.. فكان دخله من هذا العمل المسائي رغم تواضعه مُعينًا له، هذا غير أن فترة العمل سويعات قليلة ولم تكن تستلزم كثيرًا من الجهد، لم يكن نامق

يقوى عليه بعد يوم طاحن في مخزن لا يتوقف تليفونه الداخلي عن الرنين فيه طوال اليوم، بالإضافة إلى أن العمل صادف هوًى لديه، مرة أخرى الانتساب للمؤسسة، فبعدما ظل يذهب لهذا المركز زائرًا أصبح يذهب إليه بصفة رسمية.. وما هي إلا أسابيع حتى أصبحت المكتبة نفسها ملتقى لكثير ممن كان نامق يلتقيهم في البستان.

وكما رأى نامق مخزنه الصباحي كقطعة من مصر.. رأى مكتبته المسائية كذلك ولكن من زاوية أخرى.

فبطبيعة الحال لم يكن الأمر يخلو من الهواجس المصرية العتيدة.. وكثيرًا ما استشعر تلك الهواجس والمفارقة أنها كانت متناقضة... فيسمع من بعض رواد المكتبة:

ـ ياه.. إيه ده. هُمه بيشغلوا مسلمين هنا! دي سياسة دي مش كده؟

ومن ناحية أخرى كان البعض يعتقد في بعض العاملين المسلمين في ذاك المكان أنهم مزروعون من قِبل أجهزة الأمن للتلصص على ما يدور في ذلك المكان المرموق... إنها نظرية المؤامرة المعشعشة في عقول كثير من الناس والتي لها مايبررها ولا شك.. ولكن ما كان يضيق صدر نامق به أن تلك الهواجس هي أبعد ما تكون عن الحقيقة...

ولكن كان هناك أيضًا الجمال.... حوارات ونقاشات.. اتفاق واختلاف... قبول ونفور...

وكثيرًا ما دارت المناقشات في رحاب تلك المكتبة التي احتلت قلب نامق أكثر ما احتل هو موقعًا فيها.

وطالما اشتدت سخونة الحوار بين نامق وبين بعض ممن يتوافدون على المكتبة بعدما استشعروا أن المسئول عنها ليس مجرد موظف.. كما أن معرفة البعض السابقة به على البستان شجعتهم على الالتقاء في مكان راقٍ يشع فكرًا وكانت رانيا إحدى هؤلاء اللائي يأتين إلى المكتبة من حين لآخر، وكما شجعت أختها على الذهاب معها ذات مرة إلى مقهى البستان شجعتها أيضًا على أن تأتي معها إلى المكتبة.

لكن رضوى كانت تُمانع في هذا الأمر كثيرًا عندما اقترحت عليها رانيا أن تذهب معها إلى المكتبة، ذلك خشية أن تلتقي شامل مصادفة حيث أنها تعلم بصلة القرابة التي تجمع شامل بنامق وأنه هو الذي قام بالتوسط لتعيينه لدى والدها، ولكن رانيا أكدت لها والتي كانت تعلم بطبيعة الحال بموضوع شامل أنه لا يأتي إلى نامق في مقر عمله المسائي ولا حتى إلى مقهى البستان على الإطلاق، فذهبت رضوى مدفوعة بدافع الفضول للتعرف على العمل المسائي لأمين مخازن مصنع والدها والذي لا تتوقف مشاحناته مع والدها بسبب الاختلاف في وجهات النظر في سير العمل، صحيح أنها كانت بعيدة إداريًّا عن سير هذا الخلاف ولكنها كانت تعلم به وبتفاصيله فهو جزء من عمومية العمل، فكانت أحيانًا ترى نامق مُحقًّا بسبب ضغوط العمل في المخزن الذي يقع في المصنع موقع القلب من

الجسد، هذه المضخة التي يأتي إليها كل شيء، وأي شيء، ومنها يخرج كل شيء، وأحيانًا أخرى ترى رضوى أن نامق مبالغ ومثالي، ربما بسبب التعاطف الفطري مع والدها، ذهبت مع رانيا وهي تعلم، دون أن تقوى على مصارحة نفسها، رغم الحروب الصباحية بينها وبين والدها بأنها تحب الاستماع إلى نامق، بل وتحتاجه في كثير من الأحيان.

قال أحدهم ساخرًا:

ـ نامق باشا.. ضد الشعب.

نامق مُصححًا:

ـ إطلاقًا... لكني أعترف أني ضد الجماهير.

ـ الجماهير جزء من الشعب.

نامق بحماس:

ـ تمام وعليه فلا يُعقل أن الجزء يتحكم في الكل لمجرد أنه أعلى صوتًا.

رانيا ببديهية:

ـ ده الطبيعي لأن لو الكل قاد الجزء يبقى اضطهاد.

رد أحدهم:

ـ مظبوط.

ولم يكن الرد يحتاج إلى تفسير ممن قال هذا الرد العفوي المختصر المترجم لشعور أغلبية المسيحيين.

وأكملت رانيا تأكيدها:

ـ الجزء يقود الكل.. على فكرة دي مش ديكتاتورية.

ثم أعقبت ساخرة: دي بديهية يا بتاع المعايير.

نامق معترضًا:

ـ لأ ديكتاتورية.

رضوى بتلقائية:

ـ فليكن.. ديكتاتورية الأغلبية.

نامق متحديًا:

ـ لأ دي ديكتاتورية العدد.

رانيا مستفسرة:

ـ وإيه الفرق يا سقراط.. وصفته رانيا بسقراط في ثقة وأمان من رد فعله بعد أن اتخذت على نفسها عهدًا بأن تفصل تمامًا، بأن من تحدثه يعمل صباحًا تحت إمرة والدها وأخذت عليه عهدًا بالمقابل أن يفصل هو الآخر بدوره في هذا الأمر، على أن تكون علاقتهما عادية خالية من تلك الحساسية

المعتادة ورحَّب نامق بشكل العلاقة على هذا الحال فلم ينكر أنه شعر في داخله بشيء من التوتر والقلق بعدما تعارف هو ورانيا ذلك التعارف الحتمي والذي كان لا بد أن يتم ولكن عندما بادرت رانيا من تلقاء نفسها تلك المبادرة التي تنم عن فطنة وحس تقييمي سليم نابع من عقلها المتفتح والتي أكدت له فيها على ضرورة أن يفصل فصلًا تامًّا بين عمله الصباحي لدى والدها وبين علاقتهما ذات التكييف المختلف، ولقي هذا قبولًا شديدًا لديه وهو الذي يحرص أن تسير أغلبية علاقاته في مجملها بحيث لا تلتقي علاقة بأخرى أبدًا إلا للضرورة القصوى.

رد نامق:

ـ ديكتاتورية العدد تختلف اختلافًا تامًّا عن ديكتاتورية الأغلبية.

رضوى مستفهمة:

ـ وإيه الفرق؟

أجابها بمعيارية ليست غريبة عليه:

ـ ديكتاتورية الأغلبية معناها أن بسيادة الأغلبية تسود معها منظومة القيم والآراء التي تعتنقها وتتبناها الأغلبية المهيمنة، ده غير إن ديكتاتورية الأغلبية تُولد أساسًا من رحم انتخابات ديموقراطية حقيقية، تتسيَّد الأغلبية، وبناء عليه تفرض الأغلبية منهجها حتى على الأقلية التي تُناهضها وشرعيتها في ذلك أنها ترتكن إلى الأغلبية التي أتت بها إلى موضع اتخاذ القرار، ديكتاتورية

الأغلبية شكل حقيقي من أشكال الديموقراطية مثل التصويت على قرار ما بأغلبية الآراء، كما أن ديكتاتورية الأغلبية لا تنعدم معها الشفافية ولا تتضمن الاستخفاف بالرأي المقابل.

أحدهم معترضًا:

ـ السؤال إيه الفرق بين ديكتاتورية الأغلبية وبين ديكتاتورية العدد؟ إذا كانت الأغلبية أساسًا معناها أغلبية عددية وهو المعنى التلقائي المتولد من التعريف يا معالي الفيلسوف.

نامق مُرحبًا بالتوضيح:

ـ ديكتاتورية العدد ببساطة هو أن تخضع عملية اتخاذ القرار إلى غلبة العدد، أى عملية عددية بحتة، أي أن القرار يرجع إلى غلبة رغبة العدد في تحقيق هدف معين أيًّا كان هذا الهدف حتى لو كان ضد المصلحة الوطنية بناءً على تجارب مسبقة أو بديهية من البديهيات.

عاوده أحدهم بالتعقيب:

ـ وهِيَّه البديهيات محتاجة برهنة أو حتى دليل للفت النظر، وهي أساسًا بديهيات.

نامق باسمًا:

ـ أؤكد لك أننا لا زلنا في مرحلة ما قبل البديهيات.

رضوى فجأة:

ـ وإيه هُوَّه معيار البديهيات.

رانيا صارخة:

ـ رضوى ده موضوع تاني لو فتحنا الكلام فيه مش حنخلص، ده غير إن أنا زهقت من كتر ما سمعت الكلمة.

تشارك الجميع ضحكة بسيطة انطلقت منهم جميعًا في نفس الوقت بعد ملاحظة رانيا..

وأكمل نامق مُتممًا:

ـ ده غير الكارثة الأكبر.

رانيا مُعبرة عن فضولٍ لامس عقول الجميع:

ـ إللي هِيَّه؟

ـ أن تكون عملية اتخاذه أو الامتناع عن اتخاذه مبنية على الخوف من رد فعل الجماهير..

رانيا ضاحكة:

ـ إنت عندك عقدة من الجماهير..

رضوى بسؤال بدا منطقيًّا نظرًا لحداثة معرفتها بنامق:

ـ دي غير عقد المعايير.

تجاوز نامق سؤال رضوى واستكمل كلامه:

ـ أي طريق وأي منهج غير المنهج العلمي في اتخاذ أي قرار ستكون ثماره وبالًا على المجتمع بأكمله بما فيه الجماهير، التكوين السيكولوجي للجماهير في حد ذاته فاسد علميًّا.

رضوى رافعة حاجبيها:

ـ فاسد علميًّا؟

أكمل نامق:

ـ من الناحية السيكولوجية.

رانيا في مرح:

ـ سِيدي يا سِيدي على السقرطة.. والله بابا عنده حق يتخانق معاك طول النهار.. الله يكون في عونه، آسفة.. والله أنا مش ناسية اتفاقنا وعهدنا على الفصل بين العلاقات.. بس القافية حكمت.

ضحكت رضوى... وأكمل نامق:

ـ لو اجتمع عدد غفير من الناس، طبيعي أنهم يشعرون تلقائيًّا بقوتهم، ولو دَعَّم هذا الجمع ضجة وصخب فالثقة تزداد والإحساس بالقوة ينتشي ولكنهم بيكونوا أشبه بمَن يستعرض عضلاته في المرآة لا يرى إلا نفسه ولا

يشعر إلا بذاته ولكن عند المواجهة الحقيقية مع الواقع فإن النتيجة سوف تختلف لأن الهتاف الجماعي مُغيب للعقل ويعطي الإحساس بأن هذا هو الرأي المُعبر والأوحد عن الأغلبية الحاضرة والغائبة.

واستطرد نامق:

ـ ديكتاتورية العدد في الحقيقة خنوع وليس فقط خضوع، خنوع لصوت الغوغائية التي تهتف بما تعي وبما لا تعي، المفارقة أن الأعداد الهاتفة ممكن تنتقل فجأة إلى الرأي النقيضِ له في لمح البصر، الموضوع متوقف على شطارة الهاتف وتوجيهه للمجموع... للقطيع.

ديكتاتورية العدد هي السيادة للأعلى صوتًا.. التجسيد الحي للمقولة المعروفة: البرميل الأجوف حين الدق عليه يُصدر صوتًا أعلى.

أحد الشباب معترضًا:

ـ نجاح الحكومات شئنا أم أبينا متوقف على إرضاء أكبر عدد من الناس.. الجماهير على حد تعريفك.

نامق في ثقة:

ـ حدث بالفعل يومًا ما...وكانت النتيجة إيه؟

طلبت رضوى وغيرها التفسير فلبّاهم نامق:

حركة يوليو كان أول أهدافها لضمان نجاحها هو استمالة الشعب وتجييش

الجماهير فاتخذت إجراءات أرضت الجماهير وقتها وكان من ضمن الإجراءات تخفيض إيجارات المساكن وسنة بعد سنة ظهرت مشكلة التمليك، طبعًا كان لازم تظهر ظهورها كان حتميًّا، مين عديم عقله حيبني عمارة علشان يأجر شققها بإيجار زهيد.

مثال تانى: بناء السد العالي رغم عظمة المشروع فإن فيه إجحاف للنوبيين الذين تم تهجيرهم من قراهم الهادئة الآمنة إلى حيث لا يعلمون، فبدلًا من أن يتم بناء مساكن لهم قبل تهجيرهم اختار النظام آنذاك الحل الأسهل وتم ترحيلهم بُغية إتمام المشروع في أسرع وقت سعيًا وراء تهليل الجماهير.

ومثال تالت قانون الإصلاح الزراعي، قانون ملعون فتت الأراضي الزراعية الكبيرة إلى كنتونات صغيرة وبرضة سنة بعد التانية بدأت تظهر مشكلة البناء على الأراضي الزراعية، لأن كل مالك لأرض يعتبر نفسه حرًّا في التصرف الشخصي في أملاكه أيًّا كانت النتيجة العامة.

رد أحدهم بعفوية:

ـ علشان كده الخضار بقى غالي.

وأكمل نامق:

ـ والمصيبة الأكبر إن مع اقتراب الانتخابات تيجي الحكومة وتقرر إلغاء قرار الحاكم العسكري بتجريم البناء على الأراضي الزراعية والجماهير كالعادة تهتف وتؤيد.

أحدهم متعجبًا:

ـ مَلكي أكثر من الملك.

نامق بيقين:

ـ النتيجة هي الحكم يا أصدقاء.. من بعد يوليو إلى الآن فيه أي حد أبدى رضاه عن مجلس الجماهير؟

أحدهم مستفهمًا:

ـ مجلس الجماهير؟

رانيا مسرعة:

ـ أنا فهمت.

نامق شارحًا لمن لم يسعفه ذهنه انتباهًا:

ـ مجلس الشعب.. هُوه في الحقيقة مجلس جماهير والدليل الخمسين في المئة عمال وفلاحين، والتي يجب أن تكون متوفرة في تركيبة المجلس، أيام الملكية لم يكن الشرط ده موجود، وهذا لا يعني أنه كان مجلسًا داجنًا بل على العكس أحيانًا كان يحدث تصادم بين الملك وبين المجلس إللي كان موقَّر فعلًا بحكم تركيبته الراقية.. على سبيل المثال عباس محمود العقاد كان عضوًا فيه وحدث ذات مرة أن هدد بأنه على استعداد لتحطيم أكبر

راس في البلد لو فكرت في التعدي على الدستور[1].. البرلمان أيام الملكية كان بيحل الحكومة.

أحدهم وكأنه وجد فرصة للانقضاض على رأي نامق.

ـ والملك يحل البرلمان.

نامق متحديًا:

ـ حيوية في الممارسة إلى أن وصل بسلامة التآمر نظام يوليو وسَنَّ قانون الخمسين في المئة... وطبعًا القانون لاقى تأييدًا جماهيريًّا عارمًا وكالعادة سنة ورا سنة إتضح لأي متابع للشأن العام كارثية القانون إللي جعل من نصف أعضاء المجلس التشريعي شبه أميين بكل ما يعنيه هذا من تأثير على بِنية التشريعات والقوانين التي تصدرُ عن المجلس إللي المفروض إنه موقر وكل ده حتى ترضى الجماهير.

رانيا متعجبة:

ـ يعني إنت عايز الحكومة تعاند الشعب!

نامق موضحًا:

(1) حادثة شهيرة تاريخيًّا: حين أراد الملك فؤاد إسقاط عبارتين من الدستور، تنص إحداهما على أنَّ الأمة مصدر السلطات، والأخرى بأنَّ الوزارة مسئولة أمام البرلمان، صاح العقاد تحت قبة البرلمان (مجلس النواب آنذاك): "إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه...".

ـ إطلاقًا، إرضاء الجماهير معناه الانقياد للعواطف والمشاعر دون النظر إلى النتائج.

إرضاء الجماهير معناه تصفيق خمس دقائق يعقبه تدمير خمسين سنة وكأنها تماثل نفس نسبة تمثيل الشعب في البرلمان.

إرضاء الجماهير يعني فرحة يوم وحُزن أيام.

معناها إرضاء جيل ـ معاصر للقرار ـ وتدمير أجيال لاحقة.

إرضاء الجماهير معناه سيادة الغوغاء وإقصاء الحُكماء، معناه حل مؤقت وخلق مشكلات دائمة.

معناها أن تتحول القيادات إلى قيادات مُنقادة، منقادة لأهواء الجماهير التي لا تعرف مقياسًا ولا مِنهاجًا ولا شيئًا غير الرغبة في الاستحواذ العاجل أو المكسب الآني وما هي إلا شهور أو سنوات حتى تتحول هذه المغانم إلى مغارم.

الخضوع لرغبة الجماهير معناه السقوط في فخ نتائج حتمية تُشكل مُتوالية حسابية من النتائج الفرعية والتي بدورها تشكل مُتوالية هندسية من نتائج مترتبة على النتائج السابقة لها وهكذا دواليك حتى يجد المجتمع والدولة أنفسهم أمام كارثة حتمية مصنوعة بأيدينا لا بأيدي أعدائنا.

انتهى اللقاء وقد وقر في عقل رضوى أن نامق يصلح لكي يكون طرفًا

في حوار هي طرفه الثاني، فقررت رضوى أن تتحدث معه ولكن على انفراد فكما تيقن والدها من أمانته _ولهذا تحمَّله رغم أن لديه من البديل طوابير_ شعرت تجاهه أيضًا بالأمان الذي يتيح لها أن تطلعه على ما لايجوز للغريب أن يطلع عليه... كان في البداية ظنًّا تشكَّل من معاملة العمل في الصباح وها هو الظن يرقى يقينًا بعدما دعمه حوار المساء، إذن فهي طبيعته وتكوينه، فليس في آراء الصباح هرب من مسئولية وليس في حوار المساء نفاق للغالبين، أحست مثلما هو أمين فهو أيضًا مؤتمن ولم تكن وحدها... الكثيرات كن يشعرن بذلك.

24 يناير 2011

فجأة وجد مرقص مادلين أمامه، ذهبت إليه في مقر عمله وهي مُتيقنة أنه لا يمكن أن يكون قد حكى لأحد عما جرى _وصدق يقينها_ كما أن وجودها في مقر عمله يجعلها في حماية مكان عامر بالرواد غير العاملين وأيضًا زملائه من الأطباء فلا يمكن له أن يُقدم على فعل أي شيء مفاجئ حتى وإن فعل فسوف تجد من يُغيثها، وما هي إلا دقائق حتى كانا خارجًا.

قالت له مادلين:

ـ إحنا ممكن نروح نقعد في أي مكان على النيل.

رد مرقص في مرارة:

ـ النيل ده مكان عملوه للمحبين وإحنا أبعد ما نكون عن الحب، غير أن النيل مكان مقدس.. كان كده عند أجدادنا وإحنا فين والقداسة فين، الأحسن إننا نكون واقعيين، خلينا جوه البلد أحسن، لأننا بالفعل جوَّاها.

بعدما جلسا على أحد الكافيهات بادرت قائلةً:

ـ من غير الدخول في تأنيب ولوم وعتاب لا طائل من ورائه، باختصار مفيش أي حل للورطة إللي إحنا فيها دي غير إنك تغير المِلة وعليه يتم الانفصال بهدوء.

ردَّ مرقص وهو يموج ضغطًا:

ـ سعر شهادة تغيير الملة بالآلاف يا مادلين... ومش هِيَّه دي المشكلة الأساسية.. الموضوع مش بالسهولة دي.

قالت بصدق يتنافى مع موقفها الغادر:

ـ أنا لو كنت أقدر كنت رحت بنفسي للكنيسة واعترفت بالزنا ولكن للأسف أنا ما أقدرش أعمل كده، إنت عارف المجتمع.. ده حيبقى تدمير لأسرتي وكمان لإخواتي البنات ده غير إن حياتي حتتدمر بعدها.

أجابها مستنكرًا استمرار أحاديثها في التفكير وهو الذي عاش معها بنفس الأحادية التي أصبحت الآن تفكر بها:

ـ لكن حياتي أنا مش مهم.

تنهدت قائلة:

ـ خلاص سامحني يا مرقص.

رد مرقص وهو يفور شرفًا:

ـ آسف..

تنهدت بيأس:

ـ والحل، إنت نفسك عارف إننا لو رحنا الكنيسة الرد حيكون إيه.

ولأول مرة يقولها مرقص ولكن هذه المرة لم ينطقها إلا وعيونه تلمع بالعناد الأرثوذوكسي المعروف:

ـ لا طلاق إلا لعلة الزنا.

انتهى اللقاء ولم يصلا إلى شيء... رجع مرقص لاستكمال مناوبته في العمل وعادت مادلين إلى منزل أبيها كما قال قداسة البابا.

بدت رانيا في أوج حماسها وهي تشعر أن شيئًا ما بدأ يلوح في الأفق، وبطبيعة الحال استشعرت أسرتها ذلك الحماس المتقد من طريقتها في الحديث في الفترة الأخيرة وكان الحال في منزل شاهين مثل كل البيوت المصرية في ليلة الرابع والعشرين من يناير.. جهاز التلفزيون مفتوح طول الوقت على القنوات الإخبارية حيث نسي الجميع المسلسلات والأفلام وأصبح الكل مجتمعًا على مشاهدة النشرات الإخبارية.

قالت عفاف لشاهين في قلق:

ـ رانيا حتنزل بكره يا شاهين مع إللي نازلين.

ردَّ في لا مبالاة:

ـ خليها تنزل آهم يصرخوا شوية وخلاص.

ردت بأمومة مفهومة:

ـ أنا قلقانة.

رد عليها محاولًا طمأنتها:

ـ دول شوية عيال.

فوجئ شاهين بصوت رضوى من خلفه:

ـ لا يا بابا دول مش شوية عيال ولا حاجة. البلد دي فعلًا لا بد إنها تتغير.. كفاية لحد كده.

ـ متعجبًا:

ـ غريبة يا رضوى، أول مرة أحس إنك ثورية، إيه مُصاحبتك لرانيا في الفترة الأخيرة أثرت عليكي؟

تنهدت والدتها وأنابت عنها في الإجابة:

ـ طبيعي يا شاهين كُتر البكا يعلم النواح.. يعني إنت مش عارف ليه!

سكت شاهين وقامت الأم تحتضن ابنتها التي بدأت الدموع تترقرق في عينيها.

أما رانيا فلم تشاركهم الحوار حيثُ كانت في نفس التوقيت ترسل

رسائلها بواسطة زاجل العصر الحديث... عصافير تويتر الزرقاء.

أما في المكتبة وفي الليلة ذاتها فكان الوضع متأرجحًا بين مؤيد للتظاهر ورافض له، غالبية الحضور مؤيدين للنزول إلى الشارع والمطالبة بالتغيير الذي طال انتظاره.

وسأل أحدهم:

ـ رأيك إيه يا نامق؟

كان نامق يحمل هَم هذا السؤال الذي كان يعرف أنه سوف يُسألهُ بالضرورة.. وأُسقِطَ في يده.

نامق سليمان كاظم النامق.. الكاره للثورات، عقدة يوليو التي تشرَّبها من والديه وغذَّتها التجربة والشواهد والنتائج.

نامق.. المتعاطف مع الدولة والحكومات.

لم يجد ردًّا.. هو في داخله يعي جيدًا مدى تبلد النظام.. ومدى حماقة سياسته وانعزاله عن الواقع، مثل بعض قرارات شاهين، ولكنه في نفس الوقت يعلم جيدًا حال المصنع وطبيعة العقليات التي تُشكل أغلبية العاملين فيه.. ولا يوجد اختلاف كبير بين شعب العمل وشعب الوطن.. فكلاهما لا يؤمن إلا بمنهج واحد.. القوة...الصامولة التي تصون الكل وتحمي الكل من الكل، فلو حُلَّت هذه الصامولة فسوف ينهار المصنع ويخور الوطن وتضيع الدولة.

هي الحيرة بكل معانيها والتردد في أزهى صوره.. الخوف من جهة والرغبة في النزول من جهة أخرى.... ولكنه قرر النزول إن لم يكن بسبب ما يرى في أن إدارة نظام الحكم تتشابه إلى حدٍّ كبير مع نظام إدارة المصنع فعلى الأقل حتى لا يترك منار وحدها، فنزولها في هذا اليوم لم يكن محل شك من جانبه على الإطلاق، بل إنها وأثناء تخاطر نامق مع ذهنه كانت بالفعل في طريقها إلى منزل والدتها وتحمل صامد كي تتركه عندها، فيوم غد هو اليوم المجهول.

تقمَّصت منار روح أروى صالح الناقمة على المثقف السلبي وكأن نزولها بمثابة ثأر لروحها الطاهرة التي فاضت في فضاء الوطن المكلوم بمن عليه من بشر وحجر.

تلقت الأم الرضيع بيدها وهي تبسمل وتحوقل ولا حيلة لها أمام كل ما يحدث إلا الدعوة إلى الله.

تحولت مصر في تلك الليلة التي سبقت يوم عيد الشرطة إلى ما يشبه خلية نحل إلكترونية، ملايين الشباب يجلسون إلى أجهزة الحاسب الآلي يتحاورون بالأفكار، ويختلفون في وسيلة التعبير عنها، ولكنهم جميعًا متفقون على شيء واحد.. النزول... ولم يكن الجميع يعرفون أنهم سوف ينزلون أيضًا إلى أسفل سافلين.

صباح 25 يناير

من ميـدان التحريـر في القاهرة إلى ميدان مسـجد القائـد إبراهيم في الإسـكندرية إلى ميدان الأربعين في السـويس.. في كل ربوع المحروسـة انطلقت الناس في الشـوارع تهتف.. عيش.. حريـة.. عدالة اجتماعية... بدا المشـهد رهيبًا لم يألفهُ أحد من الجيل الحالي من أفراد الشعب العاديين ولا حتى من الأجيال الجديدة لضباط الشرطة.. لم يعاصر أحد من أغلبية صغار الضباط أحداث الأمن المركزي[1] ولا أحداث أسـيوط[2] قبلها.. ترعرع جيل كامل ولمدة تزيد عن ربع قرن في وطن صامت وإعلام داجن

(1) أحداث الأمن المركزي.. حدثت في بداية حكم مبارك حيث قامت بعض وحدات من قوة الأمن المركزي بإثارة الفوضى في الشوارع بسبب إشاعة مد فترة التجنيد ما أدى إلى تدخل قوات الجيش للسيطرة على الوضع.. وكادت هذه الأزمة تطيح بحكم مبارك _الجديد_ آنذاك.

(2) أحداث أسيوط.. حدثت في عهد الرئيس أنور السادات حيث قامت إحدى الجماعات الإسلامية بالهجوم على مقار الشرطة في محافظة أسيوط بصعيد مصر ووقعت مواجهات عنيفة بين الجانبين انتهت بسيطرة الأمن على الموقف.

ولأن الطبيعة تكره الفـراغ احتل الإعلام الإلكتروني هذا الفضاء الفارغ وحل محل القناة الأولى العجوز.

لم يكن الأمر هزلًا، بل هو جد الخصام لنظام يابس، وألد العداوة لحكم عابس.

نامق ومنار يسيران جنبًا إلى جنب... منار تهتف ونامق يتأمل.

رانيا وعماد سعدان يرفعان اللافتات الساخرة الساخنة...

عيد ميرغني موجود يهتف في حماسة ومعه زمرة من السلفيين بلحاهم الكثة المتدلية..

أما يحيى فتواجد في الميدان مع بعض أعضاء الجماعة القادمين من محافظته.

أما المفاجأة فكانت في نزول مرقص.. لأول مرة لم يمتثل مرقص للكنيسة، الكنيسة التي نصحت شعبها بعدم المشاركة في المظاهرات... مرقص تغير.. شيء داخله تغير.

وانتهى اليوم بتفريق المتظاهرين والقبض على بعض منهم.

عاد الجميع إلى بيوتهم ما عدا عصام بطبيعة الحال ما دعا نامق إلى البقاء في منزل منار بجانب الأم القلقة على ابنها في ظل أوضاع لا تحمل على الاطمئنان لأي أم ابنها ضابط شرطة.

مرت ثمانية وأربعون ساعة من بعد ثلاثاء الخامس والعشرين من يناير.. ثمانية وأربعون ساعة لم يكن لأحد حديث سوى السياسة.. المصريون بكل أطيافهم أصبحوا يتحدثون سياسة وأضحوا يتحاورون حاضرًا لا ماضيًا كما اعتادوا وأمسوا يتناقشون فكرًا وباتوا يحللون رأيًا، تسيس الجميع، ثمانية وأربعون ساعة مرت حتى حان يوم الغضب، ظل الإعلام طوال سنوات يسقي الشعب خمر الكذب.. تغير الحال ولم يتغير النظام، لخصت حاله إحدى المذيعات يومًا ما دون أن تقصد حينما استنكرت على أحد الأطفال الذي قال لها أثناء حوار في أحد البرامج أنه يلعب في الشارع فقالت بصدق وهي على قناعة تامة بما تقول:

ـ ليه تلعب في الشارع؟ الأحسن إنك تروح تلعب في النادي.

إنه الانفصال التام عن الواقع.

وهكذا كان نظام مبارك في آخر أيامه تجسيدًا حيًّا لهذا الحال، توقف به الزمن عند صحافة متيبسة وإعلام نافق حتى نفق، فهوى بالبلد وبالدولة من حالق إلى فالق، ولم يرَ أن في هذا الوضع مشكلة مثلما يرى نامق في شاهين وإدارته.. قرارات فجائية غير مدروسة إن أمكن تنفيذها فلا يمكن إجادتها.. تمامًا مثل نظام مبارك الذي يكره ذكر السبب الحقيقي لأي مشكلة، كذلك كان شاهين ومصنعه في نظر نامق معادل لعقلية أعم وأشمل... ولهذا نزل إلى الميدان لا ليهتف فقط ضد مبارك ولكن أيضًا ضد شاهين... ضد رئيسه... فكلاهما حاصل على دكتوراه في العند، ولكن من لا يعاني

من المشكلة لن يحلها رغم يقينه بوجودها.. لن يحلها.

المفارقة أن نامق ورغم نزوله في هذا اليوم فإنه وبصفة عامة يتعاطف مع الحكومات، يرى أنها تعاني مثلما يعاني هو.. الحكومات جهة تنفيذ أكثر منها جهة تخطيط.. وإن فعلت فخططها مبنية _مُقيدة_ على الإمكانيات المتاحة.. تلك الإمكانيات التي تقل كثيرًا عن مقدرتها على الوصول للمطلوب.. الحكومات مثقلة بأحمال تفوق قدرتها، مثل المخازن المكدسة.. والمسئول هو المسئول. فالرئيس يأمر والشعب يلعن والحكومة في المنتصف بينهما، مثل حال المعيد الجامعي لا هو طالب ولا هو أستاذ، تلك الفئة التي تنتمي إلى عالم الوسط، مثل حال أي عمل شاء له القدر أن يقع في المنتصف بين مستوى أعلى يحظى بالمدح والنفاق أيًّا كان قراره وبين مستوى أدنى لا يعلم شيئًا ويريد كل شيء ولهذا كان نامق يتعاطف مع الحكومات لا الوزراء، يتعاطف مع أي مؤسسة تماثل طبيعة عمله... أي جهة منوط بها التنفيذ.

الجمعة 28 ينايـر

وعادت الكرَّة إلى الميدان مرة أخرى

وعاد الجميع إلى التظاهر.. دعَّمَهُم كسر حاجز الخوف الذي بدأ ينهار في ثلاثاء الخامس والعشرين، لكن هذه المرة كانت أشد بأسًا وأشد تنكيلًا وأكثر جرأة وعلانية، وكان المصلون الخارجون من صلاة الجمعة عاملًا رئيسيًّا في الحشد.

انضم الإخوان إلى المتظاهرين وانضم وزراء سابقون وفنانون، فمنهم من كان له ثأر مع النظام وأقطابه.

السلفيون خرجوا من المساجد إلى الميادين..

حرص الأقباط على التواجد في إشارة إلى مدنية التظاهرات لا إلى دينيتها بعدما تنبهت الكنيسة أن غيابها عن المشهد ليس في صالحها... فجاء الحضور إجبارًا لا اختيارًا.. كالعادة.

ورغم كل هذا ظل الإعلام الرسمي يعاني من الداء المصري السقيم..

الانفصال عن الواقع.. مستمرًّا في إذاعة لقطات لشوارع فارغة مثل ريادته الموهومة.

وما هي إلا ساعات حتى سيطرت الجماهير على الوضع ميدانيًّا.. اندفعت الجموع الغاضبة تحطم كل شيء... وصار الموقف في الشوارع أشبه بحال تلاميذ الفصل السعداء بغياب المدرس.. فوضى عارمة، الكل يفعل ما يريد دون خوف من جزاء أو عقاب.

صدقت فيهم الآية الثانية من سورة الحشر..

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ...﴾.

الشعب حاضر في الشارع ولكن لم تكن له السيادة فالعبرة ليست بالحضور ولكن بالتسيد.. السيادة كانت للجماهير.. سقطت دولة الشعب وأُعلنت دولة الجماهير... الشعب كان موجودًا في الخامس والعشرين من يناير أما الثامن والعشرين فقد جاء الشعب يمشي على استحياء وجاءت المماليك تزحف في كبرياء.

سقطت الدولة قبل أن يسقط النظام...

سقط تاج الدولة المدنية من فوق رأس نابليون..

سقطت مصر في فوضى جورنيكا بيكاسو...

ولم تعد الحرية هي التي تقود الشعب بل الفوضى هي القائد على عكس ما كان يحلم ديلاكروا..

تفرَّق نامق عن منار في هذا اليوم المشئوم، وكان من الطبيعي أن يفترقا في ظل الفوضى التي حدثت.. بحث عنها بلهفة بعدما يئس من الاتصال بها بعد قطع الاتصالات عندما لجأ النظام إلى أحد الحلول السهلة كالمعتاد، الحلول التي تزيد المشكلات تأزيمًا، الحلول التي لا تجدي فتيلًا في مواجهة الأزمات العادية فما بالنا بالشواش[1] الناجم عن حركة الديناصور الجماهيري.

تحول الميدان في هذه الساعة إلى مجرد قطعة أرض بلا دولة لجماهير بلا قائد، عربات شرطة محترقة.. سيارات إسعاف يقودها البلطجية، اقتحام لبعض أقسام الشرطة.. دماء في كل جانب، وبات المجرمون سائبين.

لم يدرِ نامق ماذا يفعل في هذه الظروف.. فكَّر في العودة إلى منزل زوجته ربما تكون قد عادت بعدما يئست بدورها من العثور عليه ولكن لم يستطع، لم يطاوعه قلبه، فقرر أنه لن يرحل عن الميدان إلا مع منار... وهو ما لم يحدث.

وما هي إلا سويعات حتى عرف نبأ مصرعها... سقط المنار.. سقطت مع الدولة التي طالما حلمت هي ووالدها أن تكون للجميع جنة فأمست عليهم نارًا تلظى... سقطت غيلة.. رصاصة غادرة من مصدر مجهول اخترقت رأسها تاركة وراءها أمًّا صريعة لطفل رضيع لا يعي من الحياة شيئًا إلا ثدي أمه المفقود.

(1) الشواش: المقصود الفوضي.

تبوأ المجلس العسكري حكم مصر وأكَّد في جميع بياناته أنه لا يطمع في الحكم وبأن وجوده في سُدة الحكم إنما هي فترة انتقالية وسوف يُسلِّم السلطة بعدها إلى الرئيس المنتخب.

حدثت تغيرات وحركة انتقالات كبيرة داخل جميع الأجهزة الأمنية في مصر فتم نقل الرائد عصام إلى قسم شرطة كرداسة، شعر عصام بغصة نتيجة هذا الأمر فهو في الأساس لم يمكث في الجهاز منذ التحاقه به بعد ترقيته إلا أشهر معدودات ولكن قوة الأحداث جعلته يتفهم الأمر وسبب النقل، فالقرار كان حتميًّا كما أنه لم يكن الوحيد المشمول بقرار نقل.

أما نامق في هذا الوقت فصار أشبه بهيكل عظمي يمشي على الأرض، جسدًا بلا روح.. رحلت روحه برحيل منارته ولم يبقَ لديه إلا عظام تتحرك وأنفاس تتردد ودماء تجري في عروق بلا نبض، رحلت الحبيبة... حبيبة عقل قبل أن تكون حبيبة قلب وإن حُب العقل لأقوى وأشد رسوخًا.. من عقله تسللت منار في تؤدة لا إلى قلبه فحسب بل إلى فؤاده وفي ثناياه قبعت وفي أحاسيسه تربعت وعلى مشاعره تُوِّجت.. أحبها نامق حبًّا لا يوصف.. وعندما علم بنبأ مصرعها فكر في لحظة خوار أن يلحق بها ولكنه تذكر صامد تذكر السبب الذي دعاه أن يُطلق على وليده هذا الاسم.. صامد.. فقرر أن يكون صامدًا من أجل صامد.

تكفلت الجدة برعاية الوليد الصغير فلم يكن لدى نامق حل آخر سوى استبقاء صامد لدى والدة زوجته الراحلة والتي تلقفت الرضيع في حنان كبير.

قال التاريخ إن واحدًا منهم استطاع أن يهرب.. أن يقفز بحصانه من أعلى السور وينجو من عدالة القلعة.. ولكن التاريخ لم يقل لنا أين ذهب

هذا الفار، فتكفَّل لنا الحاضر بالرد وجاءنا الواقع بالتفسير.

وكأن المملوك الهارب عندما نجا بحياته قرر الانتقام.. وعلى ما يبدو أنه كان يعي جيدًا أن العُمر لن يُتيح له القصاص لنفسه ولبني جنسه.. فاتخذ سبيلًا أكثر وعيًا.. ذاب بين الناس... تزوج كثيرًا وأنجب ذراري لا حصر لها.. تناسلت ذريته حتى أصبحت سلالة وأضحت السلالة عِرقًا وأمسى العرق جِينًا يجري منهم مجرى الدم، تتوارثه أجيالهم جيلًا بعد جيل.. وبعد أن كان مملوكًا فردًا صار أسرة والأسرة صارت أُسرًا والأُسر أصبحت جماعة... جماعة يشار إليها بالبنان.. بُنيت بتؤدة وأناة على مر السنين حفظًا لعهد الجد بالانتقام.. المملوك الهارب.. وها هي ذريته تتسيَّد.. إنهم المماليك الجدد.

لم ينسَ الحفيد العهد وظل يتحين الفرص للانقضاض حتى واتته الفرصة وجاءته على طبق من فوضى.

مصر 2012

أجريت الانتخابات الرئاسية وأُعلنت النتيجة فوز المرشح محمد مرسي عيسى العياط، وها هو الرئيس الإخواني يقف على دكة ميدان التحرير خطيبًا في الجموع الهادرة التي يفيض بها الميدان في مشهد قميء، وكان من ضمن الشاهدين على الخطاب وتبدو على ملامحهم السعادة الغامرة كلًا من عماد سعدان ويحيى سالم.

وأصبح مستقبل مصر يكتنفه الغموض والإبهام، فرح الإخوان والسلفيون ووجم الليبراليون وما تبقى من اليساريين، أما الأقباط فلم يواسيهم إلا المقولة الخالدة للأنبا شنودة: "ربنا موجود".

كان يقال دائمًا إن "مصر حكمها المحامون من ثورة 1919 حتى ثورة 1952، ثم حكمها العسكريون من ثورة 1952 حتى انتهاء الناصرية 1970، ثم حكمها الاقتصاديون ورجال المال في عهدي السادات وحسني مبارك".[1]

(1) الجملة ما بين علامات التنصيص مأخوذة نصًّا من كتاب "أوراق العمر" للدكتور لويس عوض.

ولم يجل في خاطر أحد أن يصل الإخوان المسلمون إلى حكم مصر، لم يكن الإخوان يومًا جزءًا من الشعب بل كانوا دومًا جزءًا من فكرة... أيدلوجية تقدِّم الجماعة على الوطن وتستبدل التنظيم بالدولة _فالباء تلحق بالمتروك_ ورغم أن الإخوان والسلفيين ينتمون إلى أيديولوجيا واحدة فإنه توجد بينهم فروقات قد لا يراها بعض من الذين يأتنسون جسَّ السطوح الملساء طلبًا لراحة الذهن التي تمنحها الظواهر لا المشقة التي يحتمها الغوص في البواطن..

الإخوان أفندية في مظهرهم وأغلبيتهم غير ملتحٍ أما السلفيون فلا.. جلباب وغترة وعطور شذاها معروف وكأنها مسجلة باسمهم لا تخطئها الأنف.

الإخوان يتحدثون بنفس الألفاظ التي يتحدث بها عوام الناس أما السلفيون فلا، لهم عباراتهم الخاصة وألفاظهم المنتقاة، حتى رطانة النطق مختلفة عن غالبية المصريين.

الإخوان لهم هيكل تنظيمي هيراركي، تراتبي، أما السلفيون فلم يجمعهم هيكل تنظيمي حتى وصول الإخوان إلى الحكم، ربما يلتقون في مؤتمر أو يتجمعون حول وليمة دون أن يكون هناك رئيس أو مرؤوس بل الأمر يخضع للعرف والعادات بتقديم الأكبر سنًّا أو الأكثر شهرة وتمويلًا.

الإخوان لهم باع طويل في العمل السري أما السلفيون فلا يعملون في

السر بل في العلن ويقولون ما يريدون على رؤوس الأشهاد سواء في خطبة الجمعة أو الدروس الدينية الأسبوعية.

بصفة عامة، السلفيون لا يبطنون ما يشعرون ولا يخفون ما يريدون على عكس الإخوان الذين يتحدثون بوجهين ويتقولون بلسانين، فرغم تأكيدهم ليلًا ونهارًا أنهم جماعة من المسلمين وليسوا جماعة المسلمين وأنهم يريدون أن يُحكَموا بالإسلام لا أن يَحكُموا بالإسلام.. وأكدوا مرارًا وتكرارًا أنه لن يكون لهم مرشح رئاسي، فقد خالفوا كل ما قالوه وطرحوا مرشحًا لهم فاز فوزًا مشبوهًا...

السلفيون يكرهون الأقباط ويعلنون ذلك، أما الإخوان فيكرهون الأقباط ويعلنون غير ذلك.

السلفيون يطرحون فقهًا موصولًا بالماضي مفصولًا عن الواقع، أما الإخوان فإنهم يطرحون أفكارهم بمنهج قابل للتطبيق وبخطوات منهجية.

الإخوان هياكل والسلفيون أفكار..

الإخوان برجماتية والسلفيون طوباوية.

ليس للسلفيين جهاز سري وآخر معلن على عكس الإخوان الذين يعشقون العمل سرًّا.

يشعر المصريون تجاه السلفيين أنهم لا يريدون المكاسب السياسية عكس مشاعرهم تجاه الإخوان.

وكما يوجد ما يفرقهم عن بعضهم توجد أيضًا بينهم قواسم مشتركة.. فتجمعهم كراهيتهم للمؤسسة، أي مؤسسة، أيًّا كانت، لا يجدون أنفسهم جميعًا إلا في الشارع.. يحبون الجمهرة الصاخبة ومكبرات الصوت الزاعقة.

وبعدما كان الأمل في النجاة مع "إخوان الصفا" أضحى الأمل هو النجاة من "إخوان الجفا"، والفارق بينهم أكبر من احتوائه...[1]

(1) إخوان الصفا ليبراليون _وفق معايير عصرنا_ كانت لديهم مبادئ مبكرة في مسألة المذاهب أولًا وفي الثقافة ثانيًا، فقد حسموا رأيهم في عدم انتمائهم لأي مذهب ونظروا في كتب الأديان والفلاسفة كافة، قائلين في إحدى الوصايا لمن يقرأ رسائلهم ويتبع طريقها: "إننا لا نعادي عِلمًا من العلوم، ولا نتعصب على مذهب من المذاهب، ولا نهجر كتابًا من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألَّفوه في فنون العلم، وما استخرجوه بعقولهم وتفحصهم من لطيف المعاني. وأما معتمدنا ومعولنا وبناء أمرنا، فعلى كتب الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)، وما جاؤوا به من التنزيل، وما ألقت إليهم الملائكة من الوحي".
وقالوا في شرح طبيعة فكرهم: "وبالجملة ينبغي لإخواننا.. إخوان الصفا، أيَّدهم الله تعالى، ألا يعادوا علمًا من العلوم وألا يهجروا كتابًا من الكتب، وألا يتعصبوا على مذهب من المذاهب. لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك هو النظر في جميع الموجودات بأسرها سواء الحسية والعقلية، من أولها إلى آخرها ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها بعين الحقيقة، من حيث هي كلها من مبدأ واحد وعلَّة واحدة، وعالم واحد ونفس واحدة، مُحيطة جواهرها المختلفة، وأجناسها المتباينة وأنواعها المفننة، وجزئياتها المتغيرة".
يُعلن إخوان الصفا في رسائلهم، مبدأ التسامح بين الأديان والمذاهب: "من الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم، ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم، ويتحنن (يُظهر الحنان) على كل ذي روح من الحيوان، ويريد الصلاح للكل، وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين وهكذا مذهبنا". ويتبرأ إخوان الصفا من النظرة الضيقة للأمور: "وليس من مذهب إخوان الصفا، أيَّدهم الله بروح منه، حيث كانوا في البلاد، بل نظرهم كلي وبحثهم عمومي، وعلمهم جامع، ومعرفتهم شاملة".
* مجتزأ بتصرف من كتاب إخوان الصفا المفترى عليهم... إعجاب وعجب. للكاتب رشيد الخيون.

صُدمت رانيا في عماد سعدان صدمة هائلة... انتهازية ومادية وقسوة على الوطن.. وبدأت تشعر بالندم وشعورها المسبق تجاهه بالإعجاب بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا.. رأته شخصًا آخر غير المناضل الذي أعجبت به يومًا وأسرها بشخصيته القوية وآرائه الشجاعة في وقت كان إبداء الرأي يكاد يورد صاحبه موارد الضياع، توقعت أن بوصول الإخوان للحكم فسوف يواصل عماد نضاله المزعوم ضد هذه الجماعة الفاشية ولكنها بُهتت عندما وجدت منه ترحيبًا بتبوئهم حكم البلاد، تعجبت كثيرًا لهذا التناقض.. كيف لشخص مثله أن يرحب بوصول هؤلاء إلى الحكم وهم في أفكارهم وأيديولوجيتهم أبعد ما يكونون عن الحرية والديموقراطية التي كثيرًا ما تغنوا بهما.

أمسى عماد سعدان ضيفًا على مختلف البرامج في القنوات الفضائية التي ترتع كل ليلة، تسقي الشعب خدرًا مغيبًا للعقول... لم تصدق ما تسمعه من عماد وهو يدافع عن وصول الإخوان للحكم وأن تلك هي قواعد اللعبة الديموقراطية، ولم يكن عدم التصديق هذا من فراغ بل لأنها سمعته بأذنها وهو يقول إنه لو وصل مرشح آخر غير المرشح الإخواني للحكم فلا بد من عودة الدعوة إلى الاعتصام والحشد.. وحين سمعت منه هذا الكلام وقتها التمست له العذروظنت أنه يقول هذا بدافع الغضب من إعادة إنتاج النظام السابق بصورة أخرى.. ولكنها ومع الوقت بدأت تستشعر أن وصول هذه الجماعة إلى الحكم لقي هوًى دفينًا لديه..

انتبه لحيرتها واحد من جماعتهم الثورية والذي كان يتميز ببراءة في النية إلى أن بدأ يتفهم مع مرور الوقت الخفي المستتر والنوايا التي فضحتها الأحداث وهو الذي قام بتفسير الأمر لها..

ـ السر في التمويل يا رانيا...

ردت رانيا في تعجبٍ:

ـ التمويل؟

أجابها الزميل بسؤال كمدخل للتوضيح:

ـ عماد سعدان بيشتغل إيه؟

ردت في حيرةٍ:

ـ بيشتغل.. بيشتغل.. مش عارفة، أنا عمري ما فكرت في الموضوع ده.

الزميل في هدوء:

ـ عماد فعليًّا لا يعمل أي عمل نظامي أو حتى غير نظامي.. عماد سعدان أرزقي.. ولكن مش على باب الله بحكم قافية الكلمة ولكن على باب آخر.

باستفهام:

ـ وده إيه علاقته بتأييده للإخوان؟

الزميل موضحًا:

العلاقة واضحة وضوح الشمس.. وصول الإخوان لم يكن مصادفة.. كلنا عارفين إن المرشح الإخواني ليس هو الفائز وأن نتيجة التصويت شيء والنتيجة المعلنة شيء تاني خالص، الإخوان محتاجين تعضيد من كل الأطياف مش بس من التيار الديني والسلفي.

بتلقائية:

ـ الشارع معهم.. المزاج العام إخواني.

الزميل مؤكدًا:

ـ إطلاقًا.. دي صورة إعلامية كاذبة...

مستفهمة:

ـ يعنى عماد بيعتمد على جهة تدفع له..

الزميل في مرارة:

ـ مش هُوَّه لوحده.. دول كتير جدًّا يا رانيا.. أكتر بكتير مما تتخيلي.. وأنا زيك بالضبط وزي أعضاء كتير دخلت المجموعة مدفوعة بروح الحماس والرغبة في تغيير نظام غبي.... علشان كده إللي زيي وإللي زيك هُمَّه إللي

كرهوا وصول الإخوان للحكم واعتبروه خيانة لشهداء يناير.. لكن المستفيد لم يكره بل على العكس.. رحَّب.

وأكمل وهو يهم بالانصراف:

ـ قبل يناير بفترة طويلة أنا كنت دائم الحضور لورش العمل واللقاءات إللي بتنظمها كثير من هيئات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية على اختلاف أسمائها واختلاف موضوع ورشة العمل ولفت نظري مصطلح دائم التكرار كقاسم مشترك في كل ورش العمل إللي حضرتها.

مرتابة:

ـ أي مصطلح؟

الزميل زافرًا:

ـ التشبيك..

رددت سائلة:

ـ التشبيك.. بمعنى إيه؟

أجابها الزميل بتبسيط:

ـ التشبيك بين جميع الهيئات ومنظمات المجتمع المدني على اختلاف توجهاتها.. بحث يكون في عملية Assosiation ارتباط بين كل هذه الهيئات والمنظمات.

نطقت بتلقائية:

ـ التشبيك.. دولة داخل الدولة.

الزميل بإيماءة من رأسه:

ـ بالضبط.. أتمنى إنك تكوني فهمت واستوعبت إللي أنا بدأت أفهمه وأستوعبه لكن متأخر.

بضيق:

ـ لا أبدًا لا متأخر ولا حاجة... لسَّه فيه وقت، المقولة المشهورة: "أن تأتي متأخرًا خير من أن لا تأتي".

رد الزميل وهو يتحرك مُنصرفًا:

ـ الإخوان بيحكموا مصر يا رانيا.. بيحكموها حتى لو بالتزوير.

رانيا بلهجة متفائلة رغم سوداوية الوضع:

ـ الإخوان مش بيحكموا.. هُمه فقط موجودين في القصر الجمهوري... الحُكم لسه في الميدان... والغضب عليهم آتٍ ولو بعد حين.

لم يستطع شاهين أن يتغلب على خوفه من أن يعيد التاريخ نفسه ويقوم الإخوان بتأميم المصانع ويكرروا نفس الجريمة كما فعلت ثورة يوليو، ولأن نظام يوليو جاء في غفلة من الزمن بعد أن دُبِّر الأمر بليل، ونظام الإخوان جاء بزحف وبطريق ملتوٍ لا يخفى على أحد، وعلى الرغم من أن

نظامي يوليو والإخوان نقيضان وعداءهما التاريخي معروف فإن لكليهما صفة مشتركة وهي أنهما لم يصلا إلى الحكم بطريق طبيعي ولهذا فإن إرضاء الجماهير تُعد مطلبًا لنظام الإخوان كما كانت مهربًا لنظام يوليو الذي جعل من هذه السياسة أسلوب حكم حتى يدعم حكمه الغادر بالملك الشرعي فسَلَك مسلك إرضاء العامة وتبنَّى سياسة الإغواء بُغية الإرضاء وتحقق له ما أراد.

وكما خاف شاهين على المصنع من صدور قوانين أو قرارات تبيح التأميم خاف عليه من الضياع بحكم القوانين الأخرى المدعومة بالعادات والتقاليد والعرف والفقه..

ولم تكن رضوى تعرف دواخل أبيها إلى أن جاء إليها في ساعة إلى حجرتها وقد بدأت آثار الحمل تظهر عليها، كانت رضوى تعلم بأن وجودها في منزل أبيها هي مسألة وقت وأنه لا بد لها من العودة إلى منزل زوجها الذي أصبحت إخوانيته مصدر زهو..

قال شاهين وهو يئن ألمًا:

ـ عارفة أنا ليه وافقت على جوازك من يحيى؟

أجابت:

ـ حاولت كتير أوصل لأي إجابة وفشلت.

شرد ببصره عن عيون ابنته وكأنه يهرب من النظر إليها:

ـ المصنع يا رضوى.. المصنع ده بالنسبة لي مش مجرد عمل.. ده حياتي.. جزء مني.. بنيته مع الأيام..

ردت في عجب واستفهام:

ـ المصنع! وإيه علاقة المصنع بجوازي من يحيى؟

ـ لكل أجل كتاب يا رضوى وأنا مش حأعيش العمر كله...

بدأت رضوى في استنتاج ملامح المعنى في إجابة أبيها.

أكمل دامعًا:

ـ ما كنش ممكن أسيب المصنع يروح لحد غريب.. حيتفتت من بعدي، إنت ورانيا ومعكم أمكم ليكم نصيب، وسالم برضه حيكون له نصيب..

أكملت الضحية:

ـ فكان الحل هو إني أتجوز يحيى..

عقَّب في يأس:

ـ إفرضي كان راجل تاني.. كان لا بد أن يقع التصادم بينكم وبين سالم.. الإدارة والأرباح وخلافه.

سألته:

ـ طيب ورانيا يا بابا ما هي كمان حتتجوز.. بس المرة أكيد حتتجوز من شخص غريب يعني مش إبن عمنا ولا حاجة.

أجابها:

ـ ولو.. بزواجك من يحيى حيكون نصيبكم بالإضافة لقدرتك وخبرتك في الإدارة عامل ضاغط في تخارج رانيا وزوجها في المستقبل والاكتفاء بتعويضها تعويض مالي أو حتى الاكتفاء بنسبة سنوية من الأرباح، لكن المصنع سوف يظل قائم.... الحفيد إللي بطنك شايل اسم العصب.

أجابت في مرارة:

ـ يمكن تكون بنت هِيه كمان.

ـ على الأقل تكملي إنتِ المسيرة لحد متجوزيها وكمان تساندي أختك في حياتها.

خرج شاهين من حجرة ابنته وتركها ولكن ليس كما دخلها، لم تعرف رضوى هل تتعاطف مع والدها الذي هزمته القوانين التي لا تُعامل الإناث معاملة الذكور في ميراث آبائهن؟ أم تنقم عليه بسبب حسبته تلك.. ولكنها تذكرت أنه لم يجبرها على الزواج من يحيى.. بل هي التي وافقت بمحض رغبتها وكامل إرادتها وصادفت تلك الموافقه هوًى لدى والدها الذي رغم تعليمه الراقي ونقمته على المصريين وعقولهم فإنه وفي لحظة الاختبار الحقيقي تصرف مثل المصريين الذين يسبهم في المصنع ليلًا ونهارًا.. ويا للتناقض الإنساني..

لم تهدأ الأوضاع في مصر بوصول الإخوان إلى الحكم.. ظلوا مكروهين وفاشلين، استباحت وسائل التواصل الاجتماعي الجماعة وأصبح رئيسهم بالإضافة إلى رئيس وزرائه مادة خصبة للسخرية والاستهزاء، وبدأت الدعوات تتعالى والصيحات تتصاعد وتطالب الرئيس الإخواني بالرحيل..

وبدأت استمارات حركة تمرد تظهر في الشوارع وكان نامق واحدًا ممن يقومون بأخذ التوقيعات من عامة الناس على استمارات الحركة.. مدفوعًا بكراهيته للإخوان وحدادًا على روح زوجته الطاهرة والتي من المؤكد لم تهتف يومًا بسقوط نظام فاشل حتى يأتي بدلًا منه نظام خائن.

ولم ييأس الإخوان.. دشَّن التنظيم حملة مضادة أطلق عليها اسم "تجرد".. لم يشعر بها أحد..

أثبت المصريون في لحظة فارقة أنهم ورغم كل عيوبهم لديهم وعي فطري عجيب.. ضمير جمعي لا يُخدع، فجأة أثبت الشعب أن المصري كفرد شيء والمصريون كمجموع شيء مختلف تمامًا فيما يخص الشعور الوطني، فأغلبية المصريين يسبون كل المصريين، والمصري لا يفتأ يكيل السباب واللعان على بلاده ولكن ما إن يحدق بها الخطر ويحيق بها حتى تراه وقد تحول إلى شخص آخر، يظهر المعدن الحقيقي في الأزمة الحقيقية.. إنها الحقيقة مرة أخرى.. الحقيقة التي تزيل الغبار عن السطح وتجلو ظاهر العوالق كاشفة عن الجوهر، وأن هذا البلد قائم لأن به مصريين خُلص وأن داء الانفصال عن الواقع لم يتمكن من الكل فلا يزال البعض موصولًا بالواقع وبالتاريخ

وهم كُثر ولكن المنظومة لا تسمح بظهورهم.. فلما توفرت الظروف ظهروا وكانوا كيانًا وأي كيان.

والبلاد على صفيح ساخن وسقف الحرية وإبداء الآراء بلا حدود، سواء في جرافيتي الشوارع أو مقالات الصحف أو صفحات التواصل الاجتماعي التي كانت ساحات نزال حقيقي بين المؤيدين للإخوان وبين الكارهين لهم.. كانت كراهية الإخوان هي الوصف الأدق لمشاعر المصريين تجاه تلك الجماعة أكثر من وصفها بالمعارضة، مقت لها وليس رفضًا، بغض وليس خلافًا ونامق بحكم عمله في أحد المراكز الثقافية في خضم الأحداث وقلبها.

وفي ذات يوم، استدعاه مديره في المركز للتباحث حول ترتيب سيمنار (الدولة.. بين الحكومات وبين منظمات المجتمع المدني).. وكلفه بترشيح بعض الأسماء التي يرى أنها تصلح لحضور السيمنار بالإضافة إلى الأسماء التي تمت دعوتها بالفعل على أن يكون هو منسق السيمنار.. تقبل نامق التكليف بصدر رحب ولكنه اقترح على مديره ألا يكون هو المنسق ولكنه سيرشح شخصًا آخر لهذه المهمة لأنه يرى أن الاسم المرشح هو الأجدر بهذا الأمر، نظرًا لخبرته التي يمكن الاستفادة منها، وتقبل مديره بغبطة تلك الغيرية الحميدة منه.

مراعاة للقواعد الديبلوماسية في التعامل اتصل نامق بالسفير صادق

كامل طالبًا تحديد موعد لمناقشة موضوع لا تصلح مناقشته في التليفون وتقبل السفير طلب نامق بترحاب.

ذهب إليه في بيته وعرض عليه اقتراحه بترشيحه لإدارة السيمنار.. وافق صادق رغم ميله إلى الانعزال بعد الأحداث الأخيرة ولكنه تراجع بعد ضغط أدبي من نامق، ذلك الضغط الذي مارسه عليه مستندًا فيه إلى الصداقة التي تجمعه بالسفير نظرًا للتقارب الفكري بينهما، فكثيرًا ما كانت تأخذهما جلالة الحوار متفقين غير متنافقين ومختلفين غير متنافرين لذا توَّطدت العلاقة بينهما كعلاقة صداقة أكثر منها علاقة مصاهرة. فضلًا على أن ما فيه البلاد من فوضى كان باعثًا له على الموافقة وكأنه من الأساس يخدع نفسه بقرار الانعزال هذا، فما إن أشار له نامق حتى عاد إلى سيرته الأولى كباحث مفكر أكثر منه سفيرًا موظفًا.

ظهرت على نامق علامات الغبطة والسرور بعد موافقة السفير وقال بجدية:

ـ أشكرك شكرًا جزيلًا سعادة السفير.

ردَّ صادق بوُدٍّ:

ـ إنت إنسان محترم يا نامق وتقديرك لي محل اعتبار..

عطفًا على مقولة السفير عقَّب نامق بوُدٍّ:

ـ أنا بلغنى من أحد أصدقائي الصحفيين إن اسم سيادتك كان مرشح لتولي حقيبة وزارية في وقت من الأوقات لكن العرض الرسمي لم يتم.

السفير بصدق:

ـ صدقنى حتى لو كانوا عرضوا عليَّ تولي أي وزارة كنت حأرفض.

نامق مستفهمًا:

ـ تعتذر... ليه يا سيادة السفير؟

السفير موضحًا:

ـ لا يانامق مش حأعتذر.. حأرفض.. رفض مش اعتذار.

أعاد استفهامه:

ـ والسبب.. بدون تطفل.

السفير متجهًا للتفسير:

ـ فيه واحد من أشهر الأفلام المصرية فيلم اسمه "إسماعيل يس في الأسطول".. في هذا الفيلم مشهد عبقري كل ما أشوفه أحس إن هذا المشهد هو تجسيد لما وصلنا إليه.

ـ استمع نامق بتركيز إلى السفير الذي أكمل تشبيهه لمقتضى الحال:

ـ وقف العسكري رجب على منصة القفز إلى الماء وكل ما يحين عليه

الدور للقفز يتراجع ويقفز الزميل الذي يليه.. حتى التفت ولم يجد أحدًا... قفزوا جميعًا ولم يبقَ إلا هو.. فلم يجد بُدًّا من القفز.. فقفز مضطرًّا.

نامق بدت عليه علامات عدم الفهم، فبادر السفير بالتوضيح بعدما نطقت ملامح نامق بما تحرج أن ينطق به لسانه.

ـ حال الشعب مثل حال العسكري رجب تمام، حال الشعب وليس حال الحكومة، الأمر واضح وببساطة... كل مرة كانت الحكومات هِيه إللي بتقفز مكان الشعب.. ولا يزال الشعب يمارس هوايته في البحث عن الحل البديل المريح.. الحل السهل.. لا يزال يبحث عمن يقفز مكانه.. أكيد إنت متابع مدى الصعوبة إللي بتواجه الحكم الحالي في البحث عن كفاءات تقبل تولي الحقائب الوزارية.

نامق مبينًا ظنه:

ـ على حد علمي إن الرفض ناتج من كون النظام الحالي نظام إخواني.

السفير معقبًا:

ـ ده صحيح إلى حد كبير.. لكن مش بس هُوَّه ده السبب.. حتى ولو لم يكن النظام إخوانيًّا.. الكثير حيخافوا يقبلوا، صدقني يا نامق أنا بعد ما يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا في السلك الديبلوماسي وبعد ما تعرفت واطلعت على مختلف ثقافات الشعوب بالإضافة لاهتماماتي الخاصة بالرصد والمتابعة أستطيع أن أؤكد لك عن أن المشكلة بالفعل كامنة في جوهر

وتلافيف المنظومة وليس فقط النظام.

عندما نطق صادق كامل بلفظ المنظومة شعر نامق بصدور حكم البراءة.. البراءة من الاتهام بالجنون والخبل.. شعر للحظة أنه ليس هو المفصول عن الواقع ولكن المنفصلين عن الواقع بالفعل هم من لا يريدون تشخيص المشكلة تشخيصًا حقيقيًّا.. من يكرهون السبب.. الباطل دومًا يكره السبب.

أفاق على صوت السفير:

ـ معذور ومعك حق في إنك تشرد.. المنظومة هِيه الأساس.. المنظومة القائمة على مبدأ التأجيل أو الارتكان لسياسة الإرضاء.. أو الحل الأقرب دون الحل الأصوب.. أو... أو...أو، تتعدد التوصيفات والنتيجة واحدة.. هو إننا في النهاية ورغم كل شيء سوف نقفز وبدلًا من أن نقفز في موعدنا والظروف مهيأة، سوف نقفز ولكن في غير الأوان لأننا فرضنا على أنفسنا موعد غير مناسب.. وهذه المرة لن يصلح ما كان يصلح فيما سبق لأنه لا يوجد أحد يقفز مكاننا.. كافة الحجج استنفدت وانتهت صلاحيتها... ولم يعد أمامنا إلا القفز وإن لم نفعل سنغرق ومن المؤكد أن البلل الناتج عن السباحة أفضل من العناء الذي سوف نراه إذا انتظرنا ميل السفينة بنا أكثر مما هي مائلة..

إن لم نقفز بنظام وروية فسوف نتكالب جميعًا حول قارب واحد لن يسع أحد منا آمنًا لأن الكل وقتها سوف يتقاتل مع الكل.

خرج نامق من المقابلة وهو على قناعة تامة بأن الأرواح هي السر... الفصائل المتشابهة تتلاقى وتأتلف، والمتناقضة لا تختلف فقط بل تنفر من بعضها نفورًا... هناك فصائل لا يمكن أن تتعايش مع فصائل أخرى، من الممكن أن تتعامل.. أو حتى تحتك بها ولكن من المحال أن تتعايش معها.. لأنها نماذج متضادة وليست فقط مختلفة...بينه وبين السفير عدة فوارق.. جيل غير الجيل وتعليم غير التعليم وعمل غير العمل ولكن التكوين واحد.. الجوهر متطابق.. إنهما من نفس الفصيلة وإن اختلف السرب، فما قاله السفير هو ما يقوله لنفسه طوال الوقت، أخطأ ذات مرة وقال نفس المعنى في المصنع...مصر الصغرى... وكان ما كان.

ترجَّل على قدميه شاردًا... مصر اليوم إخوانية الحكم.. سلفية الهوى.. وهابية الشخصية.. فوضوية الشارع.. مصر اليوم على شفا جرف هارٍ يكاد ينهار بالجميع..

أقباط مرجفين... عوام ضالين.. نخبة منتفعة.

أسوأ شيء في هذا البلد أن تكون مسئولًا وأفضل مهنة أن تكون إعلاميًّا.

ماذا يفعل وماذا يفعل غيره ممن يحملون نفس الفكر، ولكن أليس دومًا الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الطيبة.. أليست هذه هي مشكلته في عمله الذي سعى جاهدًا إلى إيجاد حلٍّ لمشاكله اليومية، حلول جذرية

لا شكلية.. حلول دائمة لا مؤقتة.....لكنه في العمل في موقف ضعف.. وصاحب الموقف الأقوى الذي بيده الحل لا يعاني بل يجد من يتأقلم ويقبل ولا مشكلة.. إنها نفس مشكلة المجتمع.. الشعب.. الجماهير.. يعرفون ويعترفون بوجود المشاكل.. حسنًا هذه هي الحلول.. على الفور تتحرك أكبر مؤسسة في الواقع الحاضر وفي التاريخ.. مؤسسة لا... صاحبة اليد الطولى والمصداقية الكاملة في نفوس ومعنويات العوام... المصداقية المفقودة بين من يَحكم ومن يُحكَم.. حتى وصل بنا الحال إلى أن حَكم الإخوان البلاد..

مصر وريثة الحضارة الفرعونية... سليلة الإمبراطورية الرومانية... حاضنة الأديان الثلاثة.. الدولة التي كلَّم الله فيها موسى تكليمًا.. وخطتها البتول حاضنة المسيح.. مصر صاحبة طور سينين وقعت تحت حكم الـ...

سار ولم يكن في سيره ما يُجهده فهو يحب السير على قدميه منذ أن أخذ على نفسه عهدًا بعدم امتلاك سيارة إلا إذا احتاج إليها ولم يكن من شرائها بُد.. عندما يحتاج لا عندما يرغب.. فهو يسعى إلى ما يحتاجه وليس إلى ما يرغبه، وإن فعل فلسوف يكون حريصًا على أن تكون أرقامها أرقامًا عادية وليست مميزة حتى وإن كان مقتدرًا على شراء تلك الأرقام التي لا يسعى إليها إلا السفهاء المملوئين بمركبات النقص مَثلهم مثل هؤلاء البلهاء الذين يسعون حثيثًا للحصول على أرقام مميزة لتليفوناتهم دون أن ينتبهوا إلى أن لا أحد يستخدم الرقم إلا لمرة واحدة ومن بعده يصير الرقم اسمًا، تتجلى في هؤلاء الناس كل معاني التشيؤ، فالأشياء هي التي تستخدمهم

لا هم الذين يستخدمونها، إنها المعايير مرة أخرى، الاختلاف بين القيادة والانقياد، بين الاحتياجات وبين الرغبات، فالرغبة تورد مورد الهلاك، أما الاحتياج إن وفىَّ فأقصى أثر له هو الضيق وأيًّا كانت درجته فسوف يكون محُتملًا.

طاف يُعزي نفسه متذكرًا ما قرأه يومًا:[1] ليس دور المثقف هو أن يقول للآخرين ما يتعين عليهم فعله، وليس عمل المثقف أن يُشكل إرادة الآخرين السياسية، وإنما يكمن عمله في التحليلات التي يقوم بها، وفي إعادة المُساءلة للبديهيات والمُسلمات وزعزعة العادات وطرق العمل والتفكير فيها، كما يكمن دوره في تبديد الأمور المألوفة المقبولة، وإعادة النظر في القواعد والمؤسسات والمساهمة في إعادة تشكيلها.

تكفَّلت الإدارة الرسمية للمركز بتوجيه الدعوات إلى بعض الشخصيات بالحضور واستأذن نامق الإدارة في منحه حق دعوة بعض الأسماء من طرفه ولم تمانع الإدارة في ذلك.. والتقى الجمع.

نامق... حاضر بحكم وظيفته.

رانيا شاهين.. التي تردد اسمها كثيرًا في الفترة الأخيرة كناشطة سياسية منذ 25 يناير رغم تغيُّر موقفها حيث أصبحت أكثر تعقلًا وأقل اندفاعًا بعد وصول الإخوان للحكم.

(1) فوكوياما فرانسيس، مجلة الأدب إبريل 1984.

عماد سعدان... الذي أصبح واحدًا من أهم الأسماء في وسائل التواصل الاجتماعي وبرامج القنوات الفضائية.

مرقص عياد... الذي وجَّه نامق إليه الدعوة بصفة خاصة.

وحضر السيمنار شخصيات من كل الأطياف.. إخوان.. سلفيون... أقباط.. نشطاء سياسيون وحقوقيون..

قاد السفير صادق كامل اللقاء ورحب بالجميع فاتحًا باب الحوار على أن يلتزم الجميع أدب الخصومة والتي من المؤكد أنها سوف تندلع نارها دون شك.. ولهذا استهلَّ السفير بداية الكلام بتأكيد على ضرورة الالتزام بهذا المبدأ ودون أن يصارحهم، قام وبحكم خبرته الطويلة باستهلال اللقاء بعملية Brain Storming عصف ذهني حتى لا يصبح الحوار عشوائيًّا أو مفتعلًا بل مبنيًّا على أفكار حددها صادق كامل في صورة Power point وذلك من خلال سرد تاريخي.

قال ممهدًا للحوار:

ـ الشعوب لم تعرف فكرة الدولة إلا متأخرًا.. الدولة اختراع بشري مثل أي اختراع.. تبللور وتشكَّل في معاهدة وستفاليا وكان ذلك في عام 1648 في ألمانيا، يمكن النظر إلى هذه المعاهدة بوصفها ميلادًا فعليًّا لمفهوم سيادة الدولة والنظام الحديث للدول كما نعرفه الآن، كما وضعت المعاهدة مبدأ التسامح الديني في العلاقات بين الدول، فبعد الحرب التي ظلت

مستعرة لمدة ثلاثين عامًا بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية جاءت هذه المعاهدة لتنهي سيطرة الدوافع الدينية على محركات الفعل العسكري والسياسي في أوروبا وأصبح الانتماء راجعًا لفكرة الوطن الإقليمي وليس الوطن الديني أو المذهبي، ومنها كانت البداية الحقيقية لنشوء فكرة الدولة، إنها الدولة الوطنية التي يجتمع فيها مواطنوها بصفتهم شعبًا لها وليس بصفتهم الطائفية أو المذهبية بعيدًا عن أي شكل من أشكال التمييز.. الكل متساوون، فالمواطنة هي المرجع.. والجميع أمام القانون سواسية دون أي تمييز بسبب الدين أو الملة أو لون البشرة، أقرَّت معاهدة وستفاليا ورسَّخت مبدأ سيادة الدول على كامل أراضيها ومواطنيها داخل الحدود الجغرافية أو السياسية المعترف بها دوليًّا ولكل دولة الحق في اتخاذ ما تراه من قرارات وأن تصوغ ما تريد من قوانين داخل حدود الإقليم الخاضع لسيادتها جغرافيًّا وبشريًّا.

بعد المعاهدة بدأت الدول بشكلها الحديث تظهر للوجود من رحم الإمبراطوريات القديمة لأن الإنسانية شعرت بحاجتها إلى كيان قوي فنشأت الدولة كمؤسسة مُشخصة هذا الغرض...

ومع تطور الزمن تغيرت أشكال الدولة، فمنها الإمبراطوريات التي شملت عدة دول وأعراقًا متباينة، ومنها التي اعتمدت على فكرة الشرعية الدينية، مثل الخلافة على اختلاف انتمائها المذهبي، وظهرت المَلكية بشقَّيها، الملكية الدستورية والملكية التامة، والجمهورية بنوعيها، الرئاسية والبرلمانية،

ومنها الإمبراطورية سواء كانت إمبراطورية تشمل عدة دول كما كان قديمًا أو إمبراطورية الدولة الواحدة مثل اليابان حاليًّا، وهناك الدولة ذات النظام الفيدرالي والمثال الأشهر لذلك هي الولايات المتحدة الأمريكية حيث تتمتع كل ولاية بحرية كبيرة في سَنِّ القوانين طبقًا لظروفها ويُعد هذا النظام هو المثال العملي للبرجماتية السياسية، على أي حال، البشرية انتهت إلى أن أفضل فكرة لتحقيق الأمن للشعوب هي انضواؤهم تمامًا تحت سلطة دولة.. هذا الكائن الاعتباري... ومنها نشأت فكرة العَقد الاجتماعي.

أمسك السفير ببعض الأوراق المطبوعة من أحد مواقع الشبكة العنكبوتية وتلا سريعًا على الحضور لمحة موجزة عن نظرية العقد الاجتماعي:[1] تعتبر هذه النظرية من النظريات القديمة، غير أنها اشتهرت بثلاثة من علماء الاجتماع: الإنجليزيين توماس هوبز وجون لوك والفرنسي جان جاك روسو.

ومن خلال آراء هؤلاء الثلاثة سنحاول أن نتعرف باختصار على هذه النظرية.

مبدئيًّا هناك اتفاق في الرأي في مسألتين:

الأولى: أنه في بداية عصر الإنسانية كان الناس يعيشون حياة فطرية ويتمتعون في ظل هذه الحياة بحقوق وحريات منحتها لهم الحياة أو الطبيعة، تسمى بـ"الحقوق الطبيعية".

(1) بتصرف واختصار من عدة مواقع إليكترونية.

الثانية: أن الأفراد رغبوا في حياة أفضل، فأرادوا الانتقال من الحياة الفطرية إلى حياة مجتمع منظم سياسي، أي أنهم اتفقوا على إقامة سلطة بالوسيلة التي تم بموجبها هذا الانتقال، فكانت الوسيلة التي تم بها هذا الانتقال تسمى: "العقد الاجتماعي".

وكل واحد من هؤلاء الثلاثة كان له مفهوم خاص للعقد الاجتماعي، فتوماس هوبز وجون لوك أرادا أن يصلا إلى نتيجة معينة، وجان جاك روسو كذلك.

وسنحاول تبيان هذا المفهوم عند كل واحد من هؤلاء الثلاثة بإيجاز شديد:

أولًا: بالنسبة لمفهوم العقد الاجتماعي عند توماس هوبز... يُرسخ هوبز للسيادة المُطلقة للسلطة الحاكمة حيث كان هوبز يخالف أرسطو في نظرته إلى كون الإنسان اجتماعيًّا بطبعه، حيث يرى العكس، أن الإنسان أناني ومحب لنفسه لا يعمل إلا بقدر ما يحقق مصلحته الشخصية. ومن هنا يرى أن الحياة البدائية قد سادها الفوضى والاضطراب، وسيطر الأقوياء على الضعفاء، ولهذا السبب تولدت لدى الأفراد فكرة "التعاقد"، ومعناها أن يعيشوا تحت رئاسة أو قيادة أحدهم متنازلين له عن حقوقهم وحرياتهم ما يرتب على هذا، الانتقال من حياة الفطرة إلى حياة الجماعة ضمانًا للبقاء.

ويعتبر توماس هوبز أن هذا العقد ملزم لجانب واحد وهم الأفراد،

حيث إنهم تنازلوا عن حقوقهم للحاكم الذي هو بدوره لم يتنازل عن حقوقه الطبيعية في الحياة الفطرية.

أراد هوبز بهذا التفسير أن يبرر سلطة الحاكم المطلقة، حيث إن الأفراد بتنازلهم هذا قد تنازلوا عن حرياتهم إلى الحاكم، واتفقوا فيما بينهم على أن كل ما يأمر به الحاكم فهو خير، وكل ما ينهى عنه الحاكم فهو شر، ويؤسس على ذلك أنه لا يحق للأفراد مناقشة مشروعية الحاكم في الأوامر والنواهي الصادرة عنه، بل يجب عليهم الطاعة والامتثال...

عند ذكر هذه النقطة استحضر نامق صورة شاهين ثم انتبه مرة أخرى لسرد السفير...

وبالتالي استبعد توماس هوبز حق الأفراد في مقاومة الحاكم مهما كانت تصرفاته، وقد أسس سلطة الحكام المطلقة على فكرة العقد الاجتماعي.

ثانيًا: أما مفهوم العقد الاجتماعي عند جون لوك، فقد اتفق لوك مع هوبز على وجود حالة فطرية عاشها الأفراد قبل حياة الجماعة وأن المجتمع يقوم على أساس العقد الاجتماعي، غير أنه اختلف مع هوبز في وصفه أن الحياة الفطرية تخلق الفوضى، حيث أن جون لوك يرى حياة الفطرة حياة حسنة، إلا أن الأفراد رغبوا بحياة أفضل، وتحقيقًا لذلك سلكوا طريق التعاقد فيما بينهم من أجل إقامة سلطة تتمثل في شخص أو بضعة أشخاص يمثلون المجتمع بأكمله، وعلى هذا الأساس يقول: إن التعاقد تم بين الأفراد من ناحية، والحاكم من ناحية أخرى. أي أن العقد عند جون لوك ملزم من

الطرفين، الأفراد والحاكم، وأن الأفراد لم يتنازلوا عن كل حقوقهم في حياة الفطرة، بل إن التنازل الحاصل كان جزئيًّا بالقدر المهم أو الضروري.

وقد أراد جون لوك بهذا التفسير تحقيق سلطة الحكام المقيدة لما يتضمنه العقد من التزامات متبادلة، فالحاكم من جانبه ملزم بالمحافظة على حقوق الأفراد التي لم يتنازلوا عنها وملزم بإقامة العدل بينهم، والأفراد ملزمون بواجب الطاعة للحاكم طالما كان هذا الحاكم يعمل وفقًا للحدود المرسومة بموجب العقد، فإذا تجاوز الحاكم تلك الحدود، كان من حق الأفراد الاعتراض عليه ومقاومته، وبهذا فإن جون لوك أعطى للأفراد حق المقاومة الشعبية في هذه الحال.

ثالثًا: وأخيرًا مفهوم العقد الاجتماعي عند جان جاك روسو، فقد استهدف روسو بفكرة العقد الاجتماعي تنازل الأفراد عن كافة حقوقهم الطبيعية التي كانوا يتمتعون بها في حياة الفطرة، وهذا التنازل لم يتم لشخص معين بالذات أو أشخاص معينين كما ذهب كل من هوبز ولوك، بل إن هذا التنازل تم للمجتمع بأكمله، ويضاف إليه، أن الأفراد لم يفقدوا حقوقهم كليًّا، وإنما استعاضوا عنها بحقوق مدنية مضمونة وصحيحة من قبل الطرف الذي أقاموه وهو (الدولة).

فالتعاقد عند روسو هو إحلال الإرادة العامة الجماعية محل الإرادة الفردية.

كما أن غرض التعاقد هو تنازل كل فرد عن كافة حقوقه الطبيعية للمجتمع، وبما أن هذا التنازل يتم دون تحفظ من قِبل الأفراد، فليس لأي فرد منهم أن يطالب بشيء، وذلك لتحقيق مبدأ المساواة بين الجميع، يضاف إلى ذلك أنه ما دام كل فرد تنازل عن حقوقه فليس هناك ما يدفعه للتعدي على الآخرين، وفي ذلك تحقيق لمبدأ الحرية، وأن تنازل الأفراد عن حقوقهم الطبيعية يقابله حصولهم على حقوق مدنية يقرها الحق العام الذي أقرته السلطة أو الدولة وفي ذلك اختلف روسو عن هوبز الذي جعل هذا التنازل كليًّا لصالح الحاكم، كما اختلف عن لوك الذي قصر التنازل عن بعض الحقوق دون البعض الآخر، وبذلك يكون روسو قد جعل السيادة للمجموع لا للشخص بذاته أو أشخاص معينين بذواتهم، وبمعنى آخر أن روسو أقرَّ مبدأ "السيادة الشعبية" الذي يتمثل في مبدأ سيادة القانون بوصفه خير تعبير عن الإرادة الجماعية. الذي صاغه المفكر الفرنسي الشهير جان جاك روسو.. ببساطة.. يتنازل المواطنون عن بعض من حقوقهم للدولة نظير تحقيق الاحتياجات الإنسانية لهم.

رفع صادق كامل بصره عن الأوراق قائلًا:

ولكن لا بد أن نذكر أن فكرة الدولة ليست فكرة ناجعة وناجحة في حد ذاتها بل لا بد من تضافر عوامل لنجاح الدولة في القيام بمهامها وإلا تحولت إلى دولة فاشلة.. والواقع يشهد بذلك بالفعل.

وهنا اندفع عماد سعدان قائلًا:

ـ الدولة توحشت.. وأصبحت تعمل ضد مواطنيها.. وده إللي عملته المؤسسات.

رانيا بلهجة يملؤها المرارة من هذا السعدان:

ـ دولة المؤسسة هي التي أنقذت مصر.

لِحقَها نامق مُعضدًا:

ـ المصريين بطبيعتهم ميالين للمركزية.. شعور متجذر منذ أيام الفراعنة.

صادق مُصدقًا:

ـ ده صحيح إلى حد كبير.. المصريين بطبيعتهم بيشعروا بالأمان في كنف الدولة.

رد السلفي الذي بدا وكأنه لا يصدق أنه قبل أساسًا أن يدخل إحدى الكنائس بل ويتحاور في لقاء فيها، جاء ذلك بعد طلب من نامق الذي طالما عاركه حواريًّا جلوسًا على سجاد المساجد فطلب منه نامق أن يستكملا تعاركهما في الكنيسة، فقبل بعد استنكار أعقبه تفهم:

ـ الدولة القومية تتعارض مع أممية الإسلام.

مرقص مندفعًا ومقاومًا:

ـ الدولة الحديثة تعتمد على فكرة المواطنة كمرجع للانتساب.

أحد الإخوان الذي جاء بدون تردد بعد دعوة من إدارة المركز التي حرصت على التواصل مع الجميع:

ـ لا أرى تعارضًا.. من الممكن تحقيق التوافق بين المبدأين.

ردَّ أحدهم:

ـ كيف؟ ما بين الانتساب العِرقي القائم على فكرة المواطنة والانتساب القائم على الانتماء الديني ليس هناك فقط تعارض ولكنه أيضًا تناقض.

رانيا مؤكدة:

ـ بالضبط.. مختلفين في التكوين.

قال نامق في تلقائية:

ـ ليسوا من نفس الفصيلة.

عماد مندفعًا:

ـ الحل في إعادة الصياغة عن طريق الهدم.

مرقص وقد كواه وصول الإخوان للحكم:

ـ قول حق يراد به باطل.

هنا تدَّخل منسق الحوار قائلًا:

ـ الرأي حر.. بدون إلقاء أي اتهامات.

أكمل نامق حديث مرقص:

ـ أقول وسأقول دائمًا.. إن الوطن في حد ذاته لا يصلح للحياة بدون دولة.. الوطن من غير دولة ليس أكثر من مجرد قطعة أرض.

رانيا بحرارة:

ـ أتفق معك تمامًا.

وأكمل نامق:

ـ هناك مقولة معروفة تقول: الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الطيبة.. النوايا الطيبة هي التي تورد موارد التهلكة..

مرقص متأثرًا:

ـ أغلبية الناس نواياهم طيبة.

نامق بهدوء:

ـ السر يكمن في منهج التغيير وليس في وجوب التغيير من عدمه لأن التغيير صيرورة، قانون ثابت... القانون الذي لا يتغير هو التغيير.

الإخواني بِغِلٍّ:

ـ الدولة العميقة ضد التغيير..

رانيا بحمية:

ـ الدولة العميقة ضد الفوضى.. ضد الانهيار.

السلفي مُفاخرًا:

ـ الخلافة كانت حاضنة للكل.. حتى الأعراق والديانات المخالفة للإسلام.

نامق معقبًا:

ـ الخلافة شكل من أشكال أنظمة الحكم.. ممكن اعتبارها بمثابة المعادل الموضوعي لفكرة الإمبراطوريات التي نشأت في الغرب.

واحد من الاشتراكيين الثوريين يصرخ فجأة:

ـ أنا أتفق مع رأي القائل بضرورة الهدم.. لا أمل في التغيير طالما الدولة العميقة موجودة.. الجماهير تقود التغيير نحو تحقيق الحلم الاشتراكي.

نامق بلهجة تفيض بالقناعة:

ـ الاشتراكية فكرة طوباوية تحتاج إلى ملائكة لتنفيذها، ده غير أنها عمليًّا فشلت ليست فقط بسبب المؤامرة الإمبريالية على حد تعبيركم ولكن بسبب كينونتها.. الانفصال عن الواقع.

رد الثوري بعناد:

ـ رغم كل ما أريق من دماءٍ وقتها، الثورة الفرنسية هي التي صنعت فرنسا الحديثة.

أجاب نامق في هدوء:

ـ "من المبكر جدًّا أن نعرف ذلك".. مقولة منسوبة لرئيس وزراء الصين عندما سألوه عن رأيه في الثورة الفرنسية.. رغم مرور ما يزيد عن مئتي عام على قيامها.

قال السفير معقبًا:

ـ فرنسا الحديثة لم تصنعها الثورة فقط.. شخصية مثل سان سيمون لعبت دورًا كبيرًا في نهضة الأمة الفرنسية...

وابتسم السفير مُستدركًا:

ـ السانسيمونية هي الاتجاه الوحيد إللي ممكن يجمعنا...

أردف نامق ضاحكًا:

ـ سان سيمون هو الحل.

اعتدل صادق كامل قبل أن يشرع في توضيح سببية استحضاره لشخصية سان سيمون في جلستهم تلك محاولًا الاختصار قدر الإمكان في سرده:

ـ هُوَّه الكونت كلود هنري دي سان سيمون دورفروا Saint Simon، الباريسي النشأة، ولد عام 1760، وكان فيلسوفًا فرنسيًّا يميل إلى مبدأ تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية. وكانت دعوته موجهة إلى الاهتمام بالصناعة.

ابتسمت رانيا حين استحضر ذهنها بطريقة لا إرداية فخر أبيها الدائم بأنه رجل صناعة لا رجل أعمال.

ـ أيّد الثوار الفرنسيين وتعرَّض في حياته للجوع والتشرد، وتحمَّل الكثير من الصعاب في صراعه الطويل من أجل صياغة أفكاره ونظرياته التي كان يرمي بها إلى قيام مجتمع عادل، ومن أشهر مؤلفاته "المسيحية الجديدة".

وعلى ذكر الثورة الفرنسية ابتسم مرقص الذي أطربه ذكر مصطلح المسيحية الجديدة وكأن المصطلح في حد ذاته مداواة لجرحه الغائر.

وكان من أتباع سيمون الفيلسوف أوجست كونت، والمهندس فرديناند دي لسبس الذي قام بحفر قناة السويس في مصر.

ويُعد مذهب سان سيمون مذهبًا اشتراكيًّا، فهو مثلًا دعا إلى إلغاء الميراث وكان من رأيه أن انتقال الثروة يجب عدم تقييده بالعائلة وإنما يجب أن تؤول هذه الثروة بعد وفاة صاحبها إلى الدولة.

ابتسمت رانيا مرة أخرى ولكن بمرارة في هذه المرة حيث ذكَّرتها تلك النقطة بالسبب الحقيقي لقبول والدها زواج أختها من يحيى.

ويا للإنسان... يبتسم فخرًا وفرحًا وحزنًا.. بل وكمدًا أحيانًا ترويحًا للنفس المثقلة...ولكلٍّ ابتسامة.

واستمر المتحدث قائلًا:

يدعو أنصار هذا المذهب إلى أنه يجب على السلطة أن تُسلم قيادتها إلى الصناعيين لا للعلماء، لأنهم هم الرؤساء الحقيقيون للشعب، فهم الذين يقودونه في أعماله اليومية. فالأمة هي ورشة صناعية واسعة، تزول فيها فروق المولد والنسب، وتبقى اختلافات القدرات. وقد كانت آراؤهم وراء بدايات "العلم الوضعي" والاشتراكية.

ورأى أنصار سان سيمون في دولة مصر، وحكم محمد علي فرصة لتطبيق أفكارهم، لذا فقد سافر كثير منهم إلى مصر للمساهمة في نهضتها.

تهللت أسارير نامق فلا يوجد أعذب لديه من سيرة محمد علي ودولته وسلالته.

اتخذ الفكر عند سان سيمون طابعًا تطبيقيًّا عمليًّا وليس نظريًّا مثلما كان سائدًا من قبل ذلك وأكد على الترابط بين المعرفة والواقع الإنساني.

وفي كتابه الشهير "المسيحية الجديدة" يُعرِّف الدين بأنه:

"جملة تطبيقات العلم العام التي يمكن بواسطتها أن يحكم الرجال المستنيرون غيرهم من الجهلة".

بهذا المضمون فإن الديانة عند سان سيمون هي أداة مدنية للحكم. وبما أن الدين يلعب دورًا في التربية لذا فإن التربية هي العنصر الذي يساعد على توطيد المشاعر الديموقراطية وتحقيق القيم الأساسية.

إذن الدين ليس حالة ثابتة بقدر ما هو حالة تطورية وعندما يتساءل عن الدين وماهية الأديان نراه في كتاب "المسيحية الجديدة" يقول بتطورية الأديان وعدم بقائها على حالها.

شرد مرقص مصدومًا مما يسمعه.. فالكلام المتواتر مذكور في كتاب تحت مسمى "المسيحية الجديدة".. مكتوب في القرون السالفة.. ومَن كَتبه مسيحي أقل ما يوصف به أنه مفكر موصول بالواقع.

وأكمل صادق صدقه في نقل الفكر السيموني:

السؤال: لماذا ينظر كثيرون إلى سان سيمون على أنه من مؤسسي علم الاجتماع الديني؟

ـ لأنه في واقع الأمر ساهم ولو بشكل محدود في تأسيس هذا العلم من حيث الجوهر حيثُ قدَّم سان سيمون الأديان بوصفها ظواهر اجتماعية وإنسانية من الممكن تحليلها تحليلًا علميًّا كبقية الظواهر الأخرى، بل إن سيمون قاربها كما فعل ابن خلدون في نظريته حول تداول الحضارات التي تنشأ وتقوى ثم تضعف، إذ يعتقد سيمون أن انتشار الصناعة هو الشرط الأساسي والوحيد لقيام مجتمع حديث ومعرفة حقيقية، فالصناعة بطبيعتها تخلق مجتمعًا، كل التصورات التي تنبثق عنه تكون تصورات واقعية، الصناعة أيضًا شرط لكل التحولات النوعية والفكرية في أي مجتمع.

نكأت هذه النقطة جرح نامق متذكرًا ما روته منار عن والدها الذي مات محسورًا على واحدة من أهم القلاع الصناعية في مصر.

ـ والمفارقة أن سان سيمون تخلى عن لقب الكونت واتخذ لنفسه لقب الدرويش...

وكأن نامق على موعد مع الدراويش أحدهم مطرب يتصبر بأغانيه وآخر شاعر يتعزَّى بأشعاره وثالث مفكر يتواسى بأفكاره.

واسترسل السفير في حديثه والجميع يستمعون إليه...

مرقص.. عماد.. رانيا.. السلفي... الإخواني.. الليبرالي.. الاشتراكي، واستمر الحوار بلا انقطاع.. استمر ساعات.. وكان من الواضح أن عملية العصف الذهني التي قام بها في البداية قد أتت أُكلها فدار الحوار ساخنًا.

وبعد أن انتهى الاجتماع انصرف الجميع.. وكالعادة لم يُعِد أحد مقعده إلى مكانه.. وقف نامق أمام المقاعد المبعثرة متسائلًا:

ـ تُرى هل هذا حالنا فقط أم أن جميع شعوب الأرض لا تُعيد المقاعد إلى أماكنها حين يهمون بالانصراف؟[1]

رأى نامق زميله عيد في هذا اليوم في فترة الاستراحة كالعادة ولكن حاله لم يماثل كل يوم.. كان واجمًا شاردًا، تردد نامق في أن يسأله عن سبب شروده، ثم فضَّل ألا يفعل، انقضت فترة الاستراحة وعاد كلٌّ إلى محله.

(1) المذكور عن سان سيمون في الفقرة السابقة منقول من عدة مواقع إلكترونية بتصرفٍ.

كان نامق بحكم عمله في المخزن يتعامل مع كل وحدات المصنع بدون استثناء، رنَّ التليفون الداخلي وذهب ليجيب فإذا بعيد ينفجر غاضبًا بسبب التأخير في توريد بعض الخامات إلى أحد الأقسام التي يشرف عليها.

لم يكن الأمر يستحق كل هذا الانفعال، فكثيرًا ما تأخر المخزن في توريد بعض الخامات إما بسبب ضغط العمل أو بسبب عدم تفرغ أحد العاملين الذين كثيرًا ما يتوجَّب عليهم تلبية عدة مطالب لتوريدات يصادف أحيانًا طلبها في نفس التوقيت لوحدات متباعدة من وحدات المصنع أو لأي سبب كان، هذا غير أن الخامات المطلوب توريدها يمكن إرجاؤها قليلًا ولا تستحق كل هذا الغضب الذي بدر من عيد.

تعجب نامق من ردة الفعل هذه وبردٍّ فعل تلقائي تجاذب الكلام مع زميله في التليفون وكاد الأمر يصل إلى شاهين على الرغم من حرص جميع العاملين في المصنع على عدم إيصال أي مشكلة له إلا للضرورة القصوى كعادة المصريين الجيدة في ذلك.

استبق بعض الزملاء التطورات في الأحداث.. وطلبوا من نامق أن يتريث وألا يُصعِّد المشكلة وأن يلتمس العذر لعيد، ولأن المصنع ليس غريبًا على النسق العام للعلاقات الاجتماعية فالمصنع جزء من مجتمع عام يتميز أو (يتعيَّب) بأن لا سر فيه لأحد...وفي اليوم التالي وفي وقت الاستراحة عرف نامق سر حالة عيد.

قالت داليا لنامق قبل وصول عيد بدقائق:

ـ أخت عيد إطلقت.

صمت نامق ولم يرد فالموقف كان محرجًا بالفعل على الرغم من أنه لا علاقة له بالموضوع.

وصل عيد واستنتج تلقائيًّا أن داليا أخبرت نامق عن سر حالته.

تقبل نامق تأسف عيد عما بدر منه بالأمس ثم أكمل بلهجة تفيض همًّا:

ـ المشكلة إن زوج أختي رافض توثيق الطلاق.

نامق.. وقد شَعرَ داخله برغبة عيد في الكلام وكأنه يُفرغ ضغطه:

ـ إنت عارف يا عيد أنا لا أتدخل في حياة أحد لكن كلامك محتاج توضيح.

عيد شارحًا:

ـ في المرتين السابقتين.. يمين طلاق.. عادي... تيجي تقعد عندي يومين وبعدين يردها.. لكن المرة دي الوضع مختلف.. لأنه طالما تلفظ بيمين الطلاق بالفعل فقد وقع الطلاق شرعًا.

نامق محاولًا إيجاد مخرج:

ـ أنا على حد علمي إن بعض الآراء الفقهية لا تُقر بوقوع طلاق الغضب.

عيد آسفًا:

ـ لم يكن غاضبًا.. طلقها بكل هدوء.. وبعدين ندم.. المشكلة دلوقتي إنه رافض الاعتراف بوقوع الطلاق.

نامق مستفهمًا:

ـ أنكر التطليق؟

عيد بائسًا:

ـ بالضبط... لا دليل عند أختي إنه تلفظ باليمين ولا حتى شهود لأنهم كانوا مع بعض في الفراش.

وجم نامق قليلًا من صراحة عيد ولكن على ما يبدو كان هذا بسبب شدة الضغط الواقع عليه.

أكمل عيد بلا حرج:

ـ زي أي زوجين أثناء اللقاء ممكن يحصل حوار وحصل كالعادة وتطور لجدال.. شوية وبقى مشادة.. إنتو عايزين الصراحة، هُوَّه عنده حق يطلقها.

أمسك نامق ومعه داليا نفسيهما من الضحك احترامًا لحساسية الموضوع.

وأكمل عيد كلامه:

ـ بسبب مواقف مشابهة سابقة أنا حاولت أكثر من مرة أفهمها إن الراجل في اللحظات دي بيبقى مزاجه على الشعرة.. وإن من الأفضل إن الزوجة تتجاوب مع زوجها.. مش كل شوية تقول له لأ.. لأ.. الصراحة الكلمة دي بتنرفز أي زوج وخصوصًا إذا كانت طلباته منها شرعية.

ردت داليا ذات الوجه المكشوف:

ـ فهمت... إنت تقصد إنه بيفضل أوضاع هِيَّه مش بتحبها.

عيد في ضيق:

ـ تمام... كلمة في التانية.. رمى عليها اليمين.

لم يملك نامق منع ضحكة بسيطة أفلتت منه قائلًا:

ـ وهُمه في الوضع ده.

ابتسم عيد رغم بؤس حالته وأكمل في حيرة:

ـ أنا مش عارف أعمل إيه؟ أختى مطلقة للمرة الثالثة طلقة غير موثقة.. طليقها رافض التوثيق وينكر وقوع الطلاق أصلًا.. بيقوللي إنه حريص على مستقبل أولاده، وفي نفس الوقت أنا مش قادر أرجَّعها بيته لأن ده

معناه إنها حتبقى عايشة مع طليقها، ده غير إنها مش ممكن تتجوز لأنها قانونيًّا زوجة لكن شرعًا مُطلقة.

ـ بسيطة...

قاطع عيد نامق قبل أن يُكمِل مستنتجًا بسهولة ما سوف يقوله:

ـ هُوه رافض موضوع المحلل.. رفض تام. إحنا عايشين في بيئة شعبية يا نامق.. مفيش أسرار... وزوج أختي شغله في المنطقة.. موضوع زي المحلل.. بالنسبة له دمااار.

نامق محاولًا البحث عن مخرج:

ـ ممكن الموضوع يكون في السر، لا حد عرف بموضوع الطلاق ولا حد حيعرف بموضوع المحلل.

ردت داليا ساخرة:

ـ سر إيه؟ المناطق الشعبية مفيش فيها أسرار يا خواجة.

نظر عيد إلى نامق متسائلًا:

ـ شمتان؟

نامق بصدق:

ـ إطلاقًا.. الله وحده يعلم أنا متعاطف معاك قد إيه.

عاد نامق إلى منزله.. قام بتحضير فنجان من القهوة.. ملأت رائحة القهوة أركان المنزل.. وملأت أركان رئتيه قبل أن يحتسيها وتتسرب إلى حناياه ولا يزال ذهنه مشغولًا بما دار في جلسة السيمنار الأخيرة والحوار الذي دار بين الحضور ثم جاءت أزمة زميله فألقت بظلالها على ذهنه المثقل في الأساس حتى أنه طوال طريق العودة إلى المنزل ظل يفكر في هذه الأوضاع العجيبة التي يتعايش معها المجتمع دون أن يحاول أن يجد لها مخرجًا حقيقيًّا مكتفيًا بتلك المقولة التي يسمعها طوال اليوم في مقر عمله:

ـ ما إحنا طول عمرنا كده... إحنا طلعنا لقيناها كده... هو كده...

هذا ما وجدنا عليه أباءنا.. مات من قالوها لكن المقولة نفسها لم تمت.

لا يوجد على وجه الكرة الأرضية شخص ينافس نامق في كراهيته لهذه الكلمة.. كده ناس عايشين مشكلة ولا يشعرون أن هناك مشكلة، كيف يمكن إقناعهم أن المشكلة مشكلة؟

ربما تكمن المشكلة في السبب الذي إن افترضنا جدلًا _ولو على سبيل التمني_ إنه من الممكن الإجماع على تشخيصه وتحديده فإننا سوف نصطدم بالضروة إما بعُرف بالمجتمع أو النص.

هذا غير السبب الأزلي.. مكتسبات الأقوى.

لجأ إلى الكتب التي تزدان بها مكتبة والده والتي تشع منها كل معاني

الجلال في مشهدها المتراص في وقار..

سحب أحد هذه الكتب... جمهورية أفلاطون.. وقرأ:[1]

إنَّ جمهورية أفلاطون الفاضلة هي من الأحلام التي تمنَّى هذا الفيلسوف العظيم تحقيقها، وحاول تحويلها إلى حلم عام عند جميع الناس، ولكن لم تتمكن أيٌّ من المُجتمعات الإنسانية من تنفيذ هذا الحلم على أرض الواقع منذ عهده حتى الوقت الحالي، بسبب غياب الواقعية عن العديد من الأفكار التي طرحها أفلاطون، والتي تُعتبر فقيرة وغير قادرة على محاكاة الفكر البشري، لأن أفكاره ارتبطت مع مفهوم اليوتوبيا، والتي تُشير إلى مصطلح يوناني قديم يعبر عن فكرة عدم وجود المكان، أي يستحيل تطبيق مدينة أفلاطون الفاضلة، نظرًا لعدم توفر المكان، الوطن، الذي يصلح تطبيق هذا النموذج فيه.

الفكرة العامة للمدينة الفاضلة لم تظل مرهونة في الأفكار التي قدمها أفلاطون، بل انتشرت أفكارها في الفلسفة الإسلامية القديمة، وتحديدًا في القرن الرابع للهجرة عندما ظهر المفكر والعالم العربي المسلم الفارابي، والذي قام بتأليف كتاب حول فكرة المدينة الفاضلة، وطرح فيه مجموعة من المبادئ التي تشير إلى المجتمع الإنساني الفاضل المعتمِد على فكرة تحالف الأمم معًا في مجتمع واحد، بعكس مدينة أفلاطون التي اهتمت بفكرة المدينة الضيقة، أي المجتمع الواحد الذي يتم بناؤه وفقًا لمبادئ الفضيلة وضمن

(1) منقول من عدة مصادر مختلفة – بتصرف.

حدوده فقط، وبعد أفلاطون والفارابي ظهرت مجموعة من الفلاسفة الذين اهتموا أيضًا بأفكار المدينة الفاضلة، ولكن لم ينجح أحد منهم حتى الآن في تعميم أفكاره على المجتمعات الإنسانية.

تعتمد مدينة أفلاطون الفاضلة على مجموعة من المبادئ، ومن أهمها:

مدينة خيالية قد تُطبَّق في الواقع، وتُساهم في توفير السعادة لكل شخص يسكن فيها.

عدد سُكان المدينة الفاضلة قليل.

كافة الممتلكات والأشياء الموجودة في المدينة تُعتبر مِلكية عامة، ولا يوجد أي شيء ضمن نطاق الملكية الخاصة.

تتكون المدينة من ثلاث طبقات من السكان، وهم: الأوصياء والمحاربون والمزارعون، ولكلٍّ منهم عمله الخاص.

يعتمد تحقيق الرفاهية لمجتمع المدينة الفاضلة على التعاون بين كافة سكانها، أي أن تتكامل وظائفهم معًا في وحدة واحدة.

انتهى من القراءة.. وشرد ببصره قليلًا..

المدينة الفاضلة عدد سكانها قليل! ألم تكن تلك هي الحُجة التي طالما تحجج بها نظام اتهمه الجميع بالفشل وثاروا عليه؟

كافة الممتلكات والأشياء الموجودة في المدينة تُعتبر مِلكية عامة، ولا يوجد

أي شيء ضمن نطاق الملكية الخاصة... هنا تذكر نامق منار واختلافهم... ألم يكن ذلك حلمها ولكن أين هم هؤلاء الملائكة الذين سوف يقومون بتحويل هذا الحلم إلى حقيقة وإلى واقع؟

تتكون المدينة من ثلاث طبقات من السكان: الأوصياء، والمحاربين، والمزارعين، وكلهم يعملون في المدينة الفاضلة، ولكلٍّ منهم عمله الخاص...

الطبقة الأولى الأوصياء.. إنهم النشطاء... الأوصياء على عقول العامة ومن يخالفهم إما خائن للثورة أو بالتعبير المستجد.. دولجي[1].

المحاربون، إنهم الجند.. لهم وجود دائم في المعادلة لا يمكن تجاهلهم لأنهم القوة.. أما المزارعون فهم العوام.. الجماهير.. الذين لا يرضيهم شيء ولا يقنعون بعطاء ولا يتوقفون عن الشكوى والتذمر.

سحب كتابًا آخر.. مدينة الله.. للقديس أوغسطين وقرأ:

وإذ عادت "مدينة الله" فلأن السادرين إلى النور هكذا يصنعون، يعيدون تأسيس الحياة وبناء مملكتهم أما السادرون في الظلام فإنهم يتقدّمون خبط عشواء.

عاد إلى المكتبة وسحب كتابًا ثالثًا:

المدينة الفاضلة في نظر الفارابي هي المدينة أو المجتمع الذي تتحقق فيه

(1) دولجي: مصطلح صار يطلق على أنصار الدولة العميقة.

السعادة للأفراد على أكمل وجه وتعتمد المدينة الفاضلة على مبدأ التعاون بين أفرادها وفئاتها الاجتماعية مهما تكن تخصصاتها الوظيفية وأعمالها، فالفارابي يقسم أهل المدينة الفاضلة إلى ثلاث مجموعات حسب الأعمال التي تمارسها هذه المجموعات، فهناك مجموعة القادة والحكام ورجال الدين، ومجموعة العسكريين والجنود والمدافعين عن المدينة، وأخيرًا مجموعة الصُناع والفلاحين الذين ينتجون للمدينة ويوفرون لها ما تحتاجه من طعام وكساء ولوازم ومعدات وتقنيات تحتاجها في حياتها اليومية، إذن التعاون في المدينة يعتمد على نظام تقسيم العمل والتخصص فيه، والتعاون الذي يقوم بين البشر على أساس تقسيم العمل هو الذي يفسر أصل وطبيعة الاجتماع البشري.

وتقسيم العمل في المدينة الفاضلة التي وصفها وتكلم عنها الفارابي يعتمد على الحالة أو الطبيعة الوراثية للناس، فالناس يقسمون حسب طبيعتهم الوراثية إلى ثلاث مجاميع أساسية هي مجموعة يسيطر العقل والحكمة والمنطق على نفسيتها وقرارتها، ومجموعة تسيطر العاطفة والانفعال والحماسة على نفسها البشرية، ومجموعة ثالثة تسيطر الغريزة والفطرة عليها بصورة تامة، فالمجموعة التي تسيطر عليها النوازع العقلانية تصلح أن تمارس مهنة القيادة والحكم والفلسفة والقضاء والدين، والمجموعة التي تسيطر عليها النوازع العاطفية والانفعالية تصلح أن تمارس المهنة العسكرية التي تدافع عن المدينة الفاضلة ضد أعدائها في الخارج. فحدث نامق نفسه بأنه ربما على أيام الفارابي لم يكن هناك أعداء في الداخل... لقد ظهروا بعد ذلك،

والمجموعة التي تسيطر عليها النوازع الغريزية والفطرية تصلح أن تمارس مهنة الإنتاج الزراعي الذي يوفر الغذاء للمدينة، ومهنة الإنتاج الصناعي الذي يوفر الوسائل والمعدات والتقنيات التي تحتاجها المدينة في حياتها اليومية، إضافة إلى مهنة التجارة المسئولة عن عمليات تبادل وبيع وشراء السلع والخدمات.

تتكون المدينة الفاضلة من ثلاث طبقات اجتماعية أساسية هي طبقة القادة والحكام ورجال الدين وطبقة العسكريين وطبقة الصناع والفلاحين وتقسيم أو تصنيف المدينة إلى هذه الطبقات يعتمد على الصفات الوراثية والتكوينية التي يتميز بها أفرادها ومنتسبوها.

يشبه الفارابي المدينة الفاضلة بالكائن الحيواني الحي، فالمدينة الفاضلة تتكون من نظم متكاملة ومتصلة الواحدة بالأخرى كالنظام السياسي والنظام الديني والنظام الاقتصادي والنظام الأسري، وإن أي تغيير يطرأ على أحد هذه النظم لا بد أن يؤثر على النظم الأخرى فيغيرها من نمط إلى نمط آخر.

أغلق نامق الكتاب وابتسم... ابتسامة منطقية تمامًا لشخص في مثل حاله.

مصر 30 يونيه 2013

لم يستمر الإخوان في حكم مصر أكثر من عام واحد، لم تحتملهم، لفظتهم كقيء قرح.

ورغم كل ما تعرض له الأقباط من تضييق واعتداءات على الكنائس.. صمدوا ولم يهنوا.. رغم كل ما ألمَّ بهم من أذى وما نالوه من إساءة ثبتوا على وطنيتهم.. تلك الوطنية التي لم يحيدوا عنها يومًا وكما أثبت التاريخ أيَّد الواقع مصداقيتهم ونبل طويتهم، أثبتَ هذا العام المزري أن الأقباط على استعداد لحرق الكنائس من أجل مصر أما الإخوان فهم على استعداد لحرق المساجد من أجل حكم مصر.

وفي نفس يوم تولى العيَّاط الحكم أحيا الشعب هذه الذكرى المشئومة بالنزول إلى الشوارع، في هذا اليوم ملأ الشعب الشوارع وغابت الجماهير.

نزل نامق تأبينًا لروح منار المؤاخية لروح أروى صالح، نزل إحياء لروح الحضارة المقبورة... حضارة البحر الأبيض..

رغم عرقه الألباني عاش نامق مصريًّا، كان أثر البوتقة المصرية فيه أفعل وأمضى فصهرته انصهارًا... مزجته كما مزجت غيره وصبغته بصبغتها الخالصة فصار مصقولًا بعبقها.

نزلَ وهو يُذكِّر نفسه بأنه كان الطالب المُكلف بتشغيل السلام الوطني في الإذاعة المدرسية وتحية العلم في طابور الصباح في بعض السنوات من عمر دراسته.

نزل مرقص... نزل يهتف للبلد التي تعيش فيه لا التي يعيش هو فيها كما علمهم الأب المصري الذي آمن بوطنه رغم كل ماعاناه من تقييد..

نزل مرقص مدافعًا عن حق أجيال لم ترَ النور بعد.

نزل شامل... وكأنه ينتقم مما كان، نزل في الحاضر انتقامًا من الماضي وليس انتقامًا من التاريخ.. فقد أنصف التاريخ أجداده وها هو الواقع يعتذر لهم.

نزل كريم يهتف ضد دولة النقابات... ضد المؤسسات التي تحمي الإهمال وتذود عنه.

نزلت رانيا.. تهتف ببراءة وصدق.. لا تبغي جزاء ولا شكورًا.. لا تريد شيئًا لنفسها فهي في الأساس لا تحتاج شيئًا ولكنها نزلت تبتغي الأمان الذي افتقدته طوال حكم من عام أسود مضى على مصر كالليل البهيم.

نزلت رضوى.. ولأول مرة في حياتها تشارك في حدث سياسي.. حتى ثورة يناير لم تشارك فيها.. تعاطفت مع المتظاهرين لكن من خلف الشاشات مثل كثير من المصريين وقتها، أما اليوم فقررت أن تخترق الشاشة وتصبح جزءًا فاعلًا في الحدث.. نزلت تهتف ضد الظلم والخداع والرياء والاستغلال.. ربما كانت رضوى أكثرهم احتياجًا للنزول في هذا اليوم البهي، كانت في أمسِّ الحاجة لكي تغسل الإهانة.. إهانتها على يد الجهل والعادات البالية المدعومة بثقافة عفا عليها الزمن ولم يعفُ عنها الواقع، هذه المرة نزلت كامرأة أبيَّة وليست أمة مستعبدة، نزلت تطالب بالآدمية وبنصيبها المستحق في الإنسانية المكلل بالاحترام، هذا الاحترام الذي فقدته في كنفِ حكم لا يرى أربابه وأرباب من يوالونه في المرأة إلا وعاء للشهوات ولا يرى فقهاؤه فيها إلا جسدًا لتفريغ مياه الذكورة.

لم يكن هذا اليوم حربًا ضد جماعة الإخوان فحسب بل كان حربًا للدولة ضد اللادولة... وها هو التاريخ يكرر نفسه.. إما الدولة وإما المماليك.. المماليك الجدد... في صورة جماعة لا تعرف ولا تعترف بالوطن، ضد جماعة لا رئيس لها بل مرشد، ولا دستور لها بل تعاليم.

كل من أراد الدولة حضر وكل من أراد الفوضى غاب.

حتى داليا أكدت لمن حولها أنها سوف تنزل في اليوم الموعود وعندما علم نامق بهذا سعد كثيرًا لهذا الخبر فمن المؤكد أن نزول ذات اللسان السليط

سوف يثري الحدث بكل ما تمتلكه من قدرة على كيل ما يمكن تخيله وما لا يمكن تخيله من الألفاظ ومن المؤكد أن حكم الإخوان يستحق لسانها ولا شك، فلا أحد يعلم ماذا يمكن أن يُقدم عليه الإخوان فهم بدورهم يملكون قوة لابأس بها في الحشد قولًا ولفظًا، لذا فمن المؤكد أن كيانًا مثل الإخوان يحتاج الى كيان مضاد، وقديمًا قالوا دواء الضد بالضد ولا يوجد أفضل من داليا لكي يقود لسانها ثورة مضادة ضد هؤلاء الناس...

غاب عماد سعدان ومَن هم على شاكلته.. ممن يكرهون الدولة ويزدرون الوطن ويستخفون بغير آرائهم.. ولم لا؟ ألم يتبوءوا يومًا صدر المشهد ونصَّبوا أنفسهم أوصياء على الجميع..

غاب يحيى سالم وقبع في جُحره خنيسًا بائسًا.

غاب أغلبيتهم ولم يحضر منهم إلا لمامًا من أجل ذر الرمال في العيون وحتى يمكنهم أن يقولوا حين الحاجة إنهم كانوا هناك، ومن حضرَ منهم كان كالعدم وبلا مصداقية فلقد انتهت مصداقيتهم... وإلى الأبد.

قال له محمد علي باشا:

ـ لا ترحل.. ابقَ.

فلبَّاه القائد الفرنسي..

جمعهم وارتحل بهم إلى هناك، إلى أسوان... حيث ينام الأجداد... درَّبهم

وأهَّلهم وبث فيهم روحًا كانت ناعسة لكنها لم تكن أبدًا نافقة.

فالعداء ليس وليد اللحظة بل ضاربًا بأطنابه في غياهب الماضي وأضابير التاريخ... عداء الجماعة للجُند.

كانوا يجدونهم دائمًا أمامهم مثل طائر الفينيق الذي يُبعث من الرماد.

وها هو التاريخ يُعاد، ويعود الأجناد يقفون بالمرصاد ضد من أراد بأهلهم سوءًا ومن أراد بكنانتهم شرًّا.

صدقَ صاحب المقام العلي محمد علي.. وصدق حدسه وقوة فراسته.. إما الدولة وإما هم.

وصان الجيش البلاد...

وكما دافع في قديم الزمان كيميت[1] ضد الهكسوس.. ها هو يؤكد وجوده ويذود عن البلاد ويدفع عنها غدر الغادرين...

أحفاد أحمس الذي أحياهم سليمان باشا الفرنساوي.. يُبعثون مرة أخرى من رحم الألوية والكتائب، يحيطون بأهالى المحروسة.. منتشرين في دروبها باعثين في ربوعها الطمأنينة والأمان..

(1) كيميت: الإسم القديم لمصر.

سقط حكم الإخوان وتولى رئيس المحكمة الدستورية العليا إدارة شئون البلاد إلى أن يتم إجراء الانتخابات الرئاسية.

جُن جنون يحيى وزاد من جنونه تلك السعادة الغامرة التي انتابت رضوى والتي لم تحاول حتى أن تخفيها.. بل تعمدت المبالغة في إظهارها والاحتفاء برحيل الإخوان عن الحكم، لم يُصدِّق ما حدث وبأن حكم إخوانه قد صار أثرًا بعد عين.. ولم يكن يحيى وحده على موعد مع الجنون بل كل من سعى في خرابها كاد أن يصيبه مس من جنون ومنهم عماد سعدان بكل ما يموج به من كراهية تجاه الدولة فكان أشد غِلًّا وأشد فظاظة في رد فعله تجاه ما قام به المصريون في الثلاثين من يونيو.

ولكن يحيى احتاط للأمر فلم يكن من الهيكل التنظيمي للإخوان، كان حريصًا على ألا يفعل، هو فقط إخواني الهوى... لذا ظل يؤكد لكل من يتهمه بأنه إخواني، بأنه ليس كذلك وأنه لم يكن يومًا ما عضوًا في جماعة الإخوان ما دفع أحدهم ذات مرة أن يثور على مَكره ومراوغته قائلًا له بأن الماركسي لم يحلف اليمين أمام كارل ماركس حتى يصبح ماركسيًّا، فيكفي أن يعتقد الإنسان بالماركسية حتى يصير واحدًا من مريديها.. فليس معنى عدم حضوره بين يدي مرشد الجماعة خانعًا يقسم يمين الولاء له بأنه ليس إخوانيًّا بل هو كذلك بالميلِ والهوى والتأييد والعاطفة والولاء الأيديولوجى قبل الولاء الإجرائي.

لم يكن ما قاله هذا الراصد للحال من فراغ، فبعد الثلاثين من يونيو

إذا بأغلبية من كانوا يجهرون بتأييدهم للرئيس الإخواني، إذ بهم يرتدون على أعقابهم خاسئين معلنين أنهم ليسوا إخوانًا ولم يكونوا يومًا أعضاء في تلك الجماعة على حد وصفهم... فجاء رد هذا النابه على يحيى غسولًا لتلك الحجة البالية التي تقطر نفاقًا وتدليسًا.

ورغم سقوط حكم الإخوان، دَاخَلَ يحيى شعور بالطمأنينة فعدم وجوده بين الإخوان تنظيميًّا جعله في مأمن إلى حدٍّ كبير من أي إجراء قد يطوله أما تلك المواجهات اللفظية والظهور أمام البعض بمظهر القافز من السفينة فلا يهم.. طالما أنه في أمان من أي إجراء فِعليٍّ يُتخذ ضده.

عندما خرجت جموع المصريين تعلن رفضها لحكم الغدر والخيانة لم تكن مدفوعة بأي حسٍّ سوى الحس الوطني الفطري، ذلك الحس الذي لا يعرف أي أيديولوجية سوى الرغبة في الحياة العادية، النمطية، ليس لهم من مطلب سوى الحياة الكريمة وقبل كل هذا حياة الأمان.. هذا الأمان الذي لم تعرفه مصر أبدًا طوال عام من حكم الإخوان.

هكذا تحدثت رضوى مع نفسها وهي في طريقها إلى مقابلة نامق... كانت تحادث نفسها وكأنها تنتقم من داخلها، من زوجها الإخواني الذي من المؤكد أنه يعيش الآن أسوأ حالاته أو على أقل تقدير أكثرها اضطرابًا.

رحَّب بها نامق بكل احترام، أما هي فلم تشعر.. بالتجاوز في حق زوجها ولا منافاة للأدبيات المعروفة في أن تذهب للحديث مع شخص غريب

عنها.. اعتمدت على ذلك في أنها سوف تلقاهُ في مكان له صفة العمومية.. مكتبة عامة.. مكان مفتوح... لا خصوصية فيه.. لقاء معلن..

كان نامق يشعر برغبة رضوى في الحديث معه ولكنه لم يُبدِ ما يشي باستنتاجه هذا وكما ترك الأمر للظروف الطبيعية في التعارف مع رانيا، ترك الأمر أيضًا لماجريات الأحداث للقاء رضوى إن رغبت هي في ذلك.

وقد كان...

ذهبت إليه رضوى وهو لا يزال في أشد حالاته النفسية عُسرًا وجرح زوجته المغدورة لم يلتئم بعد، وأنى له ذلك؟ وكلما أوشك على الالتئام يأتي بكاء طفله الرضيع محُيلًا الالتئام إلى انثلام.

قال لها:

ـ أهلًا مدام رضوى.

زي ما توقعت.. مدام رضوى.. كنت عارفة إنك حتلتزم بالرسميات..

باسمًا بسمة بسيطة:

ـ الناس مقامات.. معايير أحاول ألا أنساها.

روت له رضوى في عُجالة وباختصار أزمتها مع يحيى.. استمع لها باحترام شديد دون أن يقاطعها.. وعندما أنهت حديثها ترك لها بعض الدقائق كي تمسح دموعها التي لم تستطع مغالبتها ثم قال لها:

ـ من خلال معرفتي بطبيعة شخصيتك من خلال العمل، وأيضًا بناءً على ما قصصتيه عليَّ...أسباب الأزمة واضحة الأزمة مش الاختلاف في التفكير ولا طريقة التربية ولا الصدمة إللي حسيتي بيها بعد كلام والدك معاكِ واعترافه بسببية موافقته على زواجك من يحيى.. فيه سبب تاني.. في تقديري هو السبب الأصلي والأساسي..

رضوى بفضول:

ـ أي سبب؟

ـ محاولًا التبسط بقدر المستطاع:

ـ نسويتك غلبت أنثويتك... أنتِ بطبيعتك ذات مفكرة.. ربما لم تترجمي ده في صورة أنشطة زي رانيا.. لكن من الواضح أن أساس الأزمة في كينونتك ذاتها.. وإللي عقَّد أزمتك أكتر هُوه إن عقليتك لا توازي مشاعرك.. ببساطة إن جاز التعبير، جهاز تفكير قوي وجهاز عصبي ضعيف.. إنت بتغيري على ذاتك يا رضوى ورضوى هنا مش الاسم إللي المفروض يخضع للرسميات والمعايير ولكن رضوى هنا هي الذات والمرجع.

أكمل حديثه ورضوى منصتة في تركيز:

ـ أنتِ متوحدة مع ذاتك بشكل كبير... تكوينك الطبيعي مدعوم بتركيبة تميل للعمق وكراهية السطحية.. وطبعًا هذا التكوين اصطدم بتكوين الزوج الآتي من ثقافة مغايرة.. مش فقط مغايرة دي مناهضة

ومتناقضة مع جوهرك.. زي ما قلت لك من لحظات.. الكينونة.

وأكملت رضوى الاستماع إليه:

ـ فصيلتك غير فصيلة يحيى.. الاختلاف ليس في الآراء ولكن في الجينات المكونة لمنطلقات التفكير من جذورها..

رضوى وقد عادت دموعها مرة أخرى إلى عيونها:

ـ والحل؟

مُمهدًا:

ـ طبعًا إنتِ عارفة قد إيه أنا مختلف مع والدك في كثير من أمور العمل... وفكرت كثيرًا إني أترك المصنع، وفي كل مرة أتراجع في آخر لحظة.

متعجبة:

ـ أنا باسألك عن الحل في مشكلتي مش في مشكلتك إنت.

ردَّ مبتسمًا:

ـ المشكلة واحدة في جوهرها يا صديقتي الجديدة... تكمن في كلمة واحدة.. الحقيقة... وسأضرب لك مثالًا.. السيد مدير المركز الثقافي إللي أنا بشتغل فيه بيتهمني دايمًا بالتهمة المعتادة.. إني نمطي... ولأن نفسيتي تحسنت تقبلت الاتهام برحابة صدر.. المهم.. المفروض إن المركز حيقوم

بإنتاج بعض الأفلام الروائية القصيرة، أفلام الديجيتال.. سمعتِ عنها.

ردت بزفرة ضيق:

ـ لأ.

ـ أكمل بعد أن ابتسم لرد فعلها المفهوم:

ـ الاجتماع المخصص لمناقشة الموضوع تم في قاعة المكتبة إللي إحنا موجودين فيها دي، وإذا بالسيد المدير يؤكد بأنه لن يقبل إنتاج إلا السيناريوهات الكلاسيكية...

رضوى وقد نفد صبرها:

ـ وده علاقته إيه بموضوعنا؟

رد مفسرًا:

ـ في لحظة نسي مديري ذو الثقافة الأنجلوفرانكفونية اتهامه لي بالنمطية وارتدى هو ثوب النمطية دون أن يلتفت لهذا التناقض، وده ببساطة لإنه وبصفته مدير المشروعات فبالتبعية حيكون هو المسئول عن الميزانية.. باختصار.. هُوه إللي حيدفع... فبالطبع لن يقوم بإنتاج أفلام هلامية تفتقد للمعايير الفنية المعتادة، ولو حتى على سبيل التوقع... في لحظة واحدة استعار مني القميص والبنطلون وأصبح نمطي هو الآخر لأنه سوف يتعامل مع حقيقة.. الميزانية أو المال أو أيًّا كان المُسمى، ولأن المشروع حقيقي له

ميزانية حقيقية لذلك قرر أن يتعامل بمعايير حقيقية وهي السيناريوهات الكلاسيكية المفهومة..

رضوى وقد بدا عليها التعب الذهني:

ـ أنا تعبت من كلمة الحقيقة دي.

استطرد:

ـ الأمر الواقع أو بمعنى آخر.. الاتصال بالواقع وعدم الانفصال عنه.. كنت كل ما أنوي أترك العمل أتذكر شيئًا واحدًا يعيدني عن القرار..

رددت في تلقائية:

ـ هو إن المصنع حقيقة..

وأكمل تلقائيتها:

ـ علشان أستبدله لا بد إني أستبدله بحقيقة أخرى.. لا أهرب من الحقيقة إلى الوهم وحتى إن اخترت الهرب فلا بد أن أفر من حقيقة إلى حقيقة أخرى.

رضوى في ضيق مفهوم:

ـ والخلاصة؟

موضحًا:

ـ أنتِ الآن زوجة.. وبعد عدة أشهر تصبحين أمًّا.. زوجة وأم هذه حقيقة...زي الحقيقة إللي والدك إلتفت لها وكانت دافع للموافقة على زواجك... لأنه في لحظة صدق رضخ للواقع..

ضحك وأكمل:

ـ رغم إني طول اليوم أشتبك معه بسبب قناعتي إن له من المطالب في العمل ما يدل على أنه مفصول عن الواقع.

مفسرة:

ـ يعني المطلوب إني أعترف بالأمر الواقع... نامق.. أنا حاسة في كلامك بـ...

قاطعها مستنتجًا باطنها:

ـ الانتقام... تقصدي طبعًا إنك حسيتي إني بانتقم من عقلية والدك في نصيحتك بقبول الأمر الواقع.. إطلاقًا... حقًّا وصدقًّا.. هو مبدأ واحد أنا طبقته على نفسي وحياتي.

رضوى مستبينة حتى لا تخطئ الفهم:

ـ وما هو؟

مهمومًا:

ـ القبول لا التأقلم... الواقع قاسي جدًّا يا ذات الذات.. وترجع أحد أسباب أزمتك إنك وبحكم مستواك المادي كنت بعيدة تمامًا عن كثير من السخافات في الحياة اليومية.. إلى أن جاءت محطة النزول في أشد مواقع الحياة واقعية.. الزواج، الزواج المُعضد بالقوانين والعادات والتقاليد والعرف الموروث.. ومنها كانت الصدمة.

يائسة:

ـ يعني الحل أن أقبل لا أن أتأقلم...

بلهجة أمل:

احتفظي بجوهرك.. بكيانك، بذاتك... إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.. ربما لو لم تكوني على موعد بميلاد طفل، لهان الأمر... ولكن السؤال هل أزمتك كانت حتنتهي.. لا أعتقد، كانت حتبدأ مع أزمة ومع شخص جديد... إلى أن تجدي شخص من نفس الفصيلة.. شيء في منتهى الصعوبة إن لم يكن مستحيل في مجتمع شرقي، إنت أكيد عارفة مواصفاته.

خرجت رضوى من هذا اللقاء وهي مصدومة وتشعر بمشاعر متناقضة.. تشعر بالغيظ والحنق من المصداقية التي أحستها في تشخيص نامق، وبالحيرة النابعة من يقينها أنها تقف على الأرض.. أرض الواقع.

خرجت وقد صدق فيها قول من قالت:[1]

(1) البيتان منسوبان إلى هند بنت النعمان، عزاءً لنفسها لما وصل بها الحال بعد زواجها من الحجاج بن يوسف الثقفي.

وما هند إلا مُهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت مهرًا فلله درها وإن ولدت بغلًا فقد جاء به البغل

فعليها أن تتعامل مع الحقيقة.. مع الأمر الواقع... مع مصنع حياتها..

لم يقف الإخوان مكتوفي الأيدي أمام ما حدث، فجاء الاعتصام في ميدان رابعة العدوية كوسيلة ضغط على المجلس العسكري بالتراجع عن موقفه..

وبضدها تتمايز الأشياء والأحداث أيضًا... وكأنهم على موعد يفضح تناقضهم، اعتصم الإخوان في ميدان شهيدة الحب الإلهي رابعة العدوية.. اعتصموا ومعهم زمرة من السلفيين في ميدان يحمل اسم الشهيدة الصوفية وهم أبعد ما يكونون عن روح التصوف والتجرد من عرض الدنيا التي يسعون لاقتناصها.. ومارس الإخوان ومن نحا نحوهم هوايتهم المحبوبة في إلقاء الخطب العنترية والوضع لا يزال منفلتًا والدولة ما فتئت تعاني من سيولة أمنية بعد كل ما تعرضت له..

يالله.. رغم كل هذا، هناك من يسب مصر والمصريين دون أن يسأل هذا الشتَّام نفسه.. أي دولة تلك تتعرض لما تعرضت له وتبقى صامدة كالطود الشامخ؟

ويزداد الضغط يومًا بعد يوم على من يدير شئون البلاد... إنه التناقض بين حق التظاهر والاعتصام والذي أصبح الاتجار به تجارة رابحة ومغنمًا

لاكتساب المصداقية ووجاهة الاعتراض والمعارضة، وبين حق الدولة في فرض هيمنتها على الشارع حتى لا تتركه فريسة للخراب.

لم يعد للإخوان شيء يخسرونه... بعد أن خسروا كل شيء في عام واحد، عام واحد أضاع ثمانين عامًا منذ نشأة هذه الجماعة الخبيثة في الإسماعيلية عام 1928.. والمفارقة أن هذا العام هو نفس العام الذي ولد فيه الرئيس الذي ثاروا عليه.

ولكن مبارك رغم كل حماقته في إدارة البلاد فإنه لم يكن خائنًا... كان مبارك مثل الزوج الذي يضرب زوجته ولا ينفق عليها أو مثل الزوج الذي استولى على ميراث زوجته ولكنه ورغم كل مثالبه لم يُدخل عليها رجلًا غريبًا.. لم يفرط في شرفه.. انتهب ميراثها واستباح جسدها ضربًا وجرحًا ولكنه لم يقدمها إلى غيره لا طوعًا ولا كراهية.. كان مبارك ورغم تبلده المعروف أمينًا على شرف بلاده، ولهذا عاش فيها بعد تخليه عن الحكم.. ربما يكون قد شعر بالندم ولكنه من المؤكد أنه لم يشعر بالعار.. ولهذا مكث فيها ولم يبرحها وتقبل الناس وجوده بينهم لأنه أهمل ولكنه لم يخن.

وعلى العكس شعر المصريون تجاه الإخوان بأنهم مجموعة من الأفاقين لا عهد لهم ولا كلمة.. تحرك الحس الشعبي.. ذلك الحس الذي لا يخيب أبدًا.. حس الشعب لا حس الجماهير فالشعب يحركه الحق أما الجماهير فيحركها الباطل ويطربها الطبل.

وهذا هو الفرق... الشعب يقف بجانب بلاده، بجانب الدولة.. أما الجماهير فتقف إلى جانب المجموعة... الميليشيا.. الفئة... أو أيًّا كان المسمى.

لم يجد الإخوان من يؤازرهم ولا عرفوا عضدًا ولا ظهيرًا إلا أن يبركوا مثل الإبل في الشارع تحت الخيام.. جاءت إليهم القنوات الفضائية والصحافة.. جاء إليهم النشطاء والمخربون والمتمولون.. جاءوا جميعًا ليحتلوا ميدانًا من أهم ميادين القاهرة حينئذ. سمع نامق نحيب الخديوي وهو يبكي على مدينته التي طالما حلم أن تصبح مثل الحواضر الأوروبية تشدو على أشجارها العنادل فإذا بها تُمسي باكية بين يدي الغربان.

ازدادت وتيرة العمليات الإرهابية في سيناء واستفحل أمر الاعتصام حتى صار مثل البؤرة النتنة.. كالبثر المملوء صديدًا ينشر قيحه في جسد العاصمة. وكان لا بد للدولة أن تتحرك.. وصدر القرار بضرورة تطهير الميدان من هذا الغثاء..

وفَّرت الأجهزة الأمنية للمعتصمين ممرًا آمنًا لمن أراد الخروج.. فلم يكن الهدف هو إسالة دماء ولكن الهدف هو التصدي للغوغائية وإعادة الهيبة لدولة القانون.

لقي أمر فض الاعتصام ترحيبًا كبيرًا من جموع المصريين ما عدا المتعاطفين مع الإخوان وبعض النشطاء وكثيرًا ممن كانوا يتربحون إعلاميًّا من هذا الاعتصام الداعر...

هرب قادتهم كالعادة... فرَّ منهم من فر إلى مكان مجهول ومنهم من هرب غربًا إلى الصحراء، لم يثبت أحد منهم في مكانه.. وبعدما كانوا يتصايحون ويجهرون بالتحدي للدولة إذا هم في لمح البصر يتبخرون ولم يبقَ لهم أثر.

ولأن الفض كان ضربة موجعة لمن كَمُن في نفوسهم مرض فكان لا بد من ضربة ثأرية وجهت إلى أحد مؤسسات الدولة وعنوان أمنها.

استيقظ عصام مبكرًا وألقى نظرة على والدته وابن أخته النائمين في سلام، ارتدى بدلته الرسمية واتجه إلى عمله في قسم شرطة كرداسة.

كرداسة تلك المنطقة الشهيرة بصناعة الجلاليب حتى كادت أن تبلغ شهرتها الآفاق... بدلًا من أن تصير رمزًا من رموز التراث ويأتيها السائحون من كل حدب وصوب كانت على موعد مع رموز الخسة والغدر.

اقتحم القسم مجموعة من البلطجية مدججين بالأسلحة النارية والبيضاء ليرتكبوا مذبحة رهيبة راح ضحيتها ثلاثة عشر ضابطًا من ضباط القسم وكان عصام أحد هؤلاء الضحايا.

سقط شهيدًا سابحًا في دماء نقية.

لحق بمنار.. لحق بأخته التي سبقته إلى السموات العلى، تاركًا وطنًا مهمومًا وأمًّا ثكلى.

عرف نامق بما حدث لعصام، هرول إلى بيت زوجته وجد الأم هائمة لا يقوى عقلها أن يصدق ما حدث.. وجدها صامتة تنتظر أن تمتلئ مقلتاها بالدموع مرة أخرى بعدما فرغت كل دموعها في دقائق لا في ساعات، وجدها واجمة وبين يدها صامد باكيًا يشارك جدته الحزن.

"وسيفتح الله بابًا كنت تحسبه من شدة الغلق لم يخلق بمفتاح"

انطبقت هذه المأثورة على حال نامق الذي لم يدرِ ماذا يفعل بعد مصرع عصام عندما سقطت الأم بلا حراك وبعد أن كانت ترعى الرضيع أضحت هي تحتاج إلى مَن يرعاها بعد أن فقدت ابنتها وابنها تواليًا. و"لأَنَّ مَرَاحِمَهُ لَا تَزُولُ"[1] عادت إنزا بصفة نهائية بعدما اتفقت مع زوجها على أن يتلقى ابنهما تعليمه في مصر.. بناءً على نصيحة من أم زوجها التي فضَّلت بدورها يومًا ما أن يتلقى أبناؤها تعليمهم في مصر على أن يكتفوا بزيارة والدهم في البلد الذي يخدم فيه كلما سمحت الظروف.

قالت لها أم زوجها ذات مرة:

ـ الناس فاكرة إن حياة الديبلوماسيين كلها عزومات وحفلات استقبال.. مع إنها حياة في منتهى الصعوبة.. وخصوصًا إذا كان الزوجان في السلك الديبلوماسي وده غالبًا ما بيكون الوضع.. بيبقوا عايشين حياة أشبه بحياة الغجر...

(1) سفر مراثي أرميا.

ضحكت زوجة السفير وهي تستكمل حديثها:

صادق حكى لى إن فيه مرة سفير من أصدقائه المقربين فضفض له إنه كان عايز يشوف زوجته، هيه كمان كانت سفيرة.. هوه في الدنمارك وهيه في جنوب إفريقيا... اتفقوا يتقابلوا في المغرب.. نصف المسافة تقريبًا.

ردت إنزا في براءة:

لكن ده كان زمان يا طنط، دلوقتي السكايب ووسائل التواصل والموبيل.. فجأة قطعت إنزا كلامها بعد أن لمحت ابتسامة على وجه حماتها... فانتبهت إلى أن السفير لم يكن في حاجة إلى سفيرة ولكنه زوج يحتاج إلى زوجته... السفراء أيضًا يرغبون...

إنها تلك الشهوة الغبية التي لا تفهم الظروف القاسية التي لا تقتنع بالأعذار.. تأتي بلا سابق موعد وتقتحم الذهن بلا استئذان... نفوس البشر بالنسبة لها سفارة تمارس فيها سيادتها.. بقوة الطبيعة..

أخرجت الأم المخضرمة إنزا سريعًا من حالة الإحراج التي أوقعها فيها لسانها بحسن نية:

بصراحة هوه ده السبب إني مكنتش عايزة ابني يتجوز من السلك الديبلوماسي أنا عارفة.. أنا لو كنت بأشتغل في السلك الديبلوماسي كانت حياتي حتبقى جحيم.. صادق معظم السنة مسافر لكن كان بييجي لنا أجازات دايمًا وإحنا كمان كنا أحيانًا نروح له.. الأولاد استقروا في المدارس

طوال السنين، علشان كده أنا نصحتك إنك ترجعي مصر وتدَّخلي الأولاد مدارس هنا وأيمن يبقى ييجي لكم أجازات.

وحققت الأقدار معنى اسم إنزا في شخصها، فإنزا التي تعني الهدية اسمًا، أصبحت هدية فعلًا فبمعرفتها بطبيعة الحال بما جرى لمنار عرضت عليه أن ترعى الرضيع.. بجانب رعايتها إلى ابنها وكأنها أنجبت مرة أخرى وخصوصًا بعد أن استأذنت زوجها الذي أبدى تعاطفًا مفهومًا، كما أن هذا الوضع لن يُسبب له أي إزعاج وهو المسافر معظم أيام السنة.. ومما فرَّج الهم أيضًا هو أن والدة زوجها لم تكن طاعنة في السن بل كانت لا تزال على رمق ومن جانبها أبدت هي الأخرى استعدادها للمساعدة في رعاية الرضيع خصوصًا مع الترحيب الشديد من جهة صادق الذي بات متعاطفًا مع نامق بسبب أزمته بصفة عامة، هذا غير الإعجاب المسبق به بصفة خاصة.

قبَّل نامق يد والدة زوجته وقبَّل رأسها وحمل ابنه وذهب به إلى بيت أخته التي فتحت له الباب باسمة قائلة:

ـ مفيش فايدة زي ما كان بابا وماما بيسيبوك معايا وإنت صغير.. إنت كمان أهو حتسيب ابنك معايا.. يعني مفيش فايدة.. ورايا ورايا.

احتضنت إنزا صامد وعرضت على أخيها أن يبيت تلك الليلة عندها ولكنه اعتذر، طَبَعَ قبلة على جبين ابنه وانصرف وهو يكاد يغالب دموعه.

فتح نامق باب شقته ودخلها وكأنه يدخلها لأول مرة، وقف ينظر إلى الردهة الفسيحة والسقف السامق ووقعت عيناه على لوحة من لوحات شانت أفيديسيان[1] فنظر إليها وكأنه يراها لأول مرة.. فتواترت عليه الذكريات، هبَّت رائحة والديه.. واشتمَّ عبق ذكراهما.. عبق سليمان كاظم النامق وكوهار إيشمازين.. المنزل الذي احتضن أجمل العلاقات وتجاوز المذاهب والأعراق وعاش بين جنباته أب راقٍ وأم أرقى... ثم أنارته منار مرة أخرى حيث وضعت فرشاتها واستقرت لوحاتها. إنه التجسيد الحي لشطر بيت المتنبي:

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ

لم يكن المنزل بالنسبة إليه منزلًا عاديًّا بل كان حالة، يؤوب إليه كل يوم بعد انتهاء يومه.. يعود إلى المنزل.. ملجئه الآمن من سخف الواقع... ربما لهذا يحب المصريون بيوتهم.. ويهتمون بنظافتها وترتيبها.. من المؤكد أن هذا هو السر.. إنه السكن.. السكينة.. وها هو مقتضى الحال سيسكن إلى منزله محتضنًا ذكرياته الممتدة، مُستعيذًا بمكتبته.. مستحضرًا روح والديه ولوحات زوجته.. رغم كل شيء فإن له وطنًا خاصًّا به.. وطنًا لا يشاركه فيه أحد.

(1) فنان تشكيلي مصري من أصل أرمني.. ذاب في الواقع المصري وتمخض عن هذا الذوبان أعذب اللوحات، رحل عن الحياة عام 2018.

جلسَ هائمًا، سابحًا في شجن...

أمال رأسه على النتوء البارز أعلى ظهر المقعد وتنفس حتى كادت السماء تسمع خلجات أنفاسه.

لاذ إلى أحب الأشعار إليه... قاده ذهنه المتعب إلى البلاد المحجوبة.. الأمل الذي أمَّله جبران يومًا.

البلاد التي لن تتحق إلا بدولة الفضيلة، لتُجَذِّر الفضيلة، البلاد التي مهما كان الاختلاف بين سكانها فسوف يحيون في أمان لأنهم جميعًا ينتمون إلى نفس الفصيلة.

البلاد التي تكون وطنًا لمن يحملون نفس الأخلاقيات والمبادئ والأفكار.

اجترَّ ما نظمه صاحب الحس الشجي.. ذلك الشاعر الرهيف:

هُـو ذا الفجْرُ، فقومي ننْصَرِفْ عــنْ بـلادٍ ما لنـا فيهـا صديقْ
ما عسى يرْجو نباتٌ يختلِفْ زهْـرُهُ عــنْ كُلِّ ورْدٍ وشـقيقْ
وجديدُ القلْـبِ أنَّى يأْتَلِفْ مـعْ بـلادٍ كلُّ مـا فيهـا عتيـق

ناح نامق باكيًا:

يا بـلادًا حُجِّبَـتْ منْذُ الأزَلْ كيفَ نرجوك ومن أين السبيل

أَسَرابٌ أنتِ؟ أم أنتِ الأمل؟ في نفــوسٍ تتمنَّى المســتحيل؟

***

لسْتِ في الجَوِّ ولا تحْتَ البحارْ لسْتِ في السَّهْلِ ولا الوعْرِ الحَرِجْ
أنتِ في الأرواحِ أنْـوارٌ ونارْ أنـتِ في صـدْري فـؤادٌ يخْتلِج

نعم هي في الأرواح.. الأرواح المؤتلفة المتلاقية على نفس الدرب... السائرة إلى نفس المرام... الأرواح المختلفة في الاسم، في الشكل، المتحدة في الفصيلة.

خطا إلى حجرة النوم وقام بتغيير ملابسه وارتدى البيجاما...

ـ معيار النوم يا منار...

استقدم النوم استقدامًا فقد كان في أمسِّ الحالة إليه فحالته أضعف كثيرًا من أن يظل ساهرًا.. فسعى يطلب النوم رحمة بنفسه من عذاب الذكريات التي تجتر بعضها بعضًا اجترارًا... نام نامق ولكنه لم ينم.

يبقى الحال على ما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء للقضاء.

لخصت تلك الجملة القانونية المصرية الشهيرة أحوال الجميع.. جملة بليغة توضح عوار الحال ولكن أي قضاء سوف يلجئون إليه؟

القضاء لن يفعل لهم شيئًا.. لأن المنظومة أقوى من القضاء..

النص أقوى من القانون.

والعُرف أقوى من النص.

الكل يخضع للمنظومة وليس للنظام... المنظومة أقوى من الجميع.

السمع والطاعة.

ابن الطاعة تحل عليه البركة.

من بيدهم الحلول لا يعانون من المشكلات.. بل على العكس من الأفضل لهم ألا تُحل حتى تستمر... ويستمروا.

بقي مرقص مُعلقًا لا يستطيع أن يمارس زواجه بشكل طبيعي ولا يستطيع تطليق زوجته.

عيد يكاد يفقد عقله وهو لا يدري ماذا يفعل.. فهو يعلم بحكم ثقافته الدينية أن ثلاثة أحكام لا مزاح فيهم، جِدهُن جد وهزلهُن جد، الزاوج والطلاق والعتق، لا أحد يتزوج مازحًا ولا يُطلق مازحًا، وقديمًا لا يعتق رقبة مازحًا.. يقع الزواج بشروطه، إيجاب وقبول وإشهار، ويقع الطلاق بمجرد التلفظ، وها هي أخته يا ليتها زوجة معلقة بهجر زوجها أو نفوره منها، بل هي مطلقة معلقة.. لا زوجة ولا مطلقة، هي مطلقة شرعًا وزوجة قانونًا.

بقيت رضوى كما هي فترة تتخبط في حيرة.. لا تدري ماذا تفعل، الواقع أقوى منها ويا ويل من لم يستطع الانفصال عن الواقع، لهذا يرتاح من يستطيعون الانفصال عنه.. فقررت العودة إلى منزل زوجها.. أن تتعامل مع الواقع.. أن تقبل لا أن تتأقلم.

أما رانيا تلك الصغيرة فبقيت كما هي.. تحلم ببراءة.. تحلم بالحرية والآدمية والمستقبل.

عماد سعدان.. استطاع أن يستغل الظروف وطار إلى تركيا حيث القنوات الفضائية والأموال والغِيد الحسان.

في صباح الرابع من يوليو، استيقظ نامق في السادسة صباحًا مرتحلًا إلى المصنع.. إلى المخزن... إلى الثابت الذي لم يتغير.

مرَّ يوم العمل في صخب من أحاديث لم تتوقف بين مؤيد لما حدث في الثالث من يوليو وبين معارض له.. انقسم المصنع إلى فريقين مثلما انقسمت مصر.. ولكن اليوم مرَّ.. وها هو اليوم ينتهي في الموعد المحدد كما ينتهي كل يوم..

انصرف الجميع.. وكالعادة وكديدنهم تركوا كل شيء إلى المسئول.. إطفاء الأنوار.... إغلاق النوافذ.. التأكد من إحكام الصنابير، رغم أن هذا عملهم، لكنهم لم ولن يفعلوا لأن هناك مسئولًا عليه أن يراجع إتمام كل هذا وسوف يفعل.. هو المسئول بحكم موقعه في نظام العمل.. حتى لو كانت تلك الأمور استكمالًا لمهامهم اليومية.. هذا هو النظام.

ولكن في نهاية هذا اليوم تحديدًا، في هذه المرة لم يغضب من زملائه لأنه تيقن أن ما سقط في مصر هو نظام تلو نظام ولكن ما لم يسقط هي المنظومة..

تتبدل الأنظمة وتبقى المنظومة.

كل شيء في مصر كما هو لم يتغير.. تأكد نامق من الخاطر الذي يُخاطره كل حين بأن المخزن ليس جزءًا من مصنع ولكنه جزء من وطن، ترجمة

فعلية للمنظومة.. وأن كراهية التغيير في محل عمله هي جزء من كراهية أعم وأشمل.

ألم يسمعها من شاهين يومًا.. هذا هو نظامنا Take it or leave it.

فلم يكن التغيير مكروهًا فقط من نظام حكم سقط في الخامس والعشرين من يناير، ولكن كراهية التغيير كامنة في نفوس المصريين، حتى شاهين الذي يزدري المصريين _رغم أصوله الريفية_ يكره التغيير هو الآخر لأنه ورغم أنه لا يعتبر نفسه من أهل مصر فإنه من أهل الشرق، من الذين لا يعرفون إلا فعل الضرورة، ولهذا نجح لأنه متسق تمامًا مع محيطه، لا يضيع عنده حق.. نعم، لا يغدر.. فعلًا، تلك حسناته ومبادئه التي رسَّخ بها وجود العاملين عنده فاستطاع أن يكسب ولاءهم لمؤسسة توفر لهم رزقًا آمنًا ودخلًا مستقرًّا _داخل النظام_ جانيًا جرَّاء ذلك زَهرَ خبرتهم التي تشكَّلت عبر السنين ولكن من ناحية أخرى استطاع أن يتسرب من ثقوب اللوائح وأن يفلت من سطوة كثير من الاشتراطات التي تلزمه بنودها خداعًا وتحايلًا وإخفاء.. طالما أنه يأمن يفعل.. هذا أيضًا نظامه.. ولهذا استمر ونجح ليس لأنه تأقلم ولكن لأنه تحايل على ما لا يقواه فربح.

تغيَّر النظام... وظل هذا الجالس أسفل الشجرة ينتحب باكيًا وهو يشدو طالبًا من الناس أن يأتوا له بحبيبه المفقود.. "فين حبيبي يا ناس هاتولي حبيبي"... حتى أن الأبيض تعجب من هذا الشادي... فمن يريد شيئًا عليه أن يبحث عنه.. المفقود لا يُعثر عليه إلا عبر البحث الدؤوب وليس بالغناء الطروب.

انتبه نامق لماذا حكم مبارك المصريين ثلاثين عامًا.. حكمهم لأنهم يطابقونه، مثله تمامًا.... الجميع عنيدون حاكمين أو محكومين، الكل يُمارس العناد داخل نظامه.

الأزهر عنيد...

الكنيسة عنيدة...

القوانين عنيدة...

التقاليد عنيدة...

الكل جلاميد...

لا أحد يقتنع مهما كانت الحُجة، حتى وإن كانت هي الواقع الشاخص، فإن صار للواقع صولجان من بيِّنة لا ينكرها منكر.. فلا رادَّ لتلك البيِّنة إلا التمترس خلف ما في الصدور من عاطفة أو ما في العقول من رواسخ، والتدرع بهيلمان العدد، والتذرع بالخوف على الأصول.

لا أحد يقتنع بصواب أو خطأ، فلا يوجد في معاييرنا صواب أو خطأ ولكن يوجد قوي وضعيف، هذه هي المعايير، الأقوى على صواب والأضعف على خطأ.

وتتبدل الأدوار...

شاهين هو الأقوى في المصنع لكنه الأضعف كأب أمام زوج ابنته المُتحصن بالعُرف والعادات والنصوص المقدسة.

الأضعف أمام القانون الذي سوف يفتت مصنعه بين ورثته، هو مقتنع أن المصنع من حق ابنتيه.. لكن القانون غير مقتنع.. هذا هو النظام.. فعليك يا شاهين أن تخضع للنظام.. للأقوى...وأن تتأقلم بدورك للقانون صاحب الإمرة، ولهذا قال المصريون قولهم البليغ.. القانون حمار، ثم أكملوا قولهم بنصيحة نشبت من رحم التجارب المريرة التي عانوها طوال التاريخ:

ـ اربط الحمار مطرح ميقولك صاحبه.

شاهين هو صاحب الحمار وعلى الجميع أن يربطوا الحمار مطرح ما يقول صاحب المصنع.. صاحب الحمار.

والقانون هو صاحب الحمار في الواقع وعلى شاهين أن يربط الحمار طبقًا لبنوده ولمواده.. وعليه وعلى ابنته أن يتأقلما، فلا الطرف الآخر ولا القانون يفرق معهما طريقة تفكيره ولا قراراته البارشوتية التي يواجه بها مشاكله، هذه المرة هو المنفذ وليس الآمر بالتنفيذ، هذه المرة لن يجد أمامه نامق ولكن سوف يجد عائق، عائق لا سلطة له عليه ولاهيمنة، فلا مناص إلا أن يخضع بدوره إلى يحيى... صاحب الحمار.

وكما قال شاهين لنامق، قال الواقع لشاهين نفس الجملة.. نفس المبدأ:
Take it or leave it

لا قيمة لماله أو صوته الهادر أمام القانون وهذه المرة ليس قانونًا إداريًّا يتحايل عليه إن قدر ولكن قانونًا لا يعرف إلا كلمة واحدة لم يسمعها شاهين من سنوات طوال.. كده..

وكل قائل لـ"كده" _بناءً على موقعه_ سوف تُقال له يومًا عندما يتغير موقعه ويطبق عليه "قانون كده".. فالأيام دول. وكل شاهين له شاهينه.

فالأقوى وليس الأصوب هو من تكون له الغلبة، لا يوجد صواب أو خطأ.. يوجد أقوى وأضعف، كن قويًّا تكن على صواب، وكما يقولون بالفرنسية: c'est la vie هذه هي الحياة.

الكنيسة هي الأقوى وفي يدها هي _وهي فقط_ صك ما تتوق إليه، لن تمنحه لك يا مرقص فأنت في معاييرها لا تستحقه رغم رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "وَلاَ تُشَاكِلُوا هذَا الدهْرَ، بَل تغَيَّروا عن شكلِكُمْ بِتَجدِيدِ أَذهَانِكُم، لِتَخْتَبِروا مَا هي إِرَادَةُ الله: الصالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الكَامِلَةُ".

وعلى جانب آخر، وهو فعليًّا ليس آخرًا بل نفس الجانب بنسخة مختلفة الشكل متفقة الجوهر يقول السلفيون: المتغلب بالشوكة تحق له الطاعة.

لذا عليك يا عيد أن تقر بغلبة الواقع وتعيد أختك إلى طليقها فهو المتغلب بالشوكة، فالغلبة وليس العدل هو المعيار.

إنها القوة.. ولا شيء سواها.. (سلامٌ عليك يا نيتشه).

انتبه نامق إلى أن الشطرنج الذي يهواه هو في الأساس لعبة قتل، وأن الرابح هو من يقتل أكبر عدد من خصومه.

اجتر نامق السؤال الذي سأله لنفسه مرارًا كلما نظر إلى رقعة الشطرنج:

ـ لماذا يلعب الأبيض أولًا؟

هام نامق لحظاتٍ في فيض السؤال الذي طالما شغل فكره...

ـ الأبيض يلعب أولًا حتى يسبق بخطوة ويصنع الحدث لا أن ينتظره.

ـ يلعب أولًا... لأنه يدافع عن النموذج.. فنموذجه يستحق أن يدافع عنه لأن الأبيض لم يحصل عليه مجانًا.. فالله لم يخلق المجانية.

يلعب أولًا.. يقفز أولًا.. يخرج أولًا.

يلعب أولًا حتى يكون فارسًا لا فريسة.. ليقتل أولًا لا أن يُقتل أولًا.

وكما خلّد التاريخ الغزاة والفاتحين من كل الأجناس والشعوب والبلدان، مجَّد القتلة لا المقتولين... فكان الخلود للمفترس وليس للفريسة.. المجد لاسم الأقوى، لهذا لا يزال الناس يطلقون على أبنائهم اسم "قابيل" القاتل المجرم، لا اسم "هابيل" المقتول.. الضحية.

وتستمر الحياة... تمر السنون، يتغير الزمان والأبيض يلعب أولًا، يرى الصورة كاملة غير مجتزأة من سياقها لأنه لا يعرف العشوائية.

يبحث عن مفقوده بنفسه ولا ينتظر أحدًا أن يبحث له ويجلس شاكيًا باكيًا يمارس الغناء بلا عناء.

وعادت الأسئلة كالسهام تخترق ذهنة كالعادة.. سألته نفسه.. صديقته التي طالما حادثها:

ـ هل تستطيع يا نامق أن تلعب أنت أولًا أم أن الوقت قد فات؟

هو الآن أب لابن لم يعِ أمه ولن يعيها مستقبلًا إلا صوتًا مُسجلًا أوصورة

بلا روح، هو الآن في الواقع... في قلب الحياة بكل سطوتها وقسوتها.

ولكنه لن يستسلم.. يتراجع قليلًا... سيقاوم.. حتى لا يسقط، سيستمر في الحياة.. في العمل.. في ممارسة كل شيء فالحياة لا تخسر أحدًا وكما يقول أحفاد نابليون: القبور مليئة بالمشاهير الذين ظنوا أن الحياة سوف تتوقف بدونهم.

إنه القبول... لا التأقلم... الهزيمة دون انهزامية.

وتردد الصدى داخله...

ـ سيسخرون منك.. سيقولون مجنون... فعليك أن تنثني حتى لا تنكسر ولكن لا تخضع ولا تخنع... استدعِ النموذج من بين ثنايا الكتب غوثًا وعونًا..

لهم ما يريدون... للمجتمع ما يريد ولشاهين ما يرغب...[1] ولكنها تدور...

وحينما يبلغ السيل الزبى وتبلغ الروح الحلقوم استمع لما قاله المُخلص القويم..

ـ إذا كان العالم كله ضدي فأنا ضد العالم..[2]

ومن بين أجداث الألم بُعثت الروح... روح الفصيلة لتبث الروح في

(1) جمله منسوبة الى جاليليو ولها من الشهرة ما يغني عن سرد ظروف قولها.

(2) تعد هذه الجملة من كلاسيكيات الإرث الأرثوذوكسي، قيلت على لسان القديس إثناسيوس بابا الإسكندرية حوالي سنة 328.

الفضيلة... فضيلة التصلد دفاعًا عن الجوهر، حَيثْ كي تُعزيه وتشد أزره لكي يستسلم للأمل ولا يندثر تحت ركام التقبل ورهاب الحياة[1].

طمأن نفسه _رغم الوهن_ بأنه سيظل كما كان دومًا مُحتفظًا بكينونته، صوفيًّا، وحدانيًّا، مُستَغْنِيًا، يكبر في العمر ولا يشيخ.. يلوذ إلى عاداته التي لم تخذله يومًا في إنقاذه من براثن الآلام.

يرى لا يشاهِد...

يتأمل لا ينظر.

يستمتع باصطفاف أدوات المائدة فالحيوانات أيضًا تأكل ولكنها لا تأكل بأدوات الطعام.

تتناكح ولكنها لا تعرف نور الأباجورة.. لأنها حيوانات.

لن ينسى أبدًا أنه إنسان وأنه درويش كتب.

صفقَ نامق الباب ولم يفت عليه قبل أن يوصده أن يمد يده مُغلقًا مفاتيح لوحة الكهرباء ليسقط المكان بأكمله في ظلام دامس.

(1) كان جان بول سارتر يرى أن "المثقف" و"الموظف" نقيضان، ما اجتمعا في شخص واحد إلا وقتل الموظفُ المثقفَ.

للتواصل مع المؤلف

m.elsorory@gmail.com